سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الثالث

سلسلة
القصص القرآنى



المجلد الثالث



- نسبه وقومه ، ومبعثه .
- عروبة شعيب .
- شعيب فى القرآن .
- مآثم قومه .
- موقف قومه من دعوته .
- صور من فسادهم .
- شعيب يذكر قومه .
- شعيب خطيب الأنبياء .
- جزاء الظالمين .
- شعيب بين أهل مدين وأصحاب الأيكة .
- شعيب ختن موسى - عليه السلام .

نسبه وقومه ومبعثه :

بعث الله نبيه شعيبًا - عليه السلام - فى مدين ..

و «مَدْيَن» اسم مدينة أو إقليم فى أطراف الشام مما يلى الحجاز ويطلق عليها اسم «معان» أيضًا ..

و «مدين» اسم قبيلة أيضًا كانت تقطن هذا المكان(١)

وأهل «مدين» عرب، ونبيهم «شعيب» عربى . وقد ورد في ذلك حديث شريف رواه أبو ذر - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - حين سأله عن الأنبياء وعددهم . فقال - فيما ذكره - : منهم أربعة عرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر .. وقد تقدم هذا الحديث ..

وهذا الاسم عربى مرتجل، وقيل : هو تصغير «شعب» بفتح الشين أو كسرها ..

واسمه فى التوراة - كما ذكر صاحب تفسير المنار - «ميكائيل» ..

واسم بالسريانية «خبرى» بن يشخر بن لاوى بن يعقوب - عليهم السلام - وقد يكون «يشخر» هذا تصحيفًا للاسم «يشجر» كما صحف خبرى إلى «جزى» أو العكس .

وذكر بعضهم أن اسمه بالعبرانية «يثروب» وبالعربية شعيب، وهو ابن عيفا بن يَوْبَب - بزنة جعفر - بن إبراهيم - عليه السلام -(٢).

وقال المسعودى : هو شعيب بن نويت بن راعوايل بن مر بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم - عليه السلام -(٣).

---

(١) فى رحاب الأنبياء والرسل د. عبد الحليم محمود ص ١١٤ .

(٢) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٦٦ .

(٣) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٥ .

قال : وكان لسانه عربيًا ، ويلقب بخطيب الأنبياء .

أما القرطبي فيقول : هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم وهو حمو موسى . والد زوجته .. فقد ورد في التوراة في سفر الخروج - الاصحاح الثالث - : أن اسمه «يثرون» والعبارة نصها : وأما موسى فكان يرعى غنم «يثرون» حميه كاهن «مديان» ..

ويثرون هو يثروب - السابق بتصحيف بين الباء والنون - .

وله اسم آخر أيضًا - ولعله لقب - هو «روعئيل» ومعناه الصديق أو الصادق في عبادته ..

وعلى ذلك فلا حجة لمن يقول : إن شعيبًا كان متقدمًا على زمن موسى - عليه السلام - .

قد يكون متقدمًا في الرسالة ، وذلك حق ، لأن موسى - عليه السلام - نبيء بعد عودته من مدين وهو في طريقه إلى مصر مصطحبًا أهله ..

وكان شعيب - عليه السلام - في ذلك الوقت قد شاخ وكبرت سنه ، وكان قد أدى رسالته ، وأهلك الله من كفروا به ، ونجا هو ومن آمن به وأقاموا في مدين .

وقد ورد من الأخبار الصحيحة ما يفيد أن شعيبًا هو صهر موسى - عليهما السلام - أخرج الطبراني : نعم الحى عنزة مبغىٌّ عليهم منصورون رهط شعيب وأختان موسى[٤].

لقد اختلف الرواة في اسمه ونسبه كثيرًا . ولكن ذلك لا يقدح في وجوده بعد أن ذكره القرآن ، وأورد قصته في مواضع متفرقة .

---

(٤) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٦٧ ، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ، وفي ترجمة سلمة بن سعيد .

أما «مدين» باعتباره علمًا لرجل. فهو واحد من ستة ولدتهم «قطورة» العملاقية زوجة إبراهيم - عليه السلام - بعد وفاة «سارة».

وهؤلاء الإخوة هم: زمران، ونقشان، ومدان، ومديان وهو مدين، وبشباق، وشوحا.

والمدينيون عرب، والعرب يفتحون ميم الكلمة، وأهل الكتاب يكسرونها.

وأرضهم كانت تمتد من خليج العقبة إلى موآب وطور سيناء، وبعضهم يقول: إنها كانت تمتد من شبه جزيرة سيناء إلى الفرات. ويقول: إن الإسماعيليين كانوا من سكان مدين[٥].

أما لقبه خطيب الأنبياء فلحسن بيانه وقدرته على مراجعة قومه وإقامة الحجة عليهم.

شعيب فى القرآن الكريم:

وقد ورد اسم شعيب فى القرآن الكريم إحدى عشرة مرة فى أربع سور هى: الأعراف وهود والشعراء والعنكبوت.

والسور الثلاث الأولى تعرضت بالتفصيل لقصته، وأوردت مجادلته لقومه ومحاجته لهم. سواء كانوا فى مدين أو الأيكة.

وقال القرآن الكريم عن قوم شعيب مرة بأنهم أهل مدين، ووصفهم فى سورتى الحجر والشعراء بأنهم أصحاب الأيكة.

والأيكة هى واحدة الأيك وهى الشجرة العظيمة، وكانوا يعبدونها من دون الله. قال -تعالى-: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[٦].

---

(٥) تفسير المنار.

(٦) الآيتان ٧٨، ٧٩ من سورة الحجر.

وقال - تعالى - :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾(٧)

ولا تعارض في الواقع .. فقد كان أصحاب الأيكة - كما يقول ابن عباس رضى الله عنهما - فيما أخرجه إسحاق بن بشر وابن عساكر عنه : أصحاب غيضة بين ساحل البحر إلى مدين .. وهذا يفيد أن «شعيبًا» أرسل إلى هذه المنطقة التي يقيمُ فيها هؤلاء جميعًا . وكانت حال أهل مدين وأصحاب الأيكة في الكفر والفساد واحدة . وكان يتنقل بينهم منذرًا ومصلحًا .

رسالة شعيب :

وتتضمن رسالة شعيب - عليه السلام - ما تضمنته رسالة الأنبياء السابقين وهي :

الدعوة إلى عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله ، والإيمان باليوم الآخر ، وهذا ما دعا إليه شعيب قومه فيما

---

(٧) الآيات ١٧٦ : ١٩١ من سورة الشعراء .

أخبر عنه الله – تعالى – بقوله : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[8] .

الحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات التى بها قوام سلامة المجتمع وتماسكه ونهضته وتقدمه . وقد تختلف العادات المرذولة المنهى عنها من قوم إلى قوم ومن جيل إلى جيل ولكنها كلها في السوء سواء .

وقد كان قوم شعيب أصحاب أوثان يعبدونها ، مع ما أفاء الله عليهم من نعمة ، فهم يقيمون في واد خصيب مثمر ، يدعوهم إلى التأمل والتدبر والاهتداء إلى الله المنعم ، الذى أفاء عليهم هذه النعم الوفيرة والخيرات الكثيرة ، ولكنهم تركوا ذلك واتجهوا إلى أصنام لا تنفع ولا تضر .

واختار أصحاب الأيكة من بين أيكهم واحدة جعلوها إلهًا[9] .

لقد ابتعدوا عن الطريق المستقيم ، وأخطأوا الفطرة السوية ، وألغوا عقولهم ، وأقبلوا على مخلوقات من خلق الله يشركونها مع الله – جلت قدرته – في العبادة . فأرسل الله إليهم « شعيبًا » – عليه السلام – يردهم إلى الطريق المستقيم ، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده قائلاً لهم : ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِن رَّبِّكُمْ﴾[10] .

وكأن شعيبًا بذلك قد أشار إلى معجزة أيده الله بها ، ولكل نبى معجزة تثبت رسالته ، وتصدق دعوته . ولم يأت في القرآن الكريم ما يوضح بينة شعيب . ولكن العلماء أشاروا إلى ذلك .

فمنهم من قال : إن بينة شعيب هى ما لفت به أنظار قومه إلى مصائر الأمم السابقة الذين كذبوا أنبياءهم ، وهى الحجة القاطعة التى كان يدلى بها أمام قومه ليبين لهم الرشد من الغى ، وقد أتاه الله فصاحة وبلاغة ومنطقًا قويًا وبرهانًا ساطعًا ..

---

(٨) الآية ٨٥ من سورة الأعراف .

(٩) فى رحاب الأنبياء ص ١١٥ .

(١٠) الآية ٨٥ من سورة الأعراف .

وهل هناك أقوى من الحجة الصادقة يفصح بها الرجل أمام خصمه فيفحمه بها ، والحق سلطان أبلج وقوة قاهرة ؟

ولكن جرت عادة الأمم أنهم لا يؤمنون إلا إذا قرعتهم الحجة الحسية والمعجزة المادية التي لا تترك مجالاً لقائل أو شبهة لحائر . ولذلك ألمح بعض الرواة إلى أن هناك معجزة مادية صاحبت شعيبًا – عليه السلام – وهي البينة التي أشار إليها في قوله .

قال هؤلاء الرواة : حين دعا شعيب – عليه السلام – قومه إلى الله قالوا له :

إن نطقت الأصنام بصدق ما تقول صدقناك . لا نقبل لك حجة غير ذلك .

لقد قالوا له ذلك على سبيل التحدي والتعجيز ، فهم يعلمون أن الأصنام لا تنطق . ولئن نطقت فلن تنطق مصدقة لشعيب .

ولكن شعيبًا – عليه السلام – قبل التحدي . وتقدم إلى الأصنام ، وقال لها : من ربكم ؟ ومن أنا ؟

فأنطق الله الأصنام بقدرته فقالت : ربنا الله ورب كل شيء وخالق كل شيء . وأنت شعيب نبي الله . ثم نكست الأصنام على رءوسها عن أسرتها[١١].

ولكنهم مع ذلك لم يصدقوه . وهم في ذلك ليسوا بدعًا بين أقوام الرسل . فكثير من هؤلاء الأقوام كذبوا فحقت كلمة العذاب علي الكاذبين .

دعوته الإصلاحية :

وقد ضمن شعيب – عليه السلام – دعوته إلى إفراد الله – تعالى – بالألوهية والعبادة دعوة أخرى إلى مكارم الأخلاق والبعد عن الرذائل التي يرتكبها هؤلاء القوم . وكانت هذه الرذائل تتمثل في مظاهر عدة .. منها ..

تطفيف الكيل والميزان :

كان هؤلاء القوم إذا اشتروا يستوفون ، وإذا باعوا يخسرون ..

---

(١١) بدائع الزهور في بدائع الدهور ص ١١٥ .

وقد توعد الله أمثال هؤلاء بقوله تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥ ﴾(١٢)

وكان قوم شعيب كذلك .

كان لهم مكيالان وميزانان . أحدهما واف يشترون به ، والآخر ناقص يبيعون به .

حذرهم شعيب قائلاً لهم : ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾(١٣) .

لقد ذكرهم نعمة الله عليهم ، وأن ما هم فيه من الغنى والخير إنما هو فيض من رزق الله لهم ، فقد هيأ لهم سبل العمل ويسر لهم طرق الرزق ، وأصلح لهم الأرض فساروا فيها وانتفعوا بخيراتها ، فإذا جحدوا النعمة غضب الله عليهم ، والويل كل الويل لمن غضب الله عليه ..

وبخس الحقوق :

وحذرهم شعيب – عليه السلام – من بخس الناس حقوقهم .. وهو تحذير مترتب على ما سبق . قال لهم «ولا تبخسوا الناس أشياءهم» ..

لقد حذرهم من إخسار الميزان لما يترتب على ذلك من مخاطر كثيرة ، ولأن الميزان أساس التعامل بين الناس ، والوفاء به من آيات الصدق والمروءة .

---

(١٢) الآيات ١ : ٦ من سورة المطففين .

(١٣) الآية ٨٤ من سورة هود .

ولذلك قال –تعالى– مخاطبًا الناس في معرض المنة عليهم فى سورة الرحمن التى استقصت كل أنواع النعمة التى أنعم بها على الثقلين ﴿وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ﴾(١٤).

يشير بذلك إلى وجوب العدل، والعدل أساس الملك، وفى الوصاة بإيفاء الميزان وصاة بإيفاء المكيال ضمنًا. وكان ابن عباس –رضى الله عنه– يقول: يا معشر الموالى، وَلِّيتم أمرين بهما هلك الناس: المكيال والميزان. وقال قتادة: فى هذه الآية أعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل لك، وأوف كما تحب أن يوف لك فإن العدل صلاح الناس(١٥).

وإذا بخس الناس الحقوق أشاعوا الفوضى والاضطراب، ونشروا الظلم والفساد، وأصبح المجتمع كله لا أمان فيه..

لقد دلت عبارة «ولا تبخسوا الناس أشياءهم» على أنهم كانوا يتواصون على هضم الغريب وبخسه، وإن كانت تشمل بخس أنفسهم كذلك. فقد روى أنهم كانوا إذا دخل الغريب يأخذون دراهمه، ويقولون: هذه دراهم زائفة، فيقطعونها ثم يشترونها منه بالبخس والنقصان.

وربما فشا ذلك إلى غيره من المعانى كهضم الناس حقوقهم وعدم الاعتراف بأقدارهم وأفضالهم، واغتيال حقوقهم المشروعة، وتفضيل غيرهم ممن هم دونهم عليهم، وتخطيهم فى المناصب، وغض النظر عن مزاياهم.

لقد حاول شعيب –عليه السلام– أن يفتح عيونهم على الحق ويبصرهم بأن ما يفعلونه من الأمور الخطيرة التى تقضى على الأمم وتقوض بنيان الشعوب..

---

(١٤) الآيات ٧ : ٩ من سورة الرحمن.

(١٥) تفسير القرطبى جـ ٢٧ ص ٦٣٢٥ ط دار الشعب.

إفسادهم في الأرض :

لقد كانت هناك رذائل أخرى فى هؤلاء القوم ، فهم لم يكتفوا بالشرك واغتيال الحقوق ، ولكنهم أضافوا إلى ذلك الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها .

والشرك إفساد فى حد ذاته لأنه أقصى أنواع الظلم . والظلم مؤذن بخراب العمران - كما يقول ابن خلدون - وقد حذر لقمان ابنه منه فى قوله ﴿وإذ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[16].

وكان الشرك ظلمًا لأنه أعطى حق الخالق للمخلوق ، وجحد صفات الخالق العظيم وخلعها على غيره .

إلا أنه كانت لقوم شعيب وسائل أخرى فى الإفساد . تشمل إفساد النظام فى المجتمع البشرى بذلك الظلم الذى أشاعوه ، من أكل أموال الناس بالباطل ، وبالبغى والعدوان على الأنفس والأعراض ، وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة ، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام .

كل هذه ألوان من الفساد أشاعوها فى الأرض بعد أن أنشأها الله على نظام صالح وأساس سليم .

يضاف إلى ذلك إفسادهم العقل الذى جعله الله للإنسان وسيلة هداية وطريق إصلاح لنفسه ومجتمعه ، فإذا بهم يغفلونه ويلغونه ويتبعون وساوس الشيطان التى تضلهم وترديهم ، فيمارسون من الأفعال ما يحط من شأنهم ويشقيهم .

---

(١٦) الآية ١٣ من سورة لقمان .

قطع الطريق :

ومن إفسادهم ما كانوا يقومون به من إشاعة الفوضى وقطع الطريق على المارة ونهبهم وأخذ أموالهم . ويفهم ذلك من قوله لهم : «ولا تقعدوا بكل صراط توعدون» ..

وقد أشار إلى هذا المعنى القرطبي في تفسيره ، وروى في ذلك قول النبي - ﷺ - : رأيت ليلة أسرى بي خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا مثل لقوم من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾(١٧) .

وقد يكون المقصود بذلك ما كانوا يقومون به - وهو من لوازم حرفتهم في التطفيف - من تعشير للتجار ، فقد كانوا عشارين مكّاسين ، يأخذون من الناس ما لا يلزمهم شرعًا عن طريق القهر والجبر . وهذا ظلم وعسف تأباه الأديان وينفر منه الذوق السليم ، ويتعارض مع دواعي الأمن العام في المجتمع .

صدهم عن سبيل الله :

ولم يكتف قوم شعيب بالإفساد بعد الإصلاح ، ولكنهم كانوا يترصدون الطريق أمام الناس الذين يريدون الهداية ، فيصدونهم عن سبيل الله ، ويزينون لهم طرق الشر والإغواء ، ويمنعون الناس من التوجه إلى بيت شعيب حتى لا يتأثروا بدعوته .

لقد كان قوم شعيب - عليه السلام - يفعلون الفعل الذي قلدهم فيه بعدهم كفار قريش في عهد النبي - ﷺ - حين كانوا ينتظرون المواسم فيقولون للقبائل الوافدة إلى مكة : إياكم أن تسمعوا لمحمد أو تستجيبوا لدعوته ، يحذرونهم منه .

---

(١٧) تفسير القرطبي - سورة الأعراف - الآية ٨٦ .

وفيما يرويه ابن هشام في ذلك قوله : وجعلت قريش حين منعه الله منهم يحذرون الناس ومن قدم عليهم من العرب ، وكان الطفيل بن عمرو الدوسى قدم مكة ، فمشى إليه رجال من قريش ، وكان الطفيل رجلاً شريفًا شاعرًا لبيبًا ، فقالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين اظهرنا - يقصدون محمدًا - قد أعضل بنا وفرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنا نخشى عليك فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئًا .. قال الطفيل : فما زالوا بى حتى أجمعت أمرى على اني لا اسمع منه شيئًا ولا اكلمه ، حتى حشوت أذنى كرسفا - قطنًا - خوفًا من أن يبلغنى شيء من قوله ، وانا لا أريد أن اسمعه[١٨].

ولكن الله أراد بالطفيل خيرًا ، فسمع فأسلم وحسن إسلامه .

وجاء الأعشى الشاعر يقصد النبى - ﷺ - بالمدينة ، واعد قصيدة يمدحه فيها . ومنها :

فآليت لا أرثى لها من كَلالَةٍ ... ولا من حَفىً حتى تلاقى محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم ... تراحي وتَلْقَىْ من فواضله ندى
نبى يرى ما لا ترون وذكره ... أغار -لعمرى- فى البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ونائل ... وليس عطاء اليوم يمنعه غدا[١٩]

ولكن قريشًا أحست به فاعترضت طريقه وأغرته بالمال ، وطلبت منه أن يؤجل لقاءه بمحمد عامه هذا ، فإن كان العام القادم أقبل عليه ، ولكن شقاءه حاق به فعاد ، ومات فى عامه هذا وخسر نفسه .

هذا الذى كان يفعله القرشيون مع النبى - ﷺ - صورة لما كان يفعله قوم شعيب معه .

---

(١٨) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤٠٧ .
(١٩) المرجع السابق ص ٤١٢ .

روى ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : كانوا يجلسون فى الطريق فيقولون لمن أتى عليهم : إن شعيبًا كذاب فلا يفتننكم عن دينكم .

وكانوا يتوعدون الناس ويخوفونهم أن يأتوا شعيبًا ، ويهددونهم بالقتل إن آمنوا به[٢٠].

فنهاهم شعيب – عليه السلام – عن القعود على الطرقات التي توصل إليه ، وعن الصد عن سبيل الله ، وعن جعل طريق الله المستقيمة ذات عوج بما يلقونه من شبهات كاذبة حولها ، وما يزيفونه من أضاليل وشكوك كقولهم مثلاً : ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَايَعْبُدُ آبَاؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾[٢١] .

موقف قومه منه :

لقد لقى شعيب – عليه السلام – من قومه عنتًا شديدًا ، فقد حاربوه بوسائل متعددة ، ووقفوا فى طريق دعوته بالمرصاد .

لم يغفلوا الحرب النفسية التى يبثها العدو فى نفوس الناس ، وإثارة الشكوك والوساوس ، حتى لا يكون لكلامه تأثير فيهم . وهذا سلاح من أخطر الأسلحة . تعد الحكومات الحديثة له أجهزة إعلامية متطورة ، وترصد لها من الآلات والدعاة وذوى الخبرة ما يقلب الباطل حقًا والحق باطلاً .

ولم يتوان شعيب فى دعوته إلى الله ، ولم يتأثر بأساليبهم المختلفة ، ولكنه اقبل عليهم إقبال الناصح المرشد ، وظل يذكرهم بنعمة الله عليهم قائلاً لهم :

اتنسون أنكم كنتم عددًا قليلاً فأكثر الله نسلكم حتى أصبحتم عددًا كبيرًا ؟

أتنسون أنكم كنتم فقراء فأغناكم الله ؟

---

(٢٠) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٧٧ .

(٢١) الآية ٨٧ من سورة هود .

فهذه نعم ينبغى عليكم أن تشكروها ولا تجحدوها ، ومقتضى شكر النعمة إفراد المنعم بالعبادة وعدم الإشراك به .

ثم وجه أنظارهم إلى مصائر الأمم التى كذبت برسلها ، وهى أمم بعضها بعيد عنهم فى الزمن ولكن ما زال ذكرها باقيًا فى الأذهان ، وبعضها قريب منهم ترى آثار النقمة عليه بالمشاهدة والعيان .

ذكرهم بمصير قوم نوح وصالح وهود وقوم لوط . قال لهم : ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[٢٢] .

لقد أشار بعبارته الأخيرة إلى آثار لوط الباقية وهى قريبة منهم ، وما تزال آثار التخريب بادية لمن يشاهدها منهم مصداقًا لقوله تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[٢٣] ولقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٤] .

وكان شعيب – عليه السلام – يلوح بالتهديد ، ولكنه فى الوقت نفسه يحاول إغراءهم واستمالتهم ، ويغريهم برحمة الله ومغفرته إن هم تابوا وأنابوا .

كان يقول لهم : ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[٢٥] .. ولكنهم كانوا يردودون عليه فى عجرفة واستكبار : «مَا نَفْقَهُ كثيرًا مما تقول» ..

إنه التغابى الذى يتصنعه المستكبرون عن دعوة الحق .. وإلا فإن كلامه فى منتهى الوضوح والصدق . وهل هناك التواء فى منطقه أو تعقيد فى دعوته ؟

وأغلظوا القول وتوعدوه ، وهددوه بالرجم تارة والنفى مع من آمن معه تارة أخرى .

---

(٢٢) الآية ٨٩ من سورة هود . (٢٣) الآية ٣٧ من سورة الذاريات .
(٢٤) الآيتان ٧٦ ، ٧٧ من سورة الحجر . (٢٥) الآية ٩٠ من سورة هود .

فقد قالوا له : «وإنا لنراك فينا ضعيفًا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز» وهو منطق منقوض من تلقاء نفسه .. فقد وصفوه بالضعف ونفوا عنه العزة، التى أثبتوها لرهطه. والإنسان عزيز - عادة - بقومه، قوى برهطه.

ولكن شعيبًا - عليه السلام - كان يرد عليهم قولهم فى ثقة وإيمان: أرهطى أعز عليكم من الله؟ إن كنتم تخافون بَشَرًا قوتهم مستمدة من غيرهم فلم لا تخافون مَنْ قوته من ذاته وهو الله الذى لا حول ولا قوة لأحد إلا به؟ إن تهديدكم لا يهمنى فإن الذى يكلؤنى هو رب البشر الذى جعلتموه وراءكم ظهريًا، ونبذتم دعوته وأعرضتم عن عبادته.

كان يخاطبهم بالمنطق، وماذا يفعل المنطق مع من أغواه الشيطان وركب عقله؟

إن أعظم فتنة فتن بها الناس هى المال، وشعيب فى نظر هؤلاء القوم يقف فى طريق تثمير المال وتكثيره فى أيديهم.

وإنصافًا لشعيب - عليه السلام - فإنه لم يفعل ذلك، ولكنه وقف فى طريق الاستغلال السيىء، واكتساب المال من طريق حرام. منعهم من تثمير أموالهم عن طريق الغش والتضليل، ودعاهم إلى سلوك الطريق الشريف فى اكتسابه. حذرهم من الغش التجارى والتطفيف فى الكيل والميزان. وهذا لا يعنى محاربتهم فى أرزاقهم..

لقد فهموه خطأ حتى قال: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾(٢٦).

وهذا هو المنطق المنكوس والفهم الضال..

---

(٢٦) الآية ٨٧ من سورة هود.

ولما لم يجد شعيب جدوى في وصولهم للحق قال لهم : نحن نحتكم إلى الله فى هذه القضية ، قضية الإيمان والكفر ، قضية الصلاح والفساد .. فالله جلت حكمته هو الذى يحكم بيننا بعدله .. فكفوا عن إيذاء من آمن بى وانتظروا حتى يحكم الله والله لا معقب لحكمه ..

كان شعيب – عليه السلام – لطيفًا فى مخاطبتهم ، لم يغلظ لهم القول ، وكان يرجو أن يبلغ منهم بفصاحته وحسن تأنيه معهم إلى ما يريد . ولذلك قال لهم : ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِنكُم آمَنُواْ بِالَّذِى أُرسِلتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَم يُؤمِنُواْ فَاْصبِرواْ حَتَّى يَحْكُمَ الله بَيْنَنا وَهُوَ خيرُ الحَاكِمِينَ﴾(٢٧) .

ولجأ إلى الله قائلاً : ﴿ على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾(٢٨) .

حوار بين المؤمنين والكافرين :

وكان فى قوم شعيب رؤساء يلجأ الناس إليهم ، ويولونهم أمرهم ، وكان هؤلاء الكبراء هم الذين يتولون جدال شعيب ومن آمن معه .

قال هؤلاء الكبراء للمؤمنين : لنخرجنكم من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا .

إن القرية لا تحتمل دينين ، فإما أنتم وإما نحن .. وما دمنا نحن الأقوياء فلتخرجوا أنتم أيها الضعفاء .. هذا هو مفهوم كلامهم ..

وكان ذلك جوابًا لقول شعيب لهم : فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ..

إنهم لا يؤمنون بما يقول ، وهم لا يعرفون إلا ما يقع تحت دائرة الحس ، أما المعانى والمعقولات فلا شأن لهم بها ولا يؤمنون بها .

وكانت إجابة شعيب على هذا التهديد الصريح منهم إجابة تحمل معنى التعجب من منطقهم والإنكار لقولهم . قال لهم : أو لو كنا كارهين ؟

---

(٢٧) الآية ٨٧ من سورة الأعراف

(٢٨) الآية ٨٩ من سورة الأعراف

ومؤدى ذلك : عجبًا لكم ، أتطلبون منا أن نعود إلى ملتكم مع كراهتنا لها ؟

وإذا كان فى الإمكان العودة إليها فعلام تركناها إذن ؟

هل تظنون أننا نتاجر بالأديان فنقبل على ما نريد حين نريد ونعرض عنه حين نريد ؟

كلا ، إن الدين شرف ، وهو روح يتغلغل فى الأعماق فإذا بالنفوس تحيا به ولا تحيا بدونه ، وإنه ليهون مع العقيدة كل شيء ، يهون المال والأهل والولد والنفس والوطن .

وإن المؤمن ليضحي بكل مرتخص وغال ، بل ويحارب في سبيل عقيدته أعتى الجبارين وأقوى الأقوياء .

ولقد شرع الله الهجرة للمؤمن حين يجد الطريق غير مأمون على عقيدته ، وتوعد المستجيب للفتنة بأشد العقاب ، وقال فى ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾(٢٩)

كما وعد المهاجر بالأجر الجزيل وتكفل بحسن مصيره إن أصابه مكروه فى هجرته فقال :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾(٣٠)

---

(٢٩) الآيات ٩٧ : ٩٩ من سورة النساء .

(٣٠) الآية ١٠٠ من سورة النساء .

فكيف يقبل شعيب ومن آمن معه دعوة قومه إلى الارتداد ؟

وذلك كان رده عليهم عليهم صريحًا قاطعًا : ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا﴾[٣١] .

هل يرغب الحر فى الارتداد إلى الذل بعد أن تخلص منه ؟ وهؤلاء قد تخلصوا من سجن الكفر إلى فضاء الإيمان .

وهل يقبل العاقل أن يخرج من الجنة بعد أن دخلها ؟ وهؤلاء قد تخلصوا من شقاء المادة ونعموا بجنة الأنس بالله والإقبال عليه ، وشعروا بلذة الطاعة وحلاوة الإيمان .

إنه أعظم افتراء على الله ونعمته ، وكفر به وبمنته إن استجبنا لما تقولون . وأصخنا لما به تنادون ..

لقد نجونا فما بالنا نعود إلى ذل الأسر ؟ وقد ظفرنا فما بالنا نرتد إلى الهزيمة ؟ ما أعجب منطقكم أيها القوم ، وما أكثر ضلالكم وأسفه آراءكم !

لقد بذل شعيب مع قومه قصارى جهده ، واستخدم أقصى ما يمكنه استخدامه من منطق قوى وفصاحة وقوة حجة فى إقناعهم . ولم يفقد أعصابه فى مواجهتهم وهم يتحدونه ويسخرون منه .

ولقد كان قولهم له : « إنك لأنت الحليم الرشيد » تهكمًا به وسخرية منه ، فهم لا يقصدون امتداحه بذلك بل هو من قبيل التعريض به كأنه فقد الحلم والرشد . والعرب يستعملون هذا الأسلوب ، يأتون بالذم فى صورة المدح ومن أمثلته فى القرآن الكريم ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾[٣٢] . ومن أمثلته فى أشعار العرب قول الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فشعيب فى نظرهم لو كان حليمًا رشيدًا ما دعاهم إلى ما دعاهم إليه .

---

(٣١) الآية ٨٩ من سورة الأعراف .

(٣٢) الآية ٤٩ من سورة الدخان .

كان يريد منهم أن يقنعوا بما رزقهم الله من حلال ولا يلجأوا إلى الحرام، وكان يتمنى لو أنهم أصاخوا السمع له وقبلوا نصحه وإرشاده واستجابوا إلى مافيه صلاحهم ونجاحهم. ولكنهم ضربوا بقوله عرض الحائط، وأصموا آذانهم واستكبروا استكبارًا.

ومع ذلك فقد بين لهم أنهم مهما بلغوا من قوة فهم ضعفاء، ومهما زعموا من عزة فهم أذلاء.. ولذلك قال لهم مهددًا لعلهم يثوبون إلى رشدهم:

﴿وَيَاقَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[٣٣].

وحين ذلك لجأ إلى الله يائسًا منهم تاركهم ومصيرهم بعد أن ألزمهم الحجة. قائلاً لهم: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٣٤].

إنه موفَّق، أما هم فقد جانبهم التوفيق، ولو حالفهم لآمنوا مع من آمن. وأهل الذوق يقولون: التوفيق نادر ولندرته لم يذكر فى القرآن الكريم بهذا المعنى –وهو الرشد وتيسير الأمور وإصابة وجه الحق– إلا فى هذا الموضع.

اختلاف المقاييس:

وأقبل هؤلاء الذين استكبروا من قوم شعيب على من آمن بشعيب يهددونهم ويتوعدونهم قائلين لهم: لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون.

وما الخسران فى نظرهم؟

إنه الخسران المادى الذى يرتفع عندهم فوق كل قيمة ويزيد على كل شرف.

---

(٣٣) الآية ٩٣ من سورة هود.

(٣٤) الآية ٨٨ من سورة هود.

إن النفع عندهم مقياسه ما يضاف إلى الرصيد الحسابى من ثروة ومال وجاه ومنصب وسلطان . وما يصب في الخزائن آخر كل صفقة من ربح ..

أما القيم الرفيعة من شرف وطهر وعفاف ومروءة وصدق وأمانة ووفاء وغيرها فلا قيمة لها فى نظرهم ..

ولذلك حاول شعيب - عليه السلام - لفت نظرهم إلى هذه القيم الروحية فقال لهم : «بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين» ..

ولكنهم كانوا في شغل عن هذه المعاني الرفيعة .. وكان المؤمنون بشعيب فى نظرهم خاسرين ..

خسروا صفقات تجاراتهم ، وخسروا ما كانوا يجنونه من تطفيف الكيل والميزان من أرباح ، وخسروا ما كانوا يكتسبونه من وراء الوساطة والسمسرة والتعشير والتمكيس وغير ذلك من وسائل تعرفها الأسواق التجارية جيدًا .. والتجارة لا قلب لها أبدًا ، هى لا تعرف العواطف ، ولا شأن لها بالمعانى الروحية والعلاقة الإنسانية أبدًا فى منطق هؤلاء القوم .

ولعل هذا ما كان يقصده شعيب بقوله «بقية الله خير لكم» كأنه أراد أن يقول لهم : راعوا جانب الله . لا تنسوه فى بيعكم وشرائكم ، استحضروا هيبته ومحاسبته لكم عند عقد صفقاتكم وجنى أرباحكم ..

ولكنهم لم يفهموا ذلك .. فهموا الخسارة بمعيارهم هم ..

ولذلك كان أتباع شعيب خاسرين بهذا المقياس . وخسروا إلى جانب ذلك عطف كبرائهم عليهم ، وخسروا مبادئهم الزائفة التى كانوا يستظلون بظلها بتركهم لها إلى مبادىء أخرى ، غريبة عنهم وافدة عليهم ، جاء بها شعيب لهم .

هذا هو الحساب فى نظرهم . وما عرفوا أن الخسار الحق هو ترك ما دعا إليه شعيب - عليه السلام - .

فالغنم المادى مهما كثر لا يعد شيئًا بجانب الغنم الروحى والكسب المعنوى .

وماذا يفيد الإنسان لو كسب العالم كله وخسر نفسه ؟؟

وخسر قوم شعيب أنفسهم بعد أن خسروا أيضًا كل ما جمعوه من حطام الدنيا.

إن الدنيا متاعها زائل وحطامها حائل ، إن أقبلت بلت ، وإن أدبرت برت ، وإن اركبت كبت ، وإن أضعفت عفت -كما يقول الحكماء- .

نهاية الطغاة :

وهكذا كان فى إقبالها على أهل مدين بلاء وكان فى إدبارها عنهم شقاء .

فقد أهلكهم الله بالرجفة . وهى الصيحة الشديدة . التى خلعت قلوبهم وأزهقت أرواحهم . ولم تغن عنهم أموالهم التى جمعوها شيئًا ، ولم تدفع عنهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله العذاب .

وقيل : إن الله أهلكهم بعذاب شديد ، أرسل عليهم لفحًا من نار جهنم حوَّل الأرض حولهم إلى سعير ، أخذ بأنفاسهم ، فدخلوا -كما يقول ابن عباس رضى الله عنهما- فى أجواف البيوت فلم ينفعهم ذلك ، فأنضجهم الحر ، فخرجوا هربًا إلى البرية ، فبعث الله سحابة حسبوا أن تحتها بردًا ، فأسرعوا يستظلون بها ، وحين توافدوا إليها واجتمعوا كلهم تحتها ، ألهبها الله عليهم نارًا ، ثم رجفت الأرض بهم فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المقلى ، فصاروا رمادًا ، وذلك قوله -تعالى- : ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾[٣٥].

أهل مدين وأصحاب الأيكة :

يرى بعض المفسرين أن شعيبًا كان رسولاً لأهل مدين ، ولأصحاب الأيكة ، وأصحاب الأيكة -كما سبقت الاشارة- أصحاب غيضة بين

---

(٣٥) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٦٨ .

ساحل البحر إلى مدين وكان شعيب يتردد بين الفريقين ، وقد كذب به كل من هؤلاء وهؤلاء ، أو أنه بعد أن فرغ من أهل مدين أرسل إلى أصحاب الأيكة .

وقد أخذ الله الفريقين أهل مدين بالرجفة وأصحاب الأيكة بالظلة ..

وقال أصحاب هذا الرأى : إنه ما بعث الله نبيًا مرتين إلا شعيبًا - عليه السلام - بعثه مرة إلى أهل مدين فأخذتهم الرجفة ، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم عذاب يوم الظلة .. ونقلوا ذلك عن عكرمة والسدى .

وقد انتقد ابن كثير هذا الرأى ورده ، وهو محق فى رده . لأنه لا يمنع أن يكون أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة ، ونسبوا إلى مدين نسب مكان أو قبيلة ، ونسبوا إلى الأيكة نسب عبادة ، لأن الأيكة كانت من معبوداتهم .

وذكر ابن إياس فى كتابه تعليلاً طريفًا قال - فيما نسبه إلى كعب الأحبار - : إن مدين بن إبراهيم - عليه السلام - عاش عمرًا طويلاً ، وكان له امرأة من العمالقة ، ولدت له أربعة بنين تزوجوا وتوالدوا .

فجمع مدين كبراء نسله وقال لهم : الرأى عندى أن تبنوا لكم مدينة كبيرة حصينة تمنعكم من العمالقة . فبنوا مدينة وسموها باسمه ، ونزلوا بالأيكة وهى قرية قريبة منها .

وكان أهل مدين يعبدون الله ، وأهل الأيكة يعبدون الأصنام ، ولا يغير بعضهم على بعض .

حتى جاء والد شعيب ، وزوجته من العمالقة ، فولدت له ولدًا سماه « يثرون » وكان يدعو له أبوه قائلاً : اللهم بارك فى شعيبى أى - ولدى بلغته - فغلب عليه اسم شعيب .

وتوفى والد شعيب ، ونشأ شعيب على ما كان عليه أبوه من زهد وعبادة .

وكان أهل مدين أصحاب تجارات، وكانوا يحتكرون، وكان لهم مكيالان وميزانان، يشترون بالوافي منهما ويبيعون بالناقص.

وكان شعيب لا يعاشرهم ولا يداخلهم حتى أقبل عليه غريب ذات يوم، فقال له: يا شعيب، أنت رجل صالح وإنى اشتريت من رجل منهم مائة كيل من الطعام بمائة دينار، فأخذتها واكتلتها فنقصت عشرين كيلاً. والتمس الرجل من شعيب أن يساعده في استرداد حقه.

فمضى معه شعيب إلى القوم وسألهم عن قضية المشترى. فقالوا له: ألم تعلم يا شعيب أن هذه سنتنا، نأخذ بالوافر ونعطى بالناقص.

فقال شعيب: ليس هذا من سنة الله فاتقوا الله وأعطوا الرجل حقه، فأبوا..

وكان هذا سبب مبعث رسالته في أهل مدين وأصحاب الأيكة[٣٦].

وقد تقدمت الآيات التي تحدثت عن أصحاب الأيكة، وإليك الآيات التي تتحدث عن أهل مدين:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾

---

(٣٦) بدائع الزهور في وقائع الدهور ص ١١٣.

قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[٣٧]

وانطوت صفحة قوم كفروا بالله وكذبوا رسله، وتركوا من بعدهم قصة يعتبر بها من رزقه الله ووفقه للاعتبار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٣٨].

وبقي شعيب فترة يعيش في مدين وعاش معه من آمن به، لقد نجاهم الله من العذاب الذى أصاب قومه. كما نجى نوحًا وهودًا وصالحًا ولوطًا.. وغيرهم من الأنبياء الذين هلكت أممهم بعذاب الله.

وجاء موسى إليه فزوجه من إحدى بناته..

وكان شعيب حين جاءه موسى شيخًا كبيرًا وهنت قواه وضعف بصره روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثورى انهم قالوا: كان شعيب ضرير البصر.

وروى فى حديث مرفوع أنه بكي من حبه لله حتى عمي، فرد الله عليه بصره وقال: يا شعيب.. اتبكى خوفًا من النار؟ أو من شوقك إلى الجنة؟

فقال: بل من محبتك، فإذا نظرت إليك فلا أبالى ماذا يصنع بى.

---

(٣٧) الآيات ٨٥ : ٩٣ من سورة الأعراف.

(٣٨) الآية ٣٧ من سورة ق.

فأوحى الله إليه : ﴿هنيئًا لك يا شعيب لقائي فلذلك أخذ منك موسى بن عمران كليمي[٣٩].

وذكر ابن عساكر في تاريخه أن شعيبًا - عليه السلام - مات بمكة ومن معه من المؤمنين ، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم[٤٠].

ولا يمنع ذلك عقلاً .. فقد يكون شعيب في آخر حياته انتقل بمن رآه صالحًا من قومه إلى مكة حاجًا وهناك مات ..

وقد ذكرت التوراة أن «يثرون» حما موسى صحب زوجة موسى وولديه منها إليه بعد اجتيازه البحر ببني إسرائيل.. فماذا يمنع أن يكون بعد أن تخفف من هذه الأمانة وردها إلى صاحبها قد انتقل إلى مكة ؟



(٣٩) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢١٢ قالوا : رواه الواحدي عن أبي الفتح محمد ابن علي الكوفي في سند متصل بشداد بن أوس عن النبي - ﷺ - قالوا : وضعفه الخطيب البغدادي .

(٤٠) المرجع السابق ص ٢١٨ .

قصة أيوب

عليه السلام

- نسب أيوب .
- أقوال في سبب ابتلائه .
- إبليس يتربص بأيوب .
- ابتلاء أيوب .
- أيوب مثل أعلى في الصبر .
- زوجته مثل أعلى في الوفاء .
- نجاح أيوب في امتحانه .
- ماذا نتعلم من أيوب ؟

قصة أيـوب

مقدمــة :

أورد كتاب العهد القديم قصة أيوب كاملة فى سفر خاص باسمه ، يحتوى على اثنين وأربعين إصحاحًا ، وكانت هذه القصة بالصورة التى عرضت فى هذا الكتاب مادة سخية للقصاصين ورواة الأخبار والأساطير ونسَّاج الخيال .

ويتفق العهد القديم مع القرآن الكريم فى وصف أيوب بأنه كان عبدًا للرب وكان من الصالحين .

وقد ذكر القرآن الكريم اسم « أيوب » أربع مرات ، وأشار إلى قصته فى موضعين : فى سورة الأنبياء حيث يقول الله - تبارك وتعالى - :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[1]

وحيث يقول فى سورة ص :

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى

---

(١) الآيتان ٨٣ ، ٨٤ من سورة الأنبياء .

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[2]

وكان صبر ايوب - عليه السلام - على المحن الشداد التى ابتلِىَ بها مثلاً اعلى، كما أصبح مادة أسطورية دخلها كثيرٌ من الإغراق فى الخيال.

نسبه :

هو أيوبُ بن أُموص بن تارخ بن روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم - عليه السلام -[3].

وأمه من ولد لوط - عليه السلام -[4].

وذكر فى الرواة أن زوجته هى رحمة بنت إفرايم بن يوسف الصديق . وهو المشهور ، وقد ذكر البيضاوى - رحمه الله - فى تفسيره أن زوجته هى ليًا بنت يعقوب . وربما كان هذا غريبًا . فإن بين أيوب ويعقوب ثلاثة آباء . ولكن بينه وبين إفرايم أب واحد .. فكون رحمة وهى زوجته أقرب إلى الصواب ..

وقد وهب الله أيوب - عليه السلام - جمالاً ومالاً وهيئة ، وأولادًا نجباء وصلاحًا وتقوى ، فقد جمع بذلك بين سائر النعم الحسية والمعنوية ، وبلغ من الكمال الدينى والدنيوى مبلغًا عظيمًا ..

والرواة يصفونه بأنه كان رجلاً طويلاً عظيم الرأس ، جعد الشعر ، حسن العينين والوجه ، قصير العنق ، غليظ الساقين والساعدين[5].

---

(٢) الآيات ٤١ : ٤٤ من سورة ص.

(٣) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٥٥ .

(٤) المرجع السابق ودائرة المعارف الإسلامية ٥ / ٤٣٥ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية .

ووهبه الله اثنى عشر ابنًا واثنتى عشرة ابنة ، وكانت له أملاك واسعة وضياع كثيرة وأموال طائلة .

وكان عظيم التقوى رحيمًا بالمساكين عطوفًا عليهم ، يكفل الأرامل والأيتام ويقرى الضيف ، ويعظم الحق .

وأتاه الله إلى جانب ذلك النبوة والرسالة . فأى نعمة أعظم من ذلك ؟

اين كان يقيم ؟

وكانت حوران مهد دعوته ..

وقال الثعلبى : كانت له « البَثَنِيَّة » من أرض الشام كلها سهلها وجبلها وما كان عليها من أصناف المال .

و « بَثَنِيَّة » كورة فى سوريا قصبتها « أذرعات » ، وحدُها من الشرق جبل الدروز ، ومن الشمال سهل اللحاء ، ومن الغرب الجولان ، ومن الجنوب تلال الجمل ، وهى إقليم خصب ، كما يدل اسمها على ذلك فهو مشتق من « بثنة » ومعناها الأرض السهلة التى لا حجر فيها[٦] .

وكان الذين آمنوا بأيوب يلتقون حوله كل مساء فى المسجد ، ويصلون معه .

حسد إبليس لأيوب :

ونظر إبليس اللعين فإذا أيوب فى نعمة سابغة وحياة ناعمة ، وعيش رابع وقلب من هم الدنيا فارغ .

وحدثت نفسه بما حدثته به يوم رأى آدم - عليه السلام - فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، وفى عيشة راضية ، وسعادة غامرة .

---

(٦) دائرة المعارف الإسلامية .. مادة « بثنة » ..

فأكل الحسد قلبه فوسوس له حتى أخرجه من تلك الجنة وهبط به إلى الأرض حيث الكدح والشقاء والشدة والعناء.

وقد نجح إبليس في تجربته الأولى مع آدم، فلماذا لا يمارس هذه التجربة ذاتها مع أيوب حتى يلحقه بأبيه آدم؟ وحتى يخرجه من ذلك النعيم الذى يعيش فيه إلى شقاء لا أول له ولا آخر؟

والأمر سهل أمامه، فإن أيوب فى الأرض وليس فى السماء، فالمهمة إليه ميسورة ووسائل الإفساد ممهدة.

إن أيوب وإن لم يكن فى جنة عالية كتلك التى كان فيها آدم - عليه السلام - إلا أنه فى جنة فى أرضه، عريضة واسعة، فيها ما تشتهيه النفس وتلذ به العين، وله فيها جمال وله عليها سلطان، وهؤلاء الناس من حوله يقبلون عليه ويدينون له بالطاعة، بل هم أطوع له من بنانه.

وقد استطاع أيوب بهذه النعمة الواسعة والجمال الظاهر والسلطان الكبير والمال الوفير أن يؤثر فى نفوس الناس، فالتفوا حوله، فهم وإن لم يقبلوا عليه كنبى له دعوة أقبلوا عليه كغنى له ثروة، وللمال منذ قديم الزمان سحره وسلطانه، وكم استطاع أن يستولى به صاحبه على القلوب، ويهيمن به على النفوس، والناس عبيد الإحسان فى كل زمان ومكان، والشاعر العربى يقول:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

بهذه الأحاسيس حدث إبليس نفسه، وسول له كيده وحقده وحسده لأيوب أن يجعل هذا السامر من حوله ينفض، وهذا الصرح العالى من جاهه ومنصبه ينقض.

وقد زاد من حقد إبليس وحسده ما رآه من ثناء على أيوب، ليس فى الأرض فقط، بل فى السماء، فهاهم الملائكة الأطهار - فيما يبلغه عنهم - يُصلُّون على أيوب، ويستغفرون له ولمن آمن معه، وقد ورد فى

بعض الآثار ما يفيد أن الله – سبحانه وتعالى – إذا أحب عبدًا أثنى عليه، فتثني عليه الملائكة في عليين، وينادى مناد في الأرض: أيها الناس إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل الأرض كما أحبه أهل السماء[٧].

وكل ثناء على أيوب يقابله سخط على إبليس. ويظهر لذلك صدى في نفسه يتفجر منه غيظًا وحقدًا..

وعداوة إبليس للبشر قديمة وهي درجات.

فأشد عداوة منه تكون للأنبياء، ثم لمن يلونهم، وما تزال تتدرج إلى أدنى حتى تصبح عداوة تقليدية لعامة البشر، وقد لا يحركون عنده ساكنًا لأن قيادهم سهل وإغواءهم ميسور، وقد انساق كثير منهم إلى الشر بحكم العادة والتقليد وعدم المبالاة والاستجابة للطبيعة، وهؤلاء قد فرغ إبليس منهم.

ولكنه إذا رأى أحدًا قد سلك الجادّة، وانتهج الصواب، شمر عن ساقه في إغوائه، ونصب حبائله لإضلاله.

ويؤرّق إبليس جدًا من يراه من بني آدم ناعم البال قرير العين في أسرته راضيًا بما قسم الله له غير متكالب على حطام الدنيا.

حدث أحد الأنباء قائلاً:

إن إبليس غاظه أمر رجل قروي يعيش في كوخ صغير سعيدًا مع زوجته وولده، وله بقرة يحلبها ويشرب من لبنها، ويربطها أمام الكوخ.

---

(٧) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق جـ ٤ ص ١١١ ولفظه: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» عن أبي هريرة. وأخرجه مسلم من كتاب البر والصلة جـ ١٠ ص ٦٣.

الأحاديث القدسية جـ ١ ص ٧٨.

وكان هذا القروى لا يكف عن ذكر الله وحمده، ويرى أنه فى كوخه المتواضع مع أسرته الصغيرة ملك فوق عرش، ولديه نعيم الدنيا بأسرها.

غاظه أن يعيش هذا الرجل ناعم البال لا يهمه ما يهم غيره من الناس، من تنافس على متاع الدنيا، وطمع في ثروتها، فعزم على أن ينغص عليه حياته، واستدعى تلاميذه وأغراهم به.

فأقبل هؤلاء التلاميذ على الرجل يزرعون الشكوك في نفسه حول امرأته فلم يفلحوا، فأقبلوا على المرأة يثيرون فى نفسها الغيرة على زوجها فلم يستطيعوا. لقد كان كل منهما يضرب بما يوسوس الشيطان فى نفسه عرض الحائط. وإذا ما عرض فى داخله وهم استعاذ بالله من الشيطان فيولى الشيطان هاربًا، وهذا هو ما يقوله القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[8].

وعاد جنود إبليس إلى أستاذهم الأول بائسين..

فقال لهم: تعالوا معى وانظروا كيدى وسحرى..

وانطلقوا خلفه، ولم يفعل إبليس الكبير شيئًا أكثر من أن حرك الوتد الذى تشد إليه البقرة أمام الباب.

فجذبت البقرة الحبل فانخلع الوتد، وضربت باب الكوخ برأسها، فانفتح الباب بعنف، وخلف الباب موقد فوقه إناء فيه ماء يغلى، فقذف الباب بالإناء فوق الطفل الصغير الذى يرقد فى جانب وراء الباب فى هدوء. فاحترق الطفل، وأقبلت المرأة على صوت صراخه فى الوقت الذى اقتحمت فيه البقرة الباب وداست فى طريقها كل شيء وأشعلت النار فى الكوخ.

وجاء الرجل من الخارج فرأى كل شيء محطمًا أمامه فنسب الإهمال إلى الأم. وألقى عليها يمين الطلاق فى سرعة..

---

(٨) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف.

وتقوض البيت السعيد فى لحظة ..

وقهقه الشيطان وتلاميذه فى سرور ..

لم يبذل إبليس الكبير عناءً كبيرًا فى تقويض هذا البيت . لا شيء إلا أنه حرك الوتد .

ونظر إلى تلاميذه فى صمت يقول لهم : تعلموا ..

هذه قصة رمزية توحى بمعان كثيرة ، وتدل على أن الشيطان للإنسان عدو مبين ، كما يقول لنا القرآن الكريم فى أكثر من موضع .

وهذا فعل إبليس مع رجل من سواد الناس .

فكيف يكون فعله مع نبى من الأنبياء ؟

إبليس يتربص بأيوب :

وقد ذكر العلماء أسبابًا فى البلاء الذى حاق بأيوب ..

ولا سبب فى الواقع أصدق من تطبيق الحديث الشريف : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » ..

ولكن الناس عادة مولعون بالأخبار وتتبعها ومحاولة تلمس الافتراضات لها .

فقال بعضهم : دخل أيوب مع قومه على جبار عظيم فخاطبوه فى أمر ، فجعل أيوب يلين له فى القول من أجل زرع كان له ، فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله وبالضر فى جسمه[9].

وقال بعضهم : إنه استضاف يومًا الناس فمنع فقيرًا من الدخول فابتلى بذلك .

---

(٩) القرطبى جـ ١٧ ص ٤٣٦٣ ط. دار الشعب .

وقيل: استعان به مظلوم فلم ينصره[10].

ولكن مقام النبي يرتفع عن ذلك، فما كان لنبى أن يمالىء سلطانًا أو يخشى جبارًا وهو مع الله – جل جلاله –.

وما كان له أن يبخل أو يحتقر الفقير ويطرد المسكين أو يقعد عن نصرة المظلوم.

لقد شغلت قصة أيوب الأذهان حتى جعلت بعض الرواة يتوهم أن إبليس خاطب ربه قائلاً:

يا إلهى نظرت فى أمر عبدك أيوب فوجدته عبدًا أنعمت عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ثم لم تختبره بشدة ولا ببلاء، وأنا لك زعيم لئن خبرته ببلاء ليكفرن بك ولينسينك.

فقال الله – تعالى – له: انطلق إليه فقد سلطتك عليه..

فأمر الشيطان تلاميذه بإهلاك مال أيوب فأهلكوه، فلم يبال أيوب بما حدث.

ثم قال الشيطان: سلطنى يارب على جسده، فسلطه على جسده. ما عدا قلبه وعقله ولسانه، فأمرضه وحطمه، ولم يتغير أيوب وظل على ذكره لربه.

وفشل إبليس فى مهمته، وباء بالخزى والخذلان أمام هذه التجربة التى خاضها أيوب بكل قوته[11].

وهذه القصة لا تلتقى مع المنطق السليم ولا مع التعاليم الدينية الصحيحة.

---

(١٠) المرجع السابق ص ٥٦٥٣.

(١١) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٥٦ باختصار.

ذلك أن الله – تعالى – قال لإبليس بعد أن ظهرت عداوته لآدم وتوعد ذريته بالإغواء وطلب من ربه أن ينظره إلى يوم الدين، قال له: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[١٢].

وأقر إبليس نفسه بذلك حين قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١٣].

ومن يكون مخلصًا إن لم يكن النبى أيوب مخلصًا؟

إنها قصة ظاهرة الوضع، فما كان لإبليس أن يجرؤ على محاورة الله – تعالى – بهذه الصورة التى جرت طالبًا منه الإذن فى إضلال نبيه – عليه السلام –.

قد يكون إبليس شارك بكل قوته فى إيذاء أيوب – عليه السلام – ولكن بدون ذلك الإذن الذى تزعم هذه الرواية أن إبليس حصل عليه من رب العزة الذى وعد بحفظ أوليائه وأحبائه.

إن صنع الشر هى مهمة إبليس منذ القدم، وهى مهمة مارسها قديمًا وسيظل يمارسها إلى أن تقوم الساعة، وهى مهمة هيأ نفسه لها، ولهوانه على الله مكنه منها، ولكن الله نجى أولياءه وأحباءه من عواقبها مهما اشتط إبليس فى فعل الشر معهم.

إن مقام النبوة عال، وليس اختيار الأنبياء أمرًا عشوائيًا يحتاج إلى تجربة، ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وقد اختار الله أنبياءه وأصفياءه منذ الأزل، وقال فى ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١٤].

وقال – جل ثناؤه –: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾[١٥].

---

(١٢) الآية ٤٢ من سورة الحجر. (١٣) الآية ص ٨٢، ٨٣ من سورة ص.
(١٤) الآيتان ٣٣، ٣٤ من سورة آل عمران.
(١٥) الآية ٢٦ من سورة الحديد.

وأيوب – عليه السلام – نبى من سلالة أنبياء..

فهو لا يحتاج أن يُجَرَّب. وهل إذا جُرِّب يُجَرِّبْ من إبليس وبناء على اقتراحه؟

ومتى كان إبليس يجرؤ على مخاطبة الله –تعالى– بعد أن طرده من رحمته، وقال له: ﴿اخرُجْ مِنهَا مَذءُومًا مَدحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنهم لأَملأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُم أَجمَعِينَ﴾(١٦).

وربما احتج صاحب هذا الرأى بأن إبليس سبق وأن وسوس لآدم بعد الأمر بطرده. ولكن يجاب عن ذلك بأن وسوسته لآدم كانت لحكمة إلهية لتعمير هذه الأرض التى وعد الله أزلاً بأن يجعل فيها خليفة، وكان هذا الخليفة هو آدم وذريته.

بل لقد زعم أصحاب هذا الرأى بأن إبليس كان له مكان فى السماء يومًا فى العام، وفى هذا اليوم طلب من ربه أن يجرب أيوب.

وقد رد ابن العربى على هذا القول بأنه باطل، لأنه أهبط منها بلعنة وسخط، فكيف يرقى إلى محل الرضا، ويجول فى مقامات الأنبياء، ويخترق السموات العلا ويعلو إلى منازل الصديقين من الأنبياء ويقف فى موقف الخليل؟

قال: وأما قولهم إن الله تعالى قال لإبليس: هل قدرت من عبدى أيوب على شيء؟ فباطل قطعًا، لأن الله لا يكلم الكفار الذين هم جند إبليس الملعون فكيف يكلم من تولى إضلالهم؟

وأما قولهم إن الله قال له: قد سلطتك على ماله وولده فذلك ممكن فى القدرة ولكنه بعيد فى القصة..

---

(١٦) الآية ١٨ من سورة الأعراف.

أما قولهم إنه نفخ فى جسده فهو أبعد ، لأن الله قادر على أن يبتلى عبده بما ابتلاه به دون أن يكون للشيطان كسب فيه(١٧).

حقًا ، إن ابتلاء أيوب بهذه الصورة العنيفة كان بتقدير إلهى ، ليضرب الله به المثل أمام عباده بأن هناك من امتحن بأقسى أنواع الامتحان فصبر وشكر ونجح فى الامتحان .. وكان حقًا أن يصفه الله بالصبر ويقول فى حقه «إنا وجدناه صابرًا» ويمتدحه بقوله «نعم العبد إنه أواب» ..

مبالغة في تصوير البلاء :

وقد بالغ الرواة في وصف البلاء الذى حاق بأيوب ، وبخاصة فيما يتعلق بمرضه .

لقد وصفوا مرضه أوصافًا تتقزز منها النفس ، وتشمئز منها العين . ومن صفات الرسل أنهم يمرضون ، ولكن لا يمرضون بهذه الأمراض المنفرة التى تحول بينهم وبين أداء رسالة ربهم ، وتمنعهم من مخالطة غيرهم .

وقد تحدث الشيخ محمد عبده عن خصائص الرسل فقال : «ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم وصحة عقولهم وصدقهم فى أقوالهم وأمانتهم فى تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق السليمة ، وأنهم منزهون عما يضاد شيئًا من الصفات المتقدمة ، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهى بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية ، أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر أفراده ، يأكلون ، ويشربون ، وينامون ، ويسهون ، وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، ويمرضون ، وتمتد إليهم أيدى الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتل الأنبياء»(١٨).

---

(١٧) تفسير القرطبى - سورة ص - ص ٥٦٥٢ ط دار الشعب ..

(١٨) رسالة التوحيد ص ٨٤ .

لقد ابتلى أيوب – عليه السلام – بغير شك، ومرض، ولكن مرضه لم يكن منفرًا بالصورة التى تحدث عنها الإخباريون، وهم وإن نزعوا فى وصفهم عن أهل الكتاب فلذلك تأويله كما يقول الشيخ عبد الوهاب النجار –رحمه الله –.

قال: إن هذه الأوصاف التى وردت فى سفر أيوب حسبها الرواة أنها من قبيل الوصف الحقيقى، ولو تدبروا لعلموا أن سفر أيوب يشبه قصائد شعرية قيلت فى وصف ضره وصبره، والشعر فى كل لغة ميدان للمبالغة. انظر إلى قول عمر بن الفارض:

فطوفان نوح عند نوحي كأدمعي وإيقاد نيران الخليل كلوعتي

والمتنبى يقول:

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وقال: ولو أن الابتلاء الذى أشاروا إليه ووصفوه بهذه الصفة من المبالغة كان حقيقة، فربما كان قبل النبوة، وكانت النبوة مكافأة له على صبره ورضاه[19].

ربما وردت شبهة أن الإبتلاء كان فى منتهى القسوة وأن الشيطان كانت له يد فيه من قوله – تعالى –: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ ومن قوله – تعالى –: ﴿رب إني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾..

ولكن الإجابة عن ذلك: أن المؤمن عادة لا ينسب الشر إلى الله بل ينسبه إلى الشيطان، وينسب الخير إلى الله ولا ينسبه إلى نفسه، وقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وإذَا مَرِضتُ فَهُوَ يَشفِين﴾[20]، نسب المرض لنفسه، والشفاء لله. وقال فتى موسى: ﴿وَمَا أنسَانِيهُ إلاَّ الشَّيطَانُ أنْ أذكُرَهُ﴾[21]. وكان فتى موسى نبيًا هو يوشع بن نون وقال موسى نفسه عقب قتل القبطى: ﴿هَذَا مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ﴾[22].

---

(١٩) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٤١٧.
(٢٠) الآية ٨٠ من سورة الشعراء.
(٢١) الآية ٦٣ من سورة الكهف.
(٢٢) الآية ١٥ من سورة القصص.

والنبى - ﷺ - فى ذكره يقول : « والخير فى يديك والشر ليس إليك » ..

وقوله - تعالى - : ﴿اركض برجلك﴾ لا يعنى أنه كان به مرض بهذا الوصف الذى بالغوا فيه وجعلوا الناس يتحاشونه ويأنفون من لقائه ومخاطبته خشية العدوى ، وأنه أصبح كالشن البالى الذى يعجز تمامًا عن الحركة ..

وقد يكون ما به من مرض اقعده عن الحركة فعلاً لكن دون أن يصحبه ما يقزز النفس منه أو ينفر الناس عنه من تلك القروح التى يتناثر منها الدود على النحو الذى حكاه هؤلاء الرواة ..

شفاء أيوب :

فقد أيوب كل ماله وكل أولاده ، وأصبح فقيرًا لا يملك شيئًا ، ثم أصابه المرض الذى أذهب صحته ، وحال بينه وبين السعى فى سبيل الرزق ، فاضطرت زوجته « رحمة بنت افرائيم بن يوسف بن يعقوب » إلى الخدمة فى سبيل تحصيل الرزق لها ولزوجها ..

لم تقصر فى حقه ، ولم تتخل عنه فى محنته ، ولكنها كانت صورة صادقة للوفاء والمروءة ..

وفى يوم أبطأت عليه بسبب انشغالها فى عمل ضوعف عليها وهى تسعى فى سبيل الرزق ، فأقسم ايوب ليضربنها مائة جلدة إن شفاه الله .

وحكى الرواة أسبابًا أخرى فى ذلك القسم .

فقالوا : إن إبليس لقيها فى صورة طبيب ، فدعته لمداواة زوجها ، فقال : اداويه بشرط أن يقول لى : أنت شفيتنى .

فأخبرت زوجها - وهى لا تحسب ان هذه الكلمة شيئًا ، ولكنها كانت عند أيوب كبيرة من الكبائر - فأقسم ليضربنها ، وقال لها : ويحك هذا هو الشيطان وقد غرك . كأنه أنكر عليها أن يغرها الشيطان .

وقالوا : إنها جاءت بخبز زائد على ما كانت تأتى به - فساورته ظنون - فحلف ليضربنها .

وقالوا : إنها باعت ذؤابتها دون أن تخبره ، لتشترى قوتًا ، فحلف ليضربنها .

وعلي كل فقد كان لأيوب عذره حين يضيق صدره لمرضه ، وقد ورد فى بعض الآثار : ثلاثة يعذرون بسوء الخلق : المريض والمسافر والصائم(٢٣). والحق أن ضيق الصدر لا يمنع الصبر ، وعلى أى شيء يكون الصبر إن لم يكن هناك ضيق ؟

ورفع أيوب صوته إلى الله قائلاً :

« رب إني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » ..

ولم يكن دعاؤه شكوى ، ولكنه وقوف عند أدب الافتقار إلى الله ، والله – سبحانه وتعالى – يقول : ﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾(٢٤) .

ويقول : ﴿قُلْ مَايَعْبَؤُاْ بِكُم رَبِّي لولاَ دُعَآؤُكُم﴾(٢٥) .

وقول أيوب : مسنى الضر إخبار عن حاله لا شكوى لبلائه ، وهو إقرار بالعجز . قال أهل الذوق : إن الله أجرى هذا القول على لسانه ليكون حجة لأهل البلاء بعده فى الإفصاح عما ينزل بهم .

وكانت استجابة الله له أسرع مما كان يتوقع ، ورحمته به أقرب إليه مما كان ينتظر . قال له : اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب .

وجاء الأمر بالركض عقب الدعاء مباشرة دون أن يتخلل كلام بينهما وفى ذلك إشارة إلى سرعة الاستجابة .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(٢٦) .

لم يقل : فقل لهم إنى قريب ، إشارة إلى سرعة الاستجابة ..

---

(٢٣) رواه ابن الأثير فى أسد الغابة جـ ٥ ص ٢٨١ فى ترجمة مهدى الجزرى .
(٢٤) الآية ٤٣ من سورة الأنعام .   (٢٥) الآية ٧٧ من سورة الفرقان .
(٢٦) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

وركض أيوب برجله، وتفجرت عين ماء، فاغتسل به، فذهب الداء من ظاهره، وشرب منه فذهب الداء من باطنه.

وذهب داؤه فورًا، وكان قد مر عليه فى البلاء سنوات طويلة قدرها بعضهم بسبع سنوات، وقدرها بعضهم بأكثر من ذلك.

روى ابن أبى حاتم قول النبى - ﷺ - : إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخلص إخوانه له، كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من الصالحين.

فقال له صاحبه: ولم تقول ذاك؟

قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به فلم يكون كل ذاك؟

فلما راحا إليه لم يصبر الرجل على ذكر ذلك له.

فقال أيوب: لا أدرى ما تقول، غير أن الله - عز وجل - يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتى فأُكفِر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا فى حق[٢٧].

ولم يقف الأمر عند حد الشفاء.

ولكن رحمة الله كانت مضاعفة جزاء لما سبق من صبره على ما أصابه من ضر.

لقد رد الله عليه أولاده ومثلهم معهم.

ورد الله عليه شباب زوجته فأنجبت مثل ما فقدت من أولاد.

وأفاض الله عليه من نعمته فوهبه مالاً جزيلاً أضعاف ما كان عنده.

ولطف الله به فيما أقسم عليه من ضرب زوجته، فقال له: وخذ بيدك ضغثًا فاضرب به ولا تحنث.

فأخذ حزمة بها مائة عود من حشيش فضربها بها ضربة واحدة.

---

(٢٧) فى رحاب الأنبياء ص ١٢٠.

وهذه رخصة خص الله بها هذه الزوجة الوفية الصابرة المؤمنة، التى أحسنت رعاية زوجها، وثابرت معه حتى اجتاز محنته بنجاح.

دروس وعبر:

لقد حفلت قصة أيوب بكثير من العبر والعظات التى يجد فيها المؤمن ما يبحث عنه من عزاء وصبر على ما يصيبه فى حياته من محن وشدائد.

والصبر على الشدائد من علامات الإيمان. قال - تعالى -: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[٢٨].

وقد ورد فى فضل الصبر من الآثار الكريمة ما لا يعد ولا يحصى، ويكفى فى إثبات شرف الصبر قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢٩] وجعل الله الصبر من عزائم الأمور فقال - تعالى -: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[٣٠].

ومن بشريات النبى - ﷺ - للصابر قوله: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[٣١].

وفيما ورد من إخبار النبى - ﷺ - عن رب العزة قوله: «إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه ملكين، فقال: انظروا ماذا يقول لعواده؟ فإن هو إذا جاءوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله - عز وجل - وهو أعلم فيقول: لعبدى علىّ إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدل له لحمًا خيرًا من لحمه ودمًا خيرًا من دمه وأن أكفر عنه سيئاته»[٣٢].

وقد جمع أيوب - عليه السلام - بين فضيلتى الشكر والصبر..

---

(٢٨) الآيتان ٢، ٣ من سورة العنكبوت. (٢٩) الآية ١٠ من سورة الزمر.

(٣٠) الآية ٤٣ من سورة الشورى.

(٣١) رواه مسلم. وذكره النووى فى رياض الصالحين برقم ٢٧ عن صهيب بن سنان.

(٣٢) أخرجه مالك فى الموطأ. باب فضل المريض جـ ٢ ص ٢٠٦. وفى كتاب الأحاديث القدسية جـ ١ ص ٢١٦ حديث رقم ٢٠٦.

أنعم الله عليه فشكر، وابتلاه فصبر ..

بل لا نعجب إذا قلنا: ابتلاه فشكر .. فقد تكون المحنة نعمة تستوجب الثناء، وقد تكون النعمة محنة تستوجب الصبر ..

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

ومن لطائف ذلك ما روى من أن رجلاً دخل على سهل بن عبد الله – وهو من كبار الصالحين – فقال: إن اللص دخل داري وأخذ متاعي. فقال له: اشكر الله تعالى، لو دخل اللص قلبك – وهو الشيطان – وأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع؟[٣٣] ولعل هذا هو معنى قولهم: لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع.

ولم يغب ذلك يقينًا عن أيوب – عليه السلام – .

ولقد تعرض في محنته لضروب شتى من المعاناة القاسية فلم تهن عزيمته ولم تلن قناته ولم يتزعزع إيمانه، ولم يرد على لسانه إلا لفظ الحمد لله ..

فقد ماله فصبر واحتسب ..
وفقد ولده فصبر واحتسب ..
وفقد صحته فصبر واحتسب ..
وهجره إخوانه فصبر واحتسب ..
وسمع قوارص الكلم فصبر واحتسب ..

قيل: إنه لم يتأثر قط لما أصابه إلا حين سمع لفظًا أحس فيه شماتة عدو فقال: «رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين» ..

وحق له ذلك، فالشماتة مما لا يصبر عليها أحد إلا من وفقه الله ولذلك قال الشاعر:

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الحساد

وقد ورد أن النبى – ﷺ – استعاذ من شماتة الأعداء ..

---

(٣٣) الرسالة القشيرية ص ٨٩ .

وطلب هارون من أخيه موسى – عليهما السلام – أن يهون عليه فى لومه حتى لا يشمت به الأعداء ..

وفى قصة أيوب – عليه السلام – مثل للمرأة المؤمنة الصابرة المكافحة الوفية . فهذه «رحمة» زوجة أيوب، أصابها ما أصاب زوجها .. فَفَقْدُ مال زوجها عرضها هى أيضًا للعدم والإملاق، وحرمها النعمة التى كانت تتقلب فيها، وصارت بعد أن كانت سيدة فى قصرها تخدمها الوصائف والولائد خادمة تعمل بأجر فى البيوت، وربما بيوت من كانت تستخدمهن . وذلك لقاء طعامها وطعام زوجها .

ثم تعود بعد ذلك إلى زوجها وقد أتعبها العمل فى البيوت لتمرضه وتسهر على رعايته دون أن تتبرم وتضيق .. وقد قال الحكماء : المريض من عنده مريض ..

وهى كذلك قد اختبرت بفقد أولادها كما اختبر أيوب تمامًا، وعاطفة المرأة عادة أرق وحبها لأولادها أشد، ومع ذلك فقد ظلت على إيمانها لم يتحول قلبها عن باب سيدها ومولاها ..

وهى وإن لم تختبر بالمرض كما اختبر زوجها، فإن معاناة زوجها لمرضه معاناة لها ..

وكانت رحمة الله أكبر من أن يمرض الإثنان معًا .. فمرض هو وكان مرضه اختبارًا لها، وكثير من النساء ينصرفن عن أزواجهن حين تضيق ذات يدهم وحين يتعرضون للإملاق وحين يمرضون ..

وفى القصص المأثور ما يفيد ذلك، فقد حدث الرواة أن صخرًا أخا الخنساء مرض وطال مرضه . فمر على زوجته يومًا من سألها عنه فقالت : لا هو حى فيرجى ولا ميت فينعى . فشق على صخر ما سمعه، وهم بأن يضربها فلم يستطع، وقال فى ذلك أبياتًا يرويها الناس تدل على صدق عاطفة الأمهات، وكذب عاطفة الزوجات . منها :

أرى أم صخر لا تمل زيارتى ... وملت سليمى مضجعى ومكانى
وأى امرىء ساوى بأمٍّ حليلة ... فلا عاش إلا فى شقا وهوان[٣٤]

---

(٣٤) حياة الحيوان جـ ٢ ص ٢٩٦ .

ولكن رحمة كانت أمًا لأيوب وزوجة له، كانت من معدن الأنبياء ومن سلالة الأطهار ومثلها لا تتخلى عن زوجها فى محنته..

وعلى الرغم مما راته من شدته، وربما جفائه فى قوله حين أقسم أن يضربها مائة جلده. فإنها لم تنفر منه، ولم تتأب عليه، ولم تمُنَّ بما فعلت معه كما تفعل النساء غيرها ولم تنتهزها فرصة لتفر إلى الفضاء الواسع حيث تجد عيشة آمنا وحياة أسعد وأرغد، وقد كانت ذات جمال.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل باعت فى سبيل زوجها غدائرها الجميلة، وهى أهم ما تحرص عليه المرأة لأنه عنوان جمالها ومظهر حسنها.

ولئن كانت نساء عصرنا هذا يؤثرن التخلص من شعورهن واستبداله بالغدائر المصطنعة. فإن النساء قديمًا كن يتباهين بالشعر الجميل، ويتغنين به ويتغنى شعراء الغزل معهن بسواد هذا الشعر ونعومته وطوله.

وفى القصة دلائل على أن الصبر على الابتلاء يضاعف الأجر، وقد يوفى الصابرون أجرهم فى الدنيا قبل الآخرة.

والصبر وإن كان مر المذاق إلا أن عاقبته جميلة وآخرته حميدة.

وقد كافأ الله أيوب على صبره مكافأة سخية تدل على ما أعده الله للصابرين من وافر الجزاء وجميل العطاء.

قال الرواة: لقد أرسل الله سحابتين صبت احداهما ذهبًا، وصبت الأخرى فضة.. في وادى أيوب.

وقيل: لقد أمطرت عليه السماء قطعًا من الذهب، فأقبل عليه يجمعه فخاطبه الحق - تعالى -: ألم يكفك ما أعطيتك؟

فقال: بلى، ولكن هل يشبع أحد من رحمتك؟.. وفى تلك الروايات مافيها مما لا يطمئن إليه العقل..

يروى أن عمر أيوب كان ثلاثًا وتسعين سنة..

وقيل: إنه عاش بعد شفائه مثل عمره قبل بلائه.

قال المسعودى: ما زال مسجد أيوب والعين التى اغتسل منها إلى وقتنا هذا وقد مات المسعودى سنة ست وأربعين وثلاثمائة وقد ذكر أنهما مشهوران ببلاد «نوى» و «الجولان» فيما بين دمشق وطبرية من بلاد الشام.

وهذا المسجد والعين على ثلاثة أميال من مدينة «نوى» أو نحو ذلك. والحجر الذى كان يأوى إليه فى حال بلائه هو وزوجته فى ذلك المسجد[٣٥].

وفى العهد القديم: بارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه، وعاش بعد هذا – أى بعد بلائه – مائة وأربعين سنة ورأى بنيه وبنى بنيه إلى أربعة أجيال. ثم مات[٣٦].

قصة ذى الكفل عليه السلام

- قصة الثعلبى.
- ذو الكفل عند أهل اللغة.
- قصة أخرى عن ذى الكفل.
- عظات وعبر.

إرم ذات العماد

- مدلول كلمة "إرم".
- رواية أخرى عن هذه المدينة.
- مكان "إرم".
- إعجاب شداد بمكان الاسكندرية.
- أسطورة المدينة.
- ما ورد حول رؤية هذه المدينة.
- تأويلات المفسرين.

---

(٣٥) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٣٥

(٣٦) سفر أيوب الاصحاح ٤٢

قصة ذى الكفل

ورد ذكر «ذى الكفل» فى القرآن الكريم مرتين :

فى قوله تعالى : ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[1] .

وقوله- تعالى :- ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ﴾[2] .

وقد اختلف الرواة حول شخصية ذى الكفل ..

فمنهم من يجعله نبيًا ، ومنهم من يجعله رجلاً صالحًا ..

ولكن ذكره فى الآيتين السابقتين مع الأنبياء يشير إلى أنه نبى ..

وقد وردت قصة «ذى الكفل» فى كتب الرواة بأساليب مختلفة ، وبعضهم يجعله من أبناء أيوب - عليه السلام - ولذلك اتبعناه به - .

قال ابن إياس :

لما قبض الله - تعالى - أيوب - عليه السلام - تغلب عل أولاده ملك من الملوك اسمه لام بن دعام .

وكان لأيوب ابنة جميلة[3] . فأرسل الملك لأولاد أيوب يخطبها ، فقالوا : ليس فى ديننا أن نزوجك ، وأنت على الكفر ، فإن أحببت الزواج منها فادخل فى ديننا .

ولكن الملك رفض أن يستجيب لرغبتهم . إنهم من رعيته وكيف يستجيب ملك لرعيته ؟ إنه يأمر فيطاع ، ولا يؤمر هو فيطيع .

لقد كبر عليه ردهم ، وصمم على الانتقام منهم ، وأرسل إليهم يهددهم ويتوعدهم بالقتل .

---

(١) الآية ٨٥ من سورة الأنبياء .   (٢) الآية ٤٨ من سورة ص .

(٣) ذكر العهد القديم : أن أيوب ترك ثلاث بنات «يميمة ، وقصيعة ، وقرن هفوك ، ولم توجد نساء جميلات كبنات أيوب ، وكان لهن ميراث كبير - سفر أيوب - إصحاح ٤٢ .

وبلغ أولاد أيوب عزم الملك على قتالهم، فاجتمعوا للتشاور، فمنهم من أشار بقتاله، ومنهم من أشار بمداراته بالمواعيد..

ولكن «حواميل بن أيوب» صمم على قتاله وحربه، وجمع من معه من قومه.

وسار إليهم الملك فهزمهم واستولى على أملاكهم وأسر منهم عددًا، وكان من الأسرى ولد لأيوب اسمه: بشير بن أيوب.

وهم الملك بقتله وصلبه. ولكنه تريث فى أمره، وحبسه، وطلب الفدية ليطلق سراحه.

ورأى «حواميل» فى منامه رؤيا. رأى من يقول له: يا حواميل لا تخف على أخيك من هذا الملك. فإنه سيؤمن وستكون عاقبته إلى خير.

وقص الرؤيا على من عنده علم بتأويل الرؤى. فبشره بصدق وقائعها. فاستبشر بها، ولذلك عدل عن تقديم الفدية التى أعدها للملك.

ولكن الملك حين علم بعدول «حواميل» عن تقديم الفدية غضب غضبًا شديدًا، وأقسم أن يجعل من «بشير» نكالاً وعبرة.

وأمر بحفر خندق، وأشعله نارًا. وأمر بإلقاء بشير فيه.

وحمل الجنود «بشيرًا» وقذفوه فى الخندق المؤجج بالنار، ولكن النار كانت عليه بردًا وسلامًا.

فلما رأى الملك ذلك. قال: إن هذا لسحر عظيم.

ولكن «بشيرًا» رد عليه قائلاً: أيها الملك ليس هذا سحرًا، وما نحن بساحرين. ولكنا من ذرية خليل الرحمن إبراهيم الذى ألقاه النمروذ فى النار، فقال الله للنار: كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم.

وكذلك يفعل الله بأولاد إبراهيم وأحفاده من بعده.

فوقع الإيمان فى قلب الملك وآمن.

وزوجه الإخوة أختهم..

وسمى الملك بشيرًا «ذا الكفل» لأنه حين طلب الملك الفدية بعد أن أسره تكفل له بها.

وكان «حواميل» قد ورث النبوة عن أبيه أيوب – عليه السلام – فأرسل أخاه بشيرًا إلى أهل الشام. بإذن من الله تعالى، يدعو إلى دين الله.

فسار إليها، وسخر الله له الملك «لام» زوج أخته يقاتل بين يديه. ولم يزالوا كذلك حتى لقوا الله عز وجل[٤].

وهى قصة على كل حال لا ينبغى أن تكذب، ففيها التقاء مع الوقائع التى حدثت فى الزمان الأول، وهى لا تعارض نصًا صريحًا قاطعًا ورد فى كتاب الله أو كلام المعصوم – ﷺ –.

وقد تكون هذه القصة مستقاة من أخبار أهل الكتاب، وما دامت لا تنافى العقل ولا تخالف الدين فلا بأس بقبولها.

قصة الثعلبى:

ويقص الثعلبى قصة «ذى الكفل» بطريقة أخرى قائلاً:

إن نبيًا من الأنبياء –وهو «اليسع» كبرت سنه، فأراد أن يستخلف من ينوب عنه قبل موته. فجمع الناس وقال:

من يكفل لى أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب؟

فقام شاب، فقال: أنا..

فقال له: اجلس، فجلس.

ثم إنه أعاد فى اليوم الثانى القول، فقام ذلك الشاب نفسه، فقال: أنا، فقال له: اجلس، فجلس.

وفى اليوم الثالث أعاد قوله، فقام ذلك الشاب، وقال: أنا.

فقال له النبى: تقوم الليل، وتصوم النهار، ولا تغضب؟

قال: نعم. فاستخلفه.

---

(٤) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ١١٢.

ومات ذلك النبي، فجلس الشاب مكانه يقضي بين الناس، فكان لا يغضب..

وأراد الشيطان أن يغويه فيحمله على نقض عهده.

فجاءه في صورة إنسان ليغضبه وهو صائم. جاءه في وقت القيلولة. فضرب عليه الباب ضربًا شديدًا، -وهو متهيىء ليقيل- وكان لا ينام إلا في هذا الوقت.

فقال: من هذا؟

فقال: رجل له حاجة، مظلوم، جحده خصومه.

فأرسل ذو الكفل إليه رجلاً، فقال: لا أرضى بهذا الرجل، فأرسل إليه آخر، فقال: لا أرضى.

فخرج إليه ذو الكفل، فأخذ بيده، وانطلق معه، حتى إذا كان في السوق خلأه وانصرف..

وكرر ذلك الفعل معه عدة مرات في عدة أيام.. كل ذلك وذو الكفل لا يغضب منه فسمي «ذا الكفل»..

ولم يذكر ماذا كان اسمه قبل أن يطلق عليه هذا الاسم[٥].

وذكر الثعلبي قصة أخرى يوافق فيها ما جاء في قصة ابن إياس في بعض تفاصيلها، قال:

إن ذا الكفل هو بشير بن أيوب أو بشر بن أيوب، بعثه الله نبيًا بعد أبيه، وأرسله إلى أرض الروم، فآمنوا به وصدقوه.

ثم إن الله أمرهم بالجهاد فكفوا عن ذلك وضعفوا، وقالوا لبشر:

نحن نحب الحياة ونكره الموت، ومع ذلك نكره أن نعصي أمر الله، فاسأل الله أن يطيل أعمارنا ولا يميتنا إلا إذا شئنا.

---

(٥) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٢٦٤.

فقال لهم : لقد سألتمونى عظيمًا وكلفتمونى شططًا .

ثم إنه قام وصلى ودعا ، وقال : يا إلهى ، أمرتنى بتبليغ الرسالة فبلغتها ، وأمرتنى أن أجاهد أعداءك وأنت تعلم أني لا أملك إلا نفسى ، وأن قومى سألوني فى ذلك ما أنت أعلم به منى فلا تؤاخذنى بجريرة غيرى ، فأنا أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك .

فأوحي الله – تعالى – إليه : يا بشر إني سمعت مقالة قومك ، وإنى قد أعطيتهم ما سألونى ، طولت أعمارهم فلا يموتون إلا إذا شاءوا ، فكن كفيلاً لهم مني بذلك ، فبلغهم بشر رسالة الله ، وأخبرهم بما أوحى إليه ، وتكفل لهم بذلك الأمر ، فسمي ذا الكفل .

ثم إنهم توالدوا وكثروا وطالت أعمارهم وضاقت عليهم الأرض ، حتى سئموا الحياة وكرهوا العيش ، وتأذوا بسبب ماهم فيه .

فسألوا بشر أن يدعوا الله أن يردهم إلى آجالهم .

فأوحى الله تعالى إليه : أما علم قومك أن اختيارى لهم خير من اختيارهم لأنفسهم؟ وفى هذه القصة ما فيها لأن الحق سبحانه يقول : ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ فكيف تجعل آجال هؤلاء بمشيئتهم ؟

وعاد ذو الكفل إلي الشام وأقام بها حتى مات عن خمس وتسعين سنة[٦].

وذكر ابن كثير فى قصصه وتفسيره قصة ذى الكفل بما يوافق قصته الأولى مع شيء من التفصيل حين أراد الشيطان إغواءه ليحمله على نقض ما تكفل به لبنيه .

فذكر كيف كان يحتال عليه ليحمله على التبرم به والضيق منه فى وقت راحته ، فينغص عليه منامه ، ويحرمه من طعم الراحة ، فلا يُمكّنه ذلك من مواصلة قضائه على خير وجه .. حتى حمل ذلك ذا الكفل على أن يوكل ببابه من يحفظه من ذلك الثقيل الذى اعتاد أن يطرق بابه فى وقت القيلولة بالذات .

---

(٦) المرجع السابق ص ١٦٦ .

ومع ذلك فقد كان الشيطان يأتى ، فإذا طرد من الباب جاء من الطاق ، وينادى ذا الكفل حتى يقلقه ويؤرقه ..

وعرف ذو الكفل أن ذلك الثقيل هو الشيطان فلعنه ..

فسماه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به[٧].

ونكرر القول بأن هذه القصص لم ترد بها أخبار نقطع بصحتها يقينًا .

ولكن المقطوع به أن ذا الكفل ورد ذكره فى القرآن الكريم فى سياق الأنبياء ، فهو إن لم يكن نبيًا فهو من الصالحين الأخيار بشهادة القرآن .

وقد شهد الله له بالصبر .. فإن كان ابن أيوب فقد سبقه أبوه بالمثالية فى ذلك ، وإن لم يكن ابنه فهو ثناء عاطر يعد وسامًا على صدر صاحبه .. والشهادة بالصبر قد تجعل قصة صبره على العبادة ووفائه بما تعهد به غير مردودة عقلاً ..

وقد أشار الطبرى فى تفسيره[٨] إلى هذه القصة التى ذكرناها .

وذكر بعض الرواة أن ذا الكفل لم يكن نبيًا ولكنه كان صالحًا ، وقد ذكر ابن كثير ذلك فى خبر مروى عن أبى موسى الأشعرى -رضى الله عنه- .

وذكر القرطبى فى تفسيره قصة عن ذى كفل تشهد لصاحبها بأن صدق التوبة يرفع صاحبه إلى درجات الصديقين .

قال : روى ابن عمر -رضى الله عنهما- عن النبى -ﷺ- قال : كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل ، لا يتورع عن ذنب عمله ، فاتبع امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت .

فقال لها : ما يبكيك ؟

قالت : من هذا العمل ، والله ما عملته قط .

---

(٧) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٧٦ .　　(٨) جـ ١٧ ص ٥٩ .

قال : أكرهتك ؟

قالت : لا ، ولكن حملنى عليه الحاجة .

قال : اذهبى ، وما أعطيتك فهو لك ، والله لا أعصى الله بعدها أبدًا .

ثم مات من ليلته ، فوجدوا مكتوبًا على باب داره : إن الله قد غفر لذى الكفل .

وقد ذكر السيوطى فى جمع الجوامع هذا الحديث بلفظ « الكفل » بدون ذى[9].

وقد علق الساعاتى على هذا الحديث فى جمع الجوامع قائلاً : الكفل رجل آخر غير ذى الكفل الذى ذكره الله فى القرآن الكريم . وذلك أن الكفل كان رجلاً مسرفًا على نفسه ثم تاب ، ورجع إلى الله عز وجل ، فقبل توبته وغفر له[10].

أما كون التوبة عن الذنب ترفع صاحبها فذلك حق ، وقد ورد ذلك فى أخبار صحيحة مشهورة .

فمن بين السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين .

ومن بين الثلاثة الذين توسلوا إلى الله بصالح الأعمال ففرج الله عنهم ما هم فيه من ضيق ، وكشف عنهم الصخرة التى سدت عليهم فم الغار الذى كانوا فيه . رجل حكى قصة كقصة ذى الكفل الذى تورع عن فعل الخنا مع ابنة عمه وقد استسلمت له تحت وطأة الحاجة ، فتركها اتقاء الله وخوف عقابه .

قصة أخرى عن ذى الكفل :

روى القرطبى فى قصة ذى الكفل عن كعب الأحبار ، قوله :

---

(9) الحديث فى الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد جـ ٢٠ ص ١٥٤ ، وأورده الحاكم فى المستدرك وقال : صحيح الإسناد جـ ٤ ص ٢٥٣ .

(10) راجع جمع الجوامع جـ ٣ ص ٥٠ ط. مجمع البحوث الاسلامية .

كان فى بنى إسرائيل ملك كافر . فمر ببلاده رجل صالح فقال : والله لن أخرج من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام ، فعرض عليه فقال الملك : ما جزائى ؟ قال الرجل : الجنة . ووصفها له .

فقال الملك : ومن يتكفل لى بذلك : قال الرجل : أنا .

فأسلم الملك ، وتخلى عن المملكة ، وأقبل على طاعة ربه ، حتى مات .

فدفن ، فأصبحوا فوجدوا يده خارجة من القبر ، وفيها رقعة خضراء مكتوبًا فيها بنور أبيض : إن الله قد غفر لى وأدخلنى الجنة ووفى عنى كفالة فلان .

فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الأيْمَان ويتكفل لهم بما تكفل به للملك .

ففعل ذلك فآمنوا كلهم ، فسمي ذا الكفل[١١].

وهى قصة أيضًا لا تجافى العقل ، فإن كان ذو الكفل نبيًا ، فظهور اليد وما هو مكتوب عليها معجزة له .

وإن كان رجلاً صالحًا فهى كرامة أكرمه الله بها .

ذو الكفل عند أهل اللغة :

وتحدث اللغويون عن الكفل فقالوا : الكِفْل كساء يجعل تحت الرحل ، وهو أيضاً ما يحفظ الراكب من خلفه ، وهو النصيب ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾[١٢] ، وهو الحظ والضعف من الأجر ، ومنه ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾[١٣] .

والكافل : الضامن والعائل ، وهو الذى لا يأكل ، وهو الذى يواصل الصوم .

وهى معان تلتقى فى معظمها مع تعليل تسمية ذى الكفل بذلك الاسم .

---

(١١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٤٣٦٧ (سورة الأنبياء) وذكر ابن قتيبة فى كتابه « المعارف » أن هذا الملك اسمه كنعان ص ١٩ .

(١٢) الآية ٨٥ من سورة النساء . (١٣) الآية ٢٨ من سورة الحديد .

ولذلك قال ابن منظور فى لسان العرب : وذو الكفل اسم نبى من الأنبياء -صلوات الله عليهم أجمعين- وهو من الكفالة . سمى ذا الكفل لأنه كفل بمائة ركعة كل يوم فوفى بما كفل ، وقيل : لأنه كان يلبس كساء كالكفل ، وقال الزجاج : إن ذا الكفل سمى بهذا الاسم لأنه تكفل بأمر نبى أمته فقام بما يجب عليه ، وقيل : تكفل بعمل رجل صالح فقام به[14].

عظات وعبر :

وأيًا ما كان ففى قصة ذى الكفل عظات وعبر ، ودلائل تشير إلى أن الصفات الحسنة من صدق وصبر ووفاء وجهاد وتوبة صادقة تؤدى إلى حسن الأحدوثة وطيب الذكر وبقاء الأثر .

ويكفى أن الله أثنى على ذى الكفل بثناءين .

أما الأول فإنه ذكره فى سياق سلسلة من الأنبياء الصادقين هم موسى وهارون وإبراهيم واسحاق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وأثنى عليه معهم بالصبر[15]. وقال عنهم : ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[16].

والثانى أنه وصفه بأنه من الأخيار فى قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[17].

وهذا ما يرجح أنه نبى من الأنبياء بذكره فى زمرة هؤلاء ، فإن لم يكن منهم فهو فى معيتهم ..

وذلك يدعونا إلى الاقتداء بالصالحين ، والسير على نهجهم ، والاقتداء بهم فى أفعالهم ، وعدم التفريط فيما ورد عنهم من سنن صالحة وآثار طيبة وقيم وفضائل « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ..

---

(١٤) لسان العرب جـ ٥ ص ٣٩٠٥ -مادة كفل- .
(١٥) سورة الأنبياء من الآيات رقم ٤٨ حتى ٨٦ .
(١٦) الآية ٨٦ من سورة الأنبياء .
(١٧) الآية ٤٨ من سورة ص .

إرم ذات العماد

قال – تعالى – :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ ﴾[1].

سبق أن عرضنا قصة عاد التي يقول الحقُّ فيها : ﴿وإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾[2].

مع آيات أخرى في سور متعددة .

ولكنا نشير هنا إلى ما أورده بعض الإخباريين من أقاصيص حول الأبنية ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد . ووصفها بذلك يدل على أنها أبنية متميزة ، لم يستطع أحد من الخلق أن يصنع مثلها ، وسيظل الخلق عاجزين عن ذلك حتى تقوم الساعة ، ما دام القرآن يتلى وهو صادق فيما يخبر عنه .. ولو حدث مع التقدم المعمارى والتكنولوجى أن يتقدم الناس فى معمارهم ويشيدوا ما لم يشيد من قبل فإنهم على الرغم من ذلك لن يستطيعوا أن ينشئوا مثلما أنشأ ذلك الذى وصف الله مدينته بأنها لم يخلق مثلها فى البلاد

مدلول كلمة إرم :

وقد اختلف العلماء حول مدلول كلمة « إرم » ..

يقول ابن منظور فى لسان العرب فى هذه المادة :

« إرم » ولد عاد الأول ، ومن ترك صرف « إرم » جعله اسمًا للقبيلة . وقيل : « إرم » هى عاد الأخيرة . وقيل : هى اسم للبلدة التى كانوا فيها .

وبعضهم يقول : إن « إرم » هو اسم لعاد إذا لم تضف إرم إلى عاد ، فإذا أضفته فقد جعلت « إرم » اسمًا للأم أو للبلد التى كانوا يقيمون فيها .

---

(١) الآيات ٦ : ٨ من سورة الفجر .

(٢) الآية ٦٥ من سورة الأعراف .

وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية ما يأتى :

يمكن اعتبار « إرم » اسمًا لقوم من الناس هم عاد .

أما العماد فهى قوائم خيامهم التى كانوا يقيمون فيها .

ويمكن تفسير العماد على أنه كناية عن العلو والرفعة .

وهناك من يفهم أن « إرم » يشير إلى مكان الاستيطان الذى كان يقيم فيه قوم عاد[٣].

مكان إرم :

وإذا كان الأمر كذلك . فأين ذلك المكان ؟

يرى ياقوت الحموى فى معجم البلدان : أن الرأى الغالب هو أن ذات العماد صفة لمدينة دمشق ويقول : إن جيرون بن سعد بن عاد نزل بها وابتنى مدينة بها عمد من الرخام .

ولكن كثيرًا من المسلمين يرون أن « إرم » تشير إلى جنوب بلاد العرب حيث كان يقيم قوم عاد .

وبعضهم يقولون : إنها كانت قرب « عدن » أو بين صنعاء وحضرموت ، أو بين حضرموت وعمان .

ويلاحظ أن كلمة « إرم » من لغة أهل اليمن ، فهناك جبل وبئر يعرفان بهذا الاسم فى جنوب بلاد العرب[٤].

أسطورة المدينة :

قال الإخباريون : كان لعاد ابنان : أحدهما شداد والآخر شديد . ومات شديد ، فخلص الأمر لشداد ، وملك المعمورة ودانت له ملوكها .

وكان شداد يسمع بأخبار الجنة التى ورد ذكرها على ألسنة من تقدم من الأنبياء والمرسلين ، فأراد أن يبنى مدينة على مثالها فى بعض صحارى عدن .

---

(٣) دائرة المعارف الاسلامية - مادة إرم - جـ ٣ ص ٦٦ .   (٤) المرجع السابق .

وحشد لذلك أهل الفن والعمارة ، وهيأ لهم كل ما يلزمهم من أدوات ومواد .

وبنى المدينة ، وجعل حجارتها من الذهب والفضة ، وحلّى أسوارها بالحجارة الكريمة .

فلما تمادوا في كفرهم أهلكهم الله بصيحة قضت عليهم ، وابتلعت الأرض مدينتهم وغارت في جوف الرمل .

رواية أخرى حول هذه المدينة :

وذكر المسعودي : أن إرم ذات العماد هذه كانت آية في الإبداع ، وحين أعجب بها شداد أراد أن يقيم واحدة مثلها في مكان مدينة الإسكندرية ، ويقول في ذلك :

ذكر جماعة من أهل العلم أن الإسكندر المقدوني لما استقام ملكه في بلاده ، سار يختار أرضًا صحيحة الهواء والتربة والماء ، حتى انتهى إلى موضع الإسكندرية ، فأصاب في موضعها آثار بنيان عظيم ، وعمد كثيرة الرخام ، وفي وسطها عمود عظيم مكتوب عليه بالقلم المسند ، -وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد - :

« أنا شداد بن عاد بن شداد بن عاد ، شيدت بساعديي البلاد ، وقطعت عظيم العماد ، من الجبال والأطواد ، وأنا بنيت إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وأردت أن أبني هنا كإرم ، وأنقل إليها كل ذي إقدام وكرم ، من جميع العشائر والأمم ، وذلك إذ لا خوف ولا هرم ، ولا اهتمام ولا سقم ، فأصابني ما منعني وعما أردت قطعني ، مع وقوع ما أطال همي وشجني ، وأقل نومي وسكني ، فارتحلت بالأمس عن داري ، لا بقهر ملك جبار ، ولا لخوف جيش جرار ، ولا عن رهبة ولا صغار ، ولكن لتمام المقدار ، وانقطاع الآثار ، وسلطان العزيز الجبار .

« فمن رأى أثري ، وعرف خبري ، وطول عمري ، وإنفاذ صبري ، وشدة حذري ، فلا يغتر بالدنيا بعدي ، فإنها غرارة ، تأخذ منك ما تعطي وتسترجع ما تُوَلّي »(٥).

---

(٥) مروج الذهب للمسعودي جـ ١ ص ٢٧٧ .

ويرى المسعودى أن شدادًا هذا ملك تسعمائة سنة، وكان قد استولى على سائر ممالك العالم. وأمته هى عاد الثانية.

وعبارة المسعودى التي ساقها تفيد أنّ شدادًا هذا لم يكن كافرًا. كما أنه لم يكن ابن عاد الأول ولكنه حفيده..

وإن صحت هذه الرواية فلعله اعتبر بمصير أجداده الذين هلكوا بكفرهم وعنادهم.

إعجاب شداد بمكان الاسكندرية:

وتشير بعض الروايات إلى أن شدادًا كان قد أعجب بالإسكندرية، فأراد أن يشيد فيها ما شيده في صحراء عدن - ومنها هذه الرواية السابقة عن المسعودى -.

وأورد القرطبي فى تفسيره ما رواه معن عن مالك، أن كتابًا وجد بالاسكندرية فلم يدر ما هو، فلما عرف بعد ذلك وجد فيه: أنا شداد بن عاد الذى رفع العماد، بنيتها حيث لا شيب ولا موت.

قال مالك: كانت تمر عليهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة.

وذكر عن ثور بن زيد أنه قال: وجد ما هو مكتوب: أنا شداد بن عاد، وأنا رفعت العماد، وأنا الذى شددت بذراعى بطن الواد، وأنا الذى كنزت كنزًا على سبعة أذرع لا يخرجه إلا أمة محمد - ﷺ -[٦].

إن هذا الخبر يشير إلى إيمان شداد بن عاد، فإذا كان صحيحًا فكيف يهلك بالصيحة التى هلك بها؟

ما ورد حول رؤية هذه المدينة:

ذكر الثعلبى فى كتابه: وابن إياس وبعض المفسرين فى كتبهم، أن رجلاً اسمه عبد الله بن قلابة فى عهد معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - خرج فى طلب إبل له قد ضلت، فبينما هو يبحث عنها فى صحارى عدن،

---

(٦) تفسير القرطبي - سورة الفجر -.

وقع على مدينة حولها حصن، فدخلها فإذا بها قصور ذات غرف مبنية بالذهب والفضة، وقد فرشت أرضها بالزبرجد والياقوت والمسك والكافور، فأخذ من ذلك ما قدر عليه..

ثم نما خبره إلى معاوية، فاستدعاه فأخبره بما رأى، ووصف المدينة وصفًا دقيقًا يثير العجب والدهش. وأراه ما أخذه من معادنها.

واستدعى معاوية كعب الأحبار وسأله عما رأى عبد الله بن قلابة، فصدَّق ما أخبر به[٧].

ولكن العقل والمنطق يقفان لهذا الخبر بالمرصاد..

فخبر عبد الله بن قلابة يعوزه الإسناد الصحيح، ولا يبعد إنْ صح أن يكون من خياله، أو هو من قبيل السراب الذي يحسبه الظمآن ماء..

والمعادن التى كانت معه لا يبعد أن تكون مما يجده المار فى الصحراء مصادفة.

وقد أرسل معه معاوية - فيما يقولون - نفرًا ليشاهدوا المكان الذى وصفه فلم يجدوا شيئًا..

وتصديق كعب الأحبار لحكاية عبد الله ينقصه الدليل على صحته.

وقد ناقش ابن كثير - رحمه الله - فى تفسيره هذه القصة، وفند الأقوال التى دارت حول وجود مدينة بهذه الصفة التى ذكرها الرواة لها. وقال فى ذلك:

إن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس.

ونضيف إلى ذلك أن المهتمين بالتنقيب عن الآثار فى العصر الحديث لا يمكن أن يغفلوا أمرًا كهذا. ولو ثبت وجود مدينة ذهبية بهذا الوصف الذى وصفه عبد الله بن قلابة، لقتل المنقبون أنفسهم بحثًا عنها، أو على الأقل لاستطاعوا أن يقدموا إشارات أو دلائل تدل على وجود هذه المدينة.

---

(٧) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٤٥ - بدائع الزهور لابن إياس ص ٧٠ - تفسير القرطبى.

ولا يمكن أن نغفل التضارب حول المكان الذى بنى فيه شداد مدينته ، فبينما هى فى دمشق عند بعضهم إذ بها فى جنوب اليمن أو أطراف العراق عند غيرهم ..

ولكنا مع ذلك نعود فنقول : إن القرآن وصف هذه المدينة وصفًا يثبت وجودها .. وهذا الوصف يدل على أنها عجيبة حقًا .. وقد أخفى الله أثرها لحكمة يعلمها هو ..

إن الذى نشك فيه هو خبر عبد الله بن قلابة الذى يحكى أنه رآها . فلو كان قد رآها لرآها غيره .. وخبر شخص واحد لا تثبت به الحقائق ..

ولكن وجود هذه المدينة فى الأرض ودمارها وهلاك أهلها أمر لاشك فيه لأن القرآن الكريم ذكر ذلك .

ومن يدرى ؟ فقد يوفق الاثريون يومًا فى العثور عليها .. وها هى ذى الأيام تؤيد ذلك إن ما يعثر عليه بين الحين والحين من آثار قديمة يدل على أن ما جهل من التاريخ أكثر مما عرف عنه .. وما تزال الكشوف حتى الآن تظهر وتحكى ما لم يكن معروفًا من قبل ..

تأويلات المفسرين :

إن بعض المفسرين يرى أن وصف الله هذه المدينة بأنها ذات العماد وأنه لم يخلق مثلها فى البلاد ، ينصرف إلى ما بناه العاديُون وقوم ثمود ، من مساكن راقية ، وشادوه من خيام عالية ، أو إلى ما تميز به هؤلاء القوم من فراهة فى أجسادهم وقوة فى أبدانهم ، لم يؤت أحد من الخلق مثلها .

حدث معاوية بن صالح عمن حدثه عن المقدام أن النبى – ﷺ – ذكر إرم ذات العماد فقال : كان الرجل منهم يأتى على الصخرة فيحملها على الحى فيهلكهم[8].

ولكن إذا أمكن تأويل هذه الآيات بذلك . فبماذا يؤول «قصر مشيد» فى قوله – تعالى :- ﴿فَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ أَهلَكْنَاهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصرٍ مَشِيدٍ﴾ ؟[9] .

---

(٨) تفسير ابن كثير –سورة الفجر جـ ٨ ص ٤١٧ . (٩) الآية ٤٥ من سورة الحج .

اما البئر المعطلة فهى بئر أصحاب الرس ، وسيأتى الحديث عنها – إن شاء الله تعالى – .

وأما القصر المشيد . فقد قال السهيلى : هو قصر بناه شداد بن عاد بن ارم لم يبن فى الأرض مثله . إن حاله الإيحاش بعد الأُنس ، والإقفار بعد العمران ، وإن احدًا لا يستطيع أن يدنو منه على أميال لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة[١٠].

هذا بعض ما ذكره العلماء بشأن هذه المدينة .



(١٠) تفسير القرطبي – سورة الحج – ص ٤٤٦٨ ط دار الشعب .

أصحاب الرَّس

ورود ذكر أصحاب الرس في سياق قوم عاد وثمود استدعى الحديث عنهم . وقد ورد ذكر أصحاب الرس في موضعين في القرآن الكريم ..

الموضع الأول في قوله –تعالى–: ﴿وعادًا وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ وقرونًا بين ذلك كثيرًا﴾[1].

وفي قوله –تعالى–: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾[2].

والرس معناها لغة: البئر غير المطوية[3].

وقصة أصحابها كما تحدث عنها العلماء في أكثر من موضع ما يأتي:

كان أصحاب الرس في قرية «حضور» أو «حضوراء» باليمن وهي حضرموت .

وكانت لهم بئر ترويهم وتكفيهم، ويحكمهم ملك عادل حسن السيرة نقي السريرة، وظل فيهم دهرًا يحكمهم بأفضل سيرة .

ومات، فحزنوا عليه حزنًا شديدًا . وانتهزها الشيطان فرصة لإضلالهم، فجاءهم على صورته، وقال لهم: أنا لم أمت، ولكني تغيبت عنكم فترة لأرى كيف تصنعون في غيبتي .

---

(١) الآية ٣٨ من سورة الفرقان. (٢) الآية ١٢ من سورة ق .

(٣) وجاء في لسان العرب: الرس: البئر القديمة أو المعدن، والجمع رساس، ورسست رسًا أي حفرت بئرًا، قال: والرس بئر لثمود، وفي الصحاح: بئر لبقية من ثمود، ويروى في قوله تعالى: ﴿وأصحاب الرس﴾ أن الرس ديار لطائفة من ثمود. قال: ويروى أن الرس قرية باليمامة يقال لها «فلج» ويروى أنهم كبوا نبيهم ورسوه في بئر أي دسوه فيها حتى مات .

وكأنه بهذه الكلمات قد ردّ روحهم عليهم، ففرحوا بذلك الخّبر فرحًا شديدًا، ثم أمرهم بأن يضربوا حجابًا بينه وبينهم، وأنه لن يموت أبدًا.

ففعلوا مثلما أراد..

وقال لهم بعد ذلك: أنا ربكم فاعبدون. فعبدوه..

فلما وصلوا إلى هذه الدرجة من الضلال أرسل الله إليهم نبيًا منهم اسمه «حنظلة بن صفوان»..

وأراد حنظلة أن يزيل الغشاوة عن عيون قومه، وأن يبصرهم بأن الذى يخاطبهم إنما هو الشيطان، وأنه ما من حى إلا ويعتريه الموت، وما من مخلوق إلا ويهلك، وأن ذلك أمر محسوس مشاهد لا ينكره عاقل ولا يغفل عنه غافل ولا يغض الطرف عنه جاهل.

ولكن تزييف الشيطان كان عندهم أقوى من منطق هذا الحكيم، وباطله أكبر من الحق الذى يقوله لهم هذا الناصح الأمين.

وكان حنظلة يوحى إليه فى نومه.

وما زال يدعوهم إلى الهدى ويحثهم على الرشاد، حتى ضاقوا به ذرعًا، وزين لهم الشيطان أن يقتلوه، فقتلوه، وألقوه فى هذه البئر التى يشربون منها، وعليها عماد حياتهم.

فانتقم الله منهم شر انتقام..

غار ماء هذه البئر، فجف زرعهم وهلك ضرعهم وهاموا على وجوههم عطشًا يطلبون الماء في الصحراء فلا يجدون، فتفرقوا بددًا وضاعوا سدى، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

رواية في قصة أصحاب الرس:

ويروى الرواة خبرًا عن رسول الله - ﷺ - فى هذه القصة، رواه محمد بن كعب القرظي عن ابن اسحاق قال:

إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود، وذلك أن الله بعث نبيًا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود، ثم إن أهل

القرية عدوا على هذا النبى ليقتلوه ، فحفروا له بئرًا فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم .

قال : فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتى بحطبه فيبيعه ، ويشترى به طعامًا وشرابًا ، ثم يأتى به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها ، ويدلى إليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت .

قال : فكان كذلك ما شاء الله أن يكون .

ثم إنه ذهب يومًا يحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحزم حزمته ، وفرغ منها ، فلما أراد أن يحتملها شعر ببعض التعب فاضطجع فنام ، فضرب الله على أذنه سبع سنوات نائمًا .

ثم إنه هب فتمطى فتحول لشقه الآخر فضرب الله على أذنه سبع سنوات أخرى .

ثم إنه هب واحتمل حزمته ، ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار . فجاء إلى القرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعامًا وشرابًا كما كان يصنع ، ثم إنه ذهب إلى البئر ، فى موضعها الذى كانت فيه ، يلتمسه فلم يجد صاحبه ، وقد كان بَدَا لقومه فيه بداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه . وحدث ذلك كله فى المدة التى ضرب الله فيها على أذن ذلك العبد فنام .

قال : فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ؟

فيقولون له : ما ندرى . حتى قبض الله هذا النبى ، وهب الأسود من نومته بعد ذلك .

فقال رسول الله – ﷺ – إنّ ذلك العبد الأسود لأول من يدخل الجنة[٤].

وفى مثل هذا الخبر نظر ..

فقد أخبر الله عن أصحاب الرس بأنهم هلكوا . وهذا الخبر يفيد نجاتهم . اللهم إلا إذا كان هؤلاء القوم غيروا وبدلوا بعد ذلك فأهلكهم الله .

---

(٤) تفسير الطبرى جـ ١٩ ص ١١ ، القرطبى جـ ١٨ ص ٤٧٤٩ ، قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٨١ .

أسباب أخرى لهلاك أصحاب الرس :

وذكر العلماء أسبابًا أخرى لهلاك أهل الرس غير ذلك السبب الذى بيناه ..

ومن هذه الأسباب شيوع الفاحشة فيهم ذكورًا وإناثًا .

فقد اكتفى الذكور بالذكور -كما كان يفعل قوم لوط- .

واكتفت النساء بالنساء ، فشت فيهن عادة السحاق والعياذ بالله ، والفاحشة إذا فشت فى قوم كانت سببًا لهلاكهم وحلول النقمة عليهم . مصداقًا لقوله -تعالى- : ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[5].

وذكر الدميرى فى كتابه حياة الحيوان بعض أخبار حنظلة وقومه فقال : كان أهل الرس بأرضهم جبل يقال له «فح» أو «فتح» وكان هذا الجبل صاعدًا مرتفعًا تأوى إليه الطيور ، ومن بينها العنقاء .

وكانت العنقاء تخطف الأطفال والجوارى ، فشكوا ذلك إلى نبيهم حنظلة فدعا عليها فأصابتها صاعقة فاحترقت . -ولم تر العنقاء بعد ذلك- وفى عدم ظهور العنقاء واستحالة وجودها قال الشاعر :

آمنت أن المستحيل ثلاثة ... الغول والعنقاء والخل الوفى

قال الدميرى : وذكر السهيلى -فى قوله تعالى- : ﴿وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ أن البئر هى الرس . وكانت بعدن لأمة من بقايا ثمود .. وكان لهم ملك عادل اسمه «العلس» ..

وكانت البئر تسقى المدينة كلها وباديتها وجميع ما فيها من الدواب والغنم والبقر وغير ذلك .

وكان لها بركات كثيرة عليهم ، وكان لها رجال موكلون بها ، وأوان من رخام شبه الحياض ، يستقون منها فى الليل والنهار ويتداولون ذلك ، ولم يكن لهم ماء غيرها[6]..

---

(٥) الآية ١١٧ من سورة هود .

(٦) حياة الحيوان جـ ٢ ص ٢٨٤ .

وذكر القرطبى فى تفسير هذه الآية ﴿وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ : أن البئر والقصر بحضرموت . القصر مشرف على قمة جبل لا يرتقى إليه بحال ، والبئر فى سفحه .

وأصحاب القصور ملوك الحضر ، وأصحاب الآبار ملوك البوادى .

قال : والبئر هى الرس ، كانت بعدن - بحضرموت - فى بلد يقال له « حضور » نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ونجوا من العذاب ومعهم صالح ، فمات صالح فى هذا المكان فقيل له : حضرموت .

ولما مات صالح بنوا هذه المدينة وقعدوا على هذه البئر ، وأمّروا عليهم العلس بن جلاس بن سويد . وقيل : جلهس بن جلاس . وكان حسن السيرة فيهم ، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سوادة .

رواية المسعودى :

أما المسعودى فيذكر أن حنظلة بن صفوان كان من ولد إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - .

وقد أرسل إلى أصحاب الرس وهم من ولد إسماعيل ، وكانوا قبيلتين يقال لإحداهما « أدمان » وللأخرى « يامن » .

وكانت القبيلتان باليمن ..

وحين قتل حنظلة أوحى الله إلى نبى من أنبياء بني إسرائيل من سبط يهوذا أن يأمر بختنصر بأن يسير إليهم ، فسار إليهم فأتى عليهم . فذلك قوله - تعالى - : ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾(٧).

وقد أشار القرطبى فى تفسير هذه الآية إلى هلاك مدائن كانت باليمن ، وذكر فى قوله - تعالى - : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾(٨) أنه أراد بالقرية أهل حضور قتلوا نبيًا لهم اسمه « شعيب بن ذى مهدم » وهو غير شعيب مدين صاحب موسى عليهما السلام .

---

(٧) الآية ١٢ من سورة الأنبياء .

(٨) الآية ١١ من سورة الأنبياء .

قال : وفي ذلك الوقت قتل أصحاب الرس نبيهم حنظلة بن صفوان .. وكانت حضور التي حدثت فيها الحادثتان بأرض الحجاز من ناحية الشام ، فأوحى الله إلى أرميا أن إيت بختنصر فأعلمه أني سلطته على هؤلاء واني منتقم به منهم ..

قال : وأوحى الله إلى أرميا أن احمل معد بن عدنان «جد النبي» - ﷺ - على البراق إلى أرض العراق كي لا تصيبه النقمة والبلاء معهم[9]..

قالوا : فجاء بختنصر وشن الغارات على حضور وانتقم منهم شر انتقام .

وعلى هذا فيكون هؤلاء القوم من أهل الفترة الذين كانوا فيما بين عيسى - عليه السلام - ومحمد - ﷺ - .

قال المسعودي : وقال بعضهم إن أهل الرس كانوا من حمير ، ولما هلكوا رثاهم بعض الشعراء بقوله :

بكت عيني لأهل الرس   رعويل وقدمان
وأسلم من بني زرع   نكال الحي قحطان[10]

إن مصير المكذبين بالأنبياء والرسل واحد وهو هلاكهم . وقد تختلف وسيلة الإهلاك من أمة إلى أخرى ..

نرجو الله أن ينجينا من سوء المصير ..

وقد ورد ذكر حنظلة بن صفوان في دائرة المعارف الإسلامية بما لا يضيف جديدًا إلى ما ذكرناه ..

• • •

---

(٩) تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٤٣١٣ - تفسير سورة الأنبياء - .

(١٠) مروج الذهب للمسعودي جـ ١ ص ٤٧ .

قوم تُبّع

والشيء بالشيء يذكر ، فما دمنا باليمن فلنتحدث عن قوم تُبَّع ..

وقد ورد ذكرهم في القرآن في موضعين :

قال – تعالى – : ﴿أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾[1].

وقال – تعالى – : ﴿وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد﴾[2].

قال أهل اللغة : تبع ملك اليمن ، كما يقولون : فرعون ملك مصر ، وقيصر ملك الروم ، وكسرى ملك الفرس .

والخطاب في الآية الأولى موجه إلى أهل مكة . بطريق الأسلوب الاستفهامي الإنكاري ..

وقد زعم أهل مكة أنه لا حياة بعد البعث ، وإن هي إلا الموتة الأولى ، وما هي إلا الحياة الدنيا وما يهلكهم إلا الدهر ..

وهم في هذا القول مستحقون للعذاب كغيرهم من الأمم السابقة المكذبة ، ومن بين هذه الأمم قوم تبع .

والآية الثانية أصرح في الدلالة على تكذيب قوم تبع للرسل ، وإهلاكهم بسبب ذلك .

وقال العلماء : إن الإنكار واقع على قوم تبع لا على تبع . لأن المشهور من ملوك التتابعة واحد بعينه ، فإذا قيل : تبَّع انصرف إليه ، وهو « أبو كرب »

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الدخان .

(٢) الآية ١٤ من سورة ق .

الذى كسا الكعبة، والذى ورد عنه قوله - ﷺ - : لا تسبوا تبَّعًا فإنه كان مؤمنًا[٣].

وقد نسب إليه الرواة شعرًا يدل على توحيده منه:

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله بارى النسم
فلو مد عمرى إلى عمره ... لكنت وزيرًا له وابن عم

قال القرطبى فى تفسيره: وذكر الزجاج وابن أبى الدنيا والزمخشرى وغيرهم أنهم حفروا قبرًا بصنعاء، ويقال بناحية حمير وذلك بعد ظهور الإسلام، فوجدت فيه امرأتان صحيحتان، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: هذا قبر «حُبَّى ولميس» ابنتا تبع، وهما يشهدان أن لا إله إلا الله، ولا يشركان به شيئًا، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

ما قيل عن تبع فى كتب السيرة:

روى ابن اسحاق وغيره أن تبَّعًا هذا كان قد أراد غزو مكة ونهب البيت الحرام - وقد أشرنا إلى هذه القصة فى قصة الكعبة - ولكنه عدل عن ذلك حين عرف أنه بيت الله المعظم، وحج البيت، وخر عنده ساجدًا، وعظمه وكساه.

قالوا: ثم كتب كتابًا يذكر فيه أنه مؤمن بالنبى الذى سوف يبعث فى مكة ويهاجر إلى يثرب. وكان قد أخبره بذلك أهل الكتاب من الأحبار المطلعين على حقيقة الكتاب الأول وما جاء فيه من أخبار تبشر بنبى آخر الزمان، وأن يثرب هى هجرته..

وظل هذا الكتاب محفوظًا عند أهل يثرب حتى وصل إلى أبى أيوب الأنصارى - خالد بن يزيد - وفى هذا الكتاب:

أما بعد فإنى آمنت بك وبكتابك الذى أنزل عليك وأنا على دينك وسنتك، وآمنت بربك ورب كل شيء، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام، فإن أدركتك فيها ونعمت، وإن لم أدركك فاشفع لى ولا تنسنى يوم القيامة فإنى من أمتك الأولين، وتابعك قبل مجيئك، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم - عليه السلام -.

---

(٣) تفسير القرطبى - سورة الدخان -.

وهذا الخبر الذى ذكره القرطبى يرفع من شأن تبع هذا .

وفعله في مكة ، ورؤيته في المنام عدة مرات أنه يكسو الكعبة ، وكساها فعلاً ، يدل على إيمانه .

وقد ذكر ابن عباس –رضي الله عنهما – أنه كان نبيًا ..

فإذا صح ذلك فهو من أنبياء أهل الفترة ، وليس ذلك ببعيد فإن الأنبياء لا يحصى عددهم إلا الله –جل وعلا – .

وقد ذكر ابن هشام فى سيرته أن تُبَّعًا –بعد عودته إلى اليمن من رحلته التى حج فيها البيت وطاف به وكساه – دعا أهل اليمن إلى ما دخل فيه من دين ، ولكنهم أبوا عليه ذلك ، وحاكموه إلى نار كانوا يتحاكمون إليها .

وقيل : إنهم رفضوا أن يمكنوه من الدخول إلى اليمن بعد أن فارق دينهم ودين آبائهم ..

وكانوا يزعمون أن هذه النار التى يتحاكمون إليها تأكل الظالم ، ولا تضر المظلوم ..

وقبل تبع التحاكم ..

وخرج أهل اليمن بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم ..

وخرج تبع ومعه حبران من أهل الكتاب – على حق – كان ينصحان له ويبينان له وجه الرشد ، وهما اللذان أشارا عليه بتعظيم الكعبة .. وقد خرج هذان الحبران ومعهما مصاحفهما فى أعناقهما .

وخرجت النار إليهم فأهلكت الوثنيين ، وخرج منها تبع والحبران سالمين .

عند ذلك اتبع أهل حمير ما دعا إليه تبع ، وقبلوا ما جاء به وتركوا ما كانوا يعبدونه من أوثان ، واتبعوا ما كان يدعو إليه الحبران مما جاء فى الكتب التى لم تحرف فى أيديهما[٤].

---

(٤) راجع ما جاء فى سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٤ .

وبذلك دخلت اليهودية اليمن .. وقال ابن قتيبة إن تُبَّعًا الذى حدث معه ذلك هو تبع بن حسان بن تبع بن ابى كرب ..

وابو كرب هو الذى آمن بالنبى - ﷺ - قبل مبعثه، وكتب البيتين السابقين : شهدت على أحمد أنه ..

أما تبع بن حسان هذا فقد جاء بعده بمدة طويلة وهو الذى يقال له : تبع الأصغر، وهو آخر التتابعة، وكان مهيبًا، وهو الذى غزا يثرب وأراد تخريبها، فقال له رجل من اليهود، قد أتت عليه مائتا وخمسون سنة : أيها الملك لا تقم على الغضب ولا تقبل قول الزور .. وإنك لا تستطيع أن تخرب هذه القرية، لأنها مهاجر نبى من ولد إسماعيل، يخرج من عند البيت الحرام فكف تبع عن ذلك(٥).

أما البشارة بمحمد - ﷺ - فقد أشارت إليها جميع الكتب السابقة، وعرف ذلك العلماء والأحبار، وكان اليهود فى المدينة يستنصرون باسمه فى حروبهم فينصرهم الله. قال - تعالى - : ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾(٦).

وسنصدر كتابًا خاصًا بهذه البشارات إن شاء الله - تعالى - .

كيف هلك قوم تبع ؟

والآيتان اللتان صدرنا بها هذا الحديث تشيران إلى هلاك قوم تبع.

ومن الطريف أن أهل اليمن افتخروا على أهل مكة بقوله تعالى : ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ فإن الاستفهام يوحى بأفضليتهم. وإن كانوا سواء فى الهلاك.

ولكن هلاك القوم لا يدل على هلاك تبع إذا كان مؤمنًا، وقد سبق أن رأينا أممًا هلكت وبقى الصالحون منها ونجوا مع أنبيائهم.

---

(٥) المعارف لابن قتيبة ص ٢١٣.

(٦) الآية ٨٩ من سورة البقرة.

وقد عرفنا أن تبعًا كان صالحًا ، وقال ابن عباس : كان نبيًا ، ونهى النبى - ﷺ - عن سبه[٧] فإنه كان مؤمنًا .

ولا يبعد أن يكون - بعد تبع هذا الذى آمن وآمن قومه معه - جاء تتابعة آخرون كذبوا وكذب أقوامهم ، وغيروا وبدلوا ، فاستحقوا المصير الذى أخبر الله به عنهم .

وتحدثت مصادر التاريخ عن التتابعة ، فذكرت ملوكهم ، وكان أشهرهم تبع الأول .

قيل : إنه ملك أربعمائة سنة . وقالوا : إن بلقيس ملكة سبأ قتلته[٨].

وربما كان هذا العمر مبالغًا فيه .

وقد ذكر ابن قتيبة أن تبَّعًا الأول هو تبع بن الأقرن بن شمر ، وهو الذى غزا الترك وهزمهم ، وغزا الصين ، وخلف بالتبت جيشًا عظيمًا للمرابطة ، ويقال إنه قائل هذه الأبيات المشهورة :

منع البقاء تقلب الشمس ... وطلوعها من حيث لا تمسى
وطلوعها بيضاء صافية ... وغروبها صفراء كالورس
تجرى على كبد السماء كما ... يجرى حمام الموت فى النفس
اليوم نعلم ما يجىء به ... ومضى بفصل قضائه أمس[٩]

وكان قبل تبع هذا يقرون أفريقش بن أبرهة وهو الذى فتح افريقيا وإلى اسمه تنسب ، وكان ملكه مائة وأربعًا وستين سنة .

وجاء بعد تبع الأكبر تتابعة كان أشهرهم حسان بن تبع الذى قتله أخوه عمرو بن تبع .

وكان سبب قتله أن حسانًا سار بأهل اليمن غازيًا فى أرض العرب والعجم .

---

(٧) أخرج الطبرانى فى الأوسط عن سهل بن سعد عن النبى - ﷺ - قال : « لا تسبوا تبعًا فإنه قد أسلم » . قال المنادى : وفيه أحمد بن محمد بن أبى بزة لا يعرف وبقية رجاله ثقات - الجامع الأزهر من حديث النبى الأنور جـ ٣ ص ٩٦ .

(٨) مروج الذهب للمسعودى . (٩) المعارف لابن قتيبة ص ٢١١ .

فلما كانوا بالعراق كره أهل اليمن الاستمرار في السير معه، وأرادوا الرجوع إلى بلادهم، فأغروا أخاه عمرًا – وكان معه – وقالوا له: اقتل أخاك حسان، ونحن نملكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا، فأجابهم إلى ذلك، إلا رجلاً واحدًا اسمه ذو رعين الحميرى. نهاه عن ذلك، فلم يقبل منه.

فعمد ذو رعين إلى بيتين من الشعر أنشأهما وكتبهما، وضمنهما رقعة أودعها عند عمرو بعد أن ختمها، وطلب منه أن يحتفظ بها. وهذان البيتان هما:

ألا من يشترى سهرًا بنوم ... سعيد من يبيت قرير عين
فأما حمير غدرت وخانت ... فمعذرة الإله لذى رعين

ومرت الأيام بعد أن قتل عمرو حسانًا، وضاقت عليه نفسه، وامتنع النوم عليه، واستشار الأطباء والمنجمين، فقالوا له: ما قتل أخ أخاه بغيًا إلا أصابه ما أصابك.

فأقبل عمرو على كل من أشار عليه بقتل أخيه يقتله.

حتى جاء دور ذى رعين فهم بقتله، فقال له ذو رعين: إن لى عندك براءة.

قال عمرو: وما هى؟

قال: الكتاب الذى دفعته إليك.

فأخرجه عمرو فقرأه، فعلم أنه قد نصحه. فتركه[١٠].

ولكن قتل عمرو من أشاروا عليه بقتل أخيه لم يفده شيئًا، فقد ظل ضيق الصدر مهمومًا حتى هلك..

وجاء بعده تبع ابنه، قال ابن قتيبة: وهو الذى كسا الكعبة وقال فى ذلك:

وكسونا البيت الذى حرم الله ملاء معضدًا وبرودًا.

وهو الذى أدخل اليهودية اليمن. ودام ملكه ثمانية وسبعين عامًا.

---

(١٠) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٦، والمعارف لابن قتيبة ص ٢١٢.

وتعاقب بعده ملوك، كان منهم ملك ليس من أبناء الملوك، اسمه «ذو شنائر» وكان سيئ السيرة سيئ الأخلاق.

فوثب عليه «ذو نواس» وهو من أبناء التتابعة الأول.. فقتله شر قتلة، وجلس مكان آبائه..

وهو صاحب الأخدود.. ولعل حادث الأخدود هو السبب المشار إليه فى هلاك قوم تبع..

قصة الأخدود:

وقد ورد ذكر هذه القصة فى قوله - تعالى -:

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ ﴾[11].

كان ذو نواس هذا مقيمًا على اليهودية، وكانت المسيحية قد بدأت تظهر فى اليمن وتتفشى. وكانت اليهودية تغيرت وتبدلت، وجاءت المسيحية فى أعقابها.

وآمن بهذا الدين غلام اسمه عبد الله بن تامر، وأراد الملك أن يفتنه عن دينه فلم يستطع، وتبع هذا الغلام خلق كثير.

فشق ذو نواس لهم أخدودًا فى الأرض، وجمع فيه حطبًا كثيرًا، أشعلت فيه النار، وعرض أهل مملكته على النار فمن رجع عن التوحيد تركه، ومن ثبت على دينه قذفه فيها.

ويقال: إنه قتل بالنار وغيرها عددًا كبيرًا، قدره بعضهم بعشرين ألفًا بين قتيل بالسيف وحريق بالنار. وقال وهب بن منبه: كانوا اثنى عشر ألفًا. وقال غيره: هم أكثر من ذلك بكثير بلغوا سبعين ألفًا..

---

(١١) الآيات ٤ : ١٠ من سورة البروج.

وقد انتقم الله لهؤلاء القوم الذين استشهدوا من الذين فتنوهم عن دينهم وكذبوا دعوة الرسل ..

لقد بغي ذو نواس في فعله هذا ، ويقال إنه لم يقتصر علي ما كان عليه من دين ورثه عن آبائه ، بل ادعى الألوهية حتى أجبر قومه على عبادته فكان بذلك فرعون اليمن ..

وكان هلاك ذى نواس ومن أعانه على فعله على يد الأحباش الذين اجتاحوا اليمن واستعمروها وأذلوا أهلها ..

وبذلك هلك قوم تبع بتكذيبهم دعوة الحق . كما هلك من كذب قبلهم من الأمم والقرون .

قال ابن قتيبة : كان هلاك ذى نواس بالغرق ، فقد اجتاحته ومن معه جحافل الحبشة حتى ألجئوه إلى البحر فقذف بنفسه فيه فغرق ..

وكانت عاقبته كعاقبة فرعون الذى سبقه فى ادعاء الألوهية ..

● ● ●

قصة موسى

عليه السلام

- بنو إسرائيل فى مصر.
- طغيان فرعون وتسخيره لبنى إسرائيل وقتل أولادهم.
- ولادة موسى وخوف أمه عليه.
- إلقاؤه فى اليم.
- موسى الرضيع فى بيت فرعون.
- قتل القبطى وفراره إلى مدين.
- موسى فى بيت شعيب.
- عودته إلى مصر وتكليم الله إياه.
- إبلاغه دعوة الله إلى فرعون وتحدى فرعون له.
- إيمان السحرة.
- آيات أيد الله بها موسى.
- خروج موسى ببنى إسرائيل وهلاك فرعون غرقا.
- موسى وقومه فى سيناء.
- موسى يواجه المتاعب من قومه.
- رفضهم دخول الأرض المقدسة.
- فرض التيه عليهم.
- مناجاة موسى لربه وطلبه الرؤية.
- قومه يعبدون العجل.
- نتق الجبل فوقهم.
- موسى والخضر.
- قصة قارون.
- قصة هارون.
- وفاة موسى.

بنو إسرائيل فى مصر :

بعد وفاة يعقوب – عليه السلام – رجع أولاده إلى مصر يعيشون فيها وينعمون بخيراتها ..

وكانوا فى حياة يوسف – عليه السلام – موضع رعاية وعناية ..

وهم – كما علمنا – اثنا عشر ولدًا ، وكانوا قد جاءوا إلى مصر بأولادهم ، وقد أصبح لكل من هؤلاء ذرية ، وما زالوا يتكاثرون حتى أصبحوا شعبًا كبيرًا .

وبمرور الوقت أصبح المصريون ينظرون إليهم على أنهم غرباء عنهم ، أقبلوا من بلاد أخرى يزاحمونهم فى أرزاقهم ويقاسمونهم فى معايشهم .

ولم يعترف هؤلاء الإسرائيليون بتلك الحقيقة ، ولكنهم كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم من طينة أخرى ، ومن سلالة مميزة ، يفترض على الآخرين احترامها وتقديرها ، فلم يكونوا يسمحون لأنفسهم بممارسة النشاط الذى يقوم به المصريون ، وعزلوا أنفسهم فى إقليم يعيشون فيه بعيدًا عن مخالطة المصريين ، هو إقليم جاسان – بالسين أو بالشين – فى شمال بلبيس ، ومن بلاده سفط الحنة الآن ونواحى الصالحية[1] .

وقد نسى المصريون فى حياة يوسف ذلك نظرًا لما كانوا يرونه من حسن معاملته وسمو أخلاقه ، ولكن حين مات تذكروا هذه الوقائع ، ونظروا إلى الإسرائيليين الذين كانت تقدم لهم الميرة مجانًا دون أن يدفعوا لها ثمنًا وهم دفعوا فى سبيلها الكثير من التعب والمال .. نسى المصريون فضل يوسف ونظروا إلى أهله وذريتهم نظرة غضب وحقد ..

ولم يكن الإسرائيليون فى إقامتهم فوق مستوى الشبهات ، ولكن حدث منهم بعد موت آبائهم وأجدادهم من التصرفات السيئة والسلوكيات العوجاء ما أثار الغيظ والموجدة .

---

(١) قصص الأنبياء للنجار ص ١٨٥ .

قال ابن عباس -رضى الله عنه-: إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وفعلوا المعاصى، فسلط الله عليهم القبط وساموهم سوء العذاب(٢).

كان رد الفعل مضاعفًا .. أساء الإسرائيليون أولاً فرد عليهم المصريون ثانيًا ..

لم يحفظوا فى أنفسهم شرف نسبهم، ولم يرتفعوا إلى مستوى الانتساب إلى شجرة النبوة التى تفرض عليهم القدوة الطيبة والأسوة الحسنة، بل كانوا مثالاً سيئًا تنفر منه النفوس الشريفة والأذواق السليمة ..

فأقبل المصريون على الإسرائيليين يسخروتهم. ويفرضون عليهم القيام بأعمال شاقة بعد أن رأوا منهم السلبية والامتناع عن المشاركة فيما يهم البلاد من أمور ..

وقد بالغ الفراعنة فى هذا التسخير، وضاعف منه ما سمعوه من الكهنة من أن الإسرائيليين ينتج من بينهم غلام يكون سببًا فى هلاكهم وهلاك قومهم.

وقد ذكر القرآن الكريم طرفًا من التعذيب الذى تعرض له بنو إسرائيل على يد آل فرعون لعلهم يتذكرون نعمة الله بتخليصهم من ذلك العذاب قال -تعالى-:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ ﴾(٣).

لقد كان تعذيب بنى إسرائيل فى مصر نتيجة عوامل متعددة يمكن تلخيصها فى: تعاليهم الشديد على المصريين، وبغيهم وطغيانهم، وطباعهم الشاذة، ونسيانهم المعروف الذى يسدى إليهم، وجحودهم النعمة التى من الله بها عليهم بالإضافة إلى ظلم فراعنة مصر وقسوتهم عليهم.

---

(٢) تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٤٩٦٧ -سورة القصص- ط. دار الشعب.

(٣) الآية ٦ من سورة إبراهيم.

وقد لازمتهم هذه الطباع حتى بعد خروجهم من مصر .. وكان موسى – عليه السلام – لا يكف عن تقريعهم، ولا يتوانى عن تذكيرهم بوجوب شكر النعم التي كانوا يجحدونها فور تلقيهم لها.

وسيأتى فى أثناء القصة تفصيل لذلك إن شاء الله – تعالى – .

ولادة موسى :

يعد موسى – عليه السلام – من أكثر الأنبياء ذكرًا فى القرآن الكريم . فقد ذكر مائة وستًا وثلاثين مرة ، فى سور كثيرة .

ووردت قصته بأساليب متعددة مفصلة وموجزة فى سور متعددة ، فى البقرة والمائدة والأعراف ويونس وإبراهيم والكهف وطه والشعراء والنمل والقصص وغافر وغيرها من السور .

وسبب ذلك الإكثار – كما يقول العلماء – : « أن قصته أشبه قصص الرسل – عليهم السلام – بقصة سيدنا محمد – ﷺ – من حيث انه أوتي شريعة دينية دنيوية ، وكوَّن الله به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية »[٤].

ومعنى « موسى » المنقذ من الماء . روى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال : إنما سمى موسى لأنه ألقى بين الماء والشجر ، فالماء بالقبطية « مو » والشجر « سى » .

وأبوه هو « عمران » وبلغة أهل الكتاب « عَمرام » بفتح العين ، وهو ابن قاهت بن لاوى بن يعقوب – عليه السلام – .

وكان أبوه عمران قد تزوج من عمته « يوكابد » بنت لاوى ، وكان ذلك جائزًا عندهم ، حتى أبطله موسى بعد ذلك .

وولدت له موسى وأخاه هارون[٥].

---

(٤) تفسير المنار جـ ٩ ص ٣٤ .

(٥) قصص الأنبياء للنجار . وفى سفر الخروج الإصحاح الثانى من العهد القديم آية ٢٠ ما يفيد ذلك .

وقال القرطبي – رحمه الله – : اسم أم موسى «لوحا بنت هاند بن لاوى ابن يعقوب» وعلى ذلك فهي ابنة عم والده[6].

وقد وُلد موسى في ظروف عصيبة فقد كان الكهنة المصريون تكهنوا لفرعون بأنه سيولد للعبرانيين غلام يكون سببًا في هلاكه وهلاك قومه، فأصدر أمره بقتل كل ذكر يولد للعبرانيين.

قال الرواة : – عن وهب بن منبه – : بلغني أن فرعون ذبح في طلب موسى سبعين ألف وليد، ويقال : تسعين ألفًا[7].

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في مواضع متعددة. نذكر منها على سبيل المثال قوله – تعالى – :

﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾[8].

لقد غالى فرعون في عدائه لبني إسرائيل، وربما تحولت عداوته لهم إلى عداوة شخصية، بعد أن كانت عداوة قومية في بادىء الأمر. والعداوة الشخصية يصحبها بطش وقهر وإذلال. وكأنه قد عزَّ عليه أن يوجد في مملكته من لا يدين به كرب أو يعبده كإله.. كان الإسرائيليون على الرغم من خروجهم على تعاليم آبائهم لا يقر كثير منهم الوثنية، وإن كانت قد سرت إليهم من مجاورتهم للمصريين روح منها، ظهرت في طلبهم من موسى فور عبورهم البحر أن يجعل لهم إلهًا كهذا الإله الذي يعبده القوم الذين يعكفون على أصنام لهم. وسيأتي حديث عن ذلك إن شاء الله – تعالى –.

وفي أثناء هذه الظروف العصيبة التي مر بها بنو إسرائيل، والتي كانت فيها عيون فرعون تجوس خلال ديارهم تتبع الحوامل والمرضعات، لتعرف من وُلد وتراقب من ستَلِد، كانت «يوكابد» قد وضعت وليدها «موسى» وخبأته عن العيون، وعفَّى الله على خبره، فلم يلحظه أحد من المراقبين، ولم يسمع به أحد من المتتبعين.

---

(٦) تفسير سورة القصص للقرطبي ص ٤٩٦٦ ط. دار الشعب.

(٧) تفسير القرطبي ص ٤٩٦٧.

(٨) الآية ٤ من سورة القصص.

ويروى انه حين جاءها المخاض، وكانت بعض القوابل الموكلات بالحوامل من الإسرائيليات مصافية لأم موسى. فقالت لها: لينفعنى حبك اليوم، فعالجتها، فلما وقع الوليد على الأرض هالها نورٌ بين عينيه، وارتعش كل مفصل منها، ودخل حبُه فى قلبها، فقالت لأم موسى:

ما جئتك إلا لأقتل طفلك، وأخبر فرعون، ولكنى وجدت لابنك هذا حبًا ما وجدته لأحد قبله. فاحفظيه.

فلما خرجت من عندها جاء عيون فرعون، فلفته فى خرقة ووضعته فى تنور مسجور، لأن عقلها كان قد ذهل من خوفها عليه فلم تدر ما صنعت. فتطلعوا فلم يجدوا شيئًا فخرجوا، وهى لا تدرى مكانه حتى سمعت بكاءه من التنور، وقد جعل الله عليه النار بردًا وسلامًا(٩).

وظلت أم موسى ترضع طفلها لمدة ثلاثة أشهر.

ولم تستطع أن تخفيه أكثر من ذلك. فخافت عليه، وتحيرت ماذا تصنع لتحفظ ابنها من القتل.

وكان الله قد أوحى إليها قبل ذلك، وحى إلهام أو وحى منام، أو عن طريق الإخبار بأى واسطة شاءتها القدرة الإلهية، ولو عن طريق ملك من الملائكة، والملائكة قد يكلمون البشر من غير الأنبياء إذا أراد الله، وليس مقتضى ذلك أن يكون المكلَّم نبيًا، فقد كلم الملائكة كثيرًا من صحابة رسول الله - ﷺ - دون أن يكونوا أنبياء.

أوحى الله إلى أم موسى بما أخبر به القرآن الكريم:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾(١٠).

---

(٩) تفسير القرطبى ص ٤٩٦٧.

(١٠) الآيات ٧ : ٩ من سورة القصص.

ولنا أن نتأمل الآية الأولى التى استرعت بلاغتها إحدى فصيحات العرب فقالت: ما أفصح هذا الكلام، لقد جمعت آية واحدة بين خبرين وأمرين ونهيين وبشارتين. فبلغت بذلك الغاية فى الدقة والايجاز.

وقد روى ذلك الأصمعى حين سمع تلك الفتاة تنشد أبياتًا من الشعر فأعجبته فصاحتها فقال لها: ما أفصحك. فقالت: أو بعد فصاحة الله فصاحة؟ ونكرت العبارة المتقدمة[11].

وصنعت أم موسى ما أُخبِرت به وما طُلِب منها.

صنعت تابوتًا من ورق البردى، وقيَّرته بالقار من داخله.

ووضعت ولدها فى التابوت، وألقته فى النهر..

وحملت الأمواج التابوت وسارت به، وقلب أم موسى يتبعه في خوف وهلع.

ولا يبعد أن تكون الهواجس قد فعلت فعلها فى نفسها، وجعلتها تتوهم أنها أخطأت التصرف، فلو أنها أبقته أمام عينها فقتل أمامها لأمكنها أن تعرف مصيره.

أما الآن فمصيره مجهول لا تدرى عنه شيئًا.

إن هذه الهواجس التى راودتها وغالبتها فى يقين وقوة، عبر عنها القرآن أجمل تعبير حين قال فى شأنها: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها﴾.

التابوت فى بيت فرعون:

وسار التابوت فى طريقه إلى حيث لا تعلم أم موسى، حتى ألقته الأمواج أمام قصر فرعون..

ولا يبعد أن تكون زوجة فرعون وهى «أسيا بنت مزاحم» تتطلع من شرفة قصرها على شاطىء النهر، فاسترعى انتباهها هذا الصندوق الذى يتأرجح

---

(١١) تفسير القرطبى – سورة القصص –.

من الأمواج على صفحة النهر ، فأمرت من يسوقه إلى الشاطىء ويحمله إلى القصر .

وفتحت أسيا الصندوق ، وهى امرأة مؤمنة ، أخبر الله عنها بأنها من أهل الجنة حين قال : ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين﴾[١٢].

فرأت فى الصندوق صبيًا جميل الطلعة ، يعلوه البهاء والنور ، يبتسم لها فى براءة وطهر ، فانطبع حبه فى قلبها فورًا ..

وأخرجته من الصندوق ، وضمته فى حنان إلى صدرها ، وقبلته فى عطف وشغف ..

إنها مؤمنة ، ومن خصائص الإيمان الرحمة ، وأحق الناس بالرحمة هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين لم يرتكبوا إثمًا ولم يصنعوا جرمًا .

والإيمان يؤلف بين قلوب المؤمنين ، فليس من المستحيل أن تعقد صلة مبهمة قوية بينها وبين هذا الطفل ، قد يفسرها البعض بالأمومة أو الانسانية وقد يفسرها البعض بعاطفة الإيمان التى تلتقى فى ظلها الأرواح المجندة التى ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

ولابد أن يكون الخبر قد وصل إلى مسامع فرعون ، فأقبل على عجل ، ورأى الطفل بين يدى زوجته ، فأمر بقتله .

فأسرعت الزوجة قائلة لفرعون : قرة عين لى ولك . لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا ..

لقد أحسنت فى تقديمها بعبارة قرة عين لى ولك .. وكأنها استأنست بها فى نهيها عن قتله .. إذ كيف يقتل الإنسان ما يتوقع أن يجد فى رؤيته قرة عينه ؟ وهذا من بلاغة القرآن .

---

(١٢) الآية ١١ من سورة التحريم .

ورق فرعون لكلام زوجته، ووجد فيه منطقًا سليمًا .. فهي محرومة من الولد . وهو له ابنة - أشارت إليها التوراة - وهي من أم غير آسيا . وقد يكون له ولد ذكر من غيرها أيضًا . فليس هناك ولد مشترك بينهما .

وقبل رجاء زوجته، وكان يحبها، ولأن الله أراد أن تتم كلمته فقد جعله يستجيب لها، ويمسك عن قتل الطفل .

وبقى الطفل فى قلب القصر الذى جند قوته كلها لقتله . فهل هناك قدرة أعظم من هذه القدرة؟ وهل هناك معجزة أكبر من هذه المعجزة؟ .

وهكذا أراد الله أن ينشأ موسى على الرغم من فرعون تحت سمعه وبصره، ليعلم كل جبار فى الأرض أن الله إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون . وأن قدرته لا يعجزها شيء، وحكمته لا يحيط بها علم .

لقد وضع الله فى قلب فرعون - رغمًا عنه - حب هذا الطفل الذى رصد جنوده للتخلص منه، وهو لا يعلم أن هذا الطفل الذى أوصلته الأقدار إلى شاطيء قصره هو ذلك الطفل الذى أخبره المنجمون عنه بأنه سيكون سببًا فى هلاكه وذهاب ملكه .

وهذا هو ما يشير إليه قوله - تعالى - : ﴿ وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ﴾[١٣].

أخت موسى تتقصى خبره :

ولم يهدأ لأم موسى بال، وأخذت الخواطر المتعارضة تراودها، ما بين استئناس بالخبر الذى قال لها: لا تخافى ولا تحزنى .. وبين ما صنعته بيديها حين ألقت طفلها في اليم . وأني تعرف أن التيار لم يجرفه، والأمواج لم تغرقه؟

لم يعد فى قلبها - كما أخبر القرآن الكريم - شغل إلا موسى، حتى لقد همت أكثر من مرة أن تصيح عليه، ولو صاحت لافتضح أمرها، وعُرِف طريق

---

(١٣) الآية ٣٩ من سورة طه .

ابنها ، ولأدرك فرعون أن هذا الطفل الذى فى بيته عبرانى ، فلا يتردد حينئذ فى قتله ولا يصيخ إلى التوسلات فى رحمته .

إنه الآن على شك من أمره ، فقد يكون من أبناء القبط ، أو من أرض أخرى غير أرض بنى إسرائيل .

وطلبت أم موسى من ابنتها ، وكان اسمها مريم أو كلثوم . أن تتبع أثره وتتقصى خبره ، فما زالت الفتاة تتطلب ذلك حتى دخلت قصر فرعون ، ورأت الطفل ، ولكنها لم تصرح بأنها تعرفه .

وكان الطفل قد أعرض عن المراضع ، فلم يقبل ثدى أى امرأة استدعتها زوجة فرعون لإرضاعه .

وظل الطفل يصرخ من الجوع حتى أثار الإشفاق ، فتدخلت أخته قائلة : أنا أدلكم على امرأة مرضع لعله يقبل ثديها .

فقالوا لها : من هذه المرضع ؟

قالت : أمي .

فقالوا لها : ألها لبن ؟

قالت : نعم ، لبن أخي هارون .

وكان هارون أكبر من موسى بسنة أو أكثر . ولد قبل أن يصدر فرعون أوامره بقتل أولاد بني إسرائيل الذكور الذين يولدون قبل العام الذى أخبره المنجموه أن الطفل الموعود سيولد فيه .

وجاءت أم موسى إلى قصر فرعون لتعيش فيه ، وتكفل ابنها ، وتربيه فى حجرها ، وتنعم معه في ظل هذا القصر الوارف الظلال .

وما زال موسى يتقلب فى النعمة حتى أيفع ، وأورثه الله الحكمة وعلمه من لدنه علمًا وحكمة .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الأحداث بقوله – تعالى – :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[١٤].

ولم يتعرض العهد القديم إلى ذكر زوجة فرعون. ولكنه يذكر أن التي عثرت على صندوق موسى هي ابنة فرعون وليست زوجته، وأنها هي التي رقت له وطلبت استبقاءه[١٥].

موسى ربيب فرعون:

وتربى موسى – عليه السلام – في بيت فرعون على الرغم منه.

وكان فرعون يداعبه كثيرًا. وفي يوم وضعه في حجره فأقبل موسى على لحية فرعون فجذبه منها في عنف. فاغتاظ فرعون وهم بقتله.

فأقبلت امرأة فرعون تدفع عن الطفل وتقول له: إنه لا يعقل. وجاءت أمام الطفل بطبق فيه درة وجمرة، وقالت لفرعون: إنه لا يفرق بينهما.

ومد الطفل يده ليلتقط الدرة، فحولها جبريل إلى الجمرة.

فالتقطها ودفعها فورًا إلى فمه – جريًا على عادة الأطفال حين يضعون كل شيء يلتقطونه بأيديهم في أفواههم – فاحترقت يده، واحترق لسانه..

فحين مد الطفل يده إلى الجمرة، ضحك فرعون وسكت.

وعولج الطفل، ولكنه ظل يعاني بعد شفائه من لثغة لازمته طول حياته حتى استجاب الله لدعائه حين قال مخاطبًا ربه في أثناء تلقي الرسالة: ﴿واحلل عقدة من لساني. يفقهوا قولي﴾[١٦]. فحلت تلك العقدة.

ولعل احتراق يد الطفل ولسانه كان من الأسباب التي زادت من عطف فرعون على موسى وإقباله عليه.

---

(١٤) الآيات ١٠ : ١٤ من سورة القصص.

(١٥) سفر الخروج – الاصحاح الثاني –.

(١٦) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة طه.

ونشأ موسى، وقد عرف الجميع أنه ينتمي إلى فرعون لا نسبًا ولكن تربية. فأصبح له ما للأمراء من منزلة.. ولا يبعد أن يكون قد عرف أصله، ولكن فرعون غض النظر عنه بعد أن أمن إليه.

واستعمل موسى نفوذه في الدفاع عن العبرانيين وكف الأذى عنهم.

ولكنه بما أتاه الله من حكمة وعلم أخذ يعيب ما يراه من وثنية. وينتقد علنًا إقبال المصريين على تأليه فرعون..

ونما علم ذلك إلى فرعون فغضب عليه وطلب منه الابتعاد عن قصره. فرحل عنه وأقام مع العبرانيين الذين هو منهم.

وأقبل يومًا إلى مدينة فرعون «منف» على حين غفلة من أهلها.. فوجد فيها رجلين يتنازعان أحدهما عبراني والآخر قبطي..

كان القبطي يحاول تسخير العبرى في أمر فرفض، وأراد أن يجبره في الوقت الذى رأى فيه موسى. فاستنجد به، فذهب موسى إلى القبطي يمنعه من البطش بالعبراني، ودفعه بعيدًا عنه دفعة قوية أودت بحياته.

فلما رأى موسى ذلك أنكر من نفسه ما حدث. وقال: هذا من عمل الشيطان. ثم أقبل على ربه مستغفرًا إياه قائلاً: رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي.

وقبل الله توبته على الفور وغفر له ذنبه.

لقد ندم موسى على فعلته ونسب ذلك إلى الشيطان. والندم توبة.. وما أحسن أن يستغفر الإنسان ربه فور شعوره بارتكاب ذنب من الذنوب.

ولا شك في أن ذلك كان قبل نبوة موسى. بل لقد قدر بعضهم سنه في ذلك الوقت بأنها كانت اثنتي عشرة سنة.

وعقد موسى مع توبته عزمًا على ألا يظاهر بقوته مجرمًا، بل ينبغي أن تكون قوته في خدمة الحق ونصرة المظلوم.

والعزم الصادق من شرائط التوبة النصوح..

وجوب الابتعاد عن مناصرة الظلمة :

إن عزم موسى هذا يضع أمام أنظارنا منهجًا يجب اتباعه، وهو عدم مساعدة الظلمة أو المشى فى ركابهم، امتثالاً لأمر النبى - ﷺ - : « ينادى منادٍ يوم القيامة : أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة؟ حتى من أحضر لهم دواة أو برى لهم قلمًا، فيجمعون فى تابوت من حديد فيرمى به فى جهنم »[17].

وعلم القبط بأمر القتل، وأخبروا فرعون بأنه لابد أن يكون قاتله عبرانيًا، فطلب منهم أن يبحثوا عن قاتله ليقتصوا منه دون جدوى.

وفي اليوم التالى، جاء موسى إلى المدينة، وهو يخشى أن يكون أمره قد افتضح، وأن المصريين شعروا بأنه القاتل. فكان يسير في خوف وترقب.

وبينما هو كذلك إذا بالإسرائيلى الذى استنصر به بالأمس يستغيث به مرة أخرى لينصره على مصرى آخر..

واستحضر موسى نفسه حادث الأمس وأدرك أن هذا الإسرائيلى سبب بلائه وارتكاب جريمته التى ارتكبها..

قال بعض المفسرين : إن المصرى الذى أراد تسخير الإسرائيلى كان طباخ فرعون، وقد أراد أن يحمل له الإسرائيلى حطبًا إلى مطبخه فأبى.

ويدلنا ذلك على أن الإسرائيليين كانوا قد ضاقوا ذرعًا بالسخرة التى فرضها الفراعنة عليهم، والتى بلغت حدًا لا ينبغى السكوت عليه.

وقد يدلنا ذلك على أن هذا الإسرائيلى كان متمردًا بطبعه. فقد حدثت منه معارضة لما طلب منه في يومين متتاليين، واستغاث بموسى فى اليوم التالى على غريمه وهو يعرف قوة موسى وبطشه بخصومه..

ولذلك قال له موسى : ما أشد إغواءك وأكثر إيذاءك..

ولوح موسى بيده نحو المصرى مهددًا فاتجهت نحو الإسرائيلى، فظن الإسرائيلى أنه سيقتله. فصاح قائلاً : أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسًا بالأمس؟

---

(١٧) تفسير القرطبى - القصص - ص ٤٩٧٩.

وانكشف المستور، وادرك المصرى أن موسى هو صاحب قتيل الأمس، فأسرع يخبر فرعون بذلك.

وينكر العهد القديم أن الرجلين اللذين اقتتلا فى اليوم التالى كانا عبرانيين، وليس أحدهما قبطيًا والآخر عبرانيًا. وأن موسى قال للمذنب منهما: لماذا تضرب صاحبك؟ فقال له: من جعلك رئيسًا وقاضيًا علينا؟ أتريد ان تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟ فخاف موسى حقًا، فقد عرف الأمر، وسمع فرعون بذلك فطلب أن يقتل موسى[١٨]. وقيل: إن القائل لموسى أتريد أن تقتلني هو القبطي وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلي وهذا هو الظاهر.
أصدر فرعون أمره بقتل موسى.

وجاء رجل من أقصى المدينة مسرعًا إلى موسى يحذره من القوم، ويأمره بمغادرة المدينة على الفور، بل بمغادرة مصر بأسرها إذا امكن، لأن يد فرعون في كل مكان فيها، ومهما اختبأ فلابد أن تراه العيون.

فاستمع موسى إلى نصيحته، وخرج على خوف ووجل ان يدركه احد أو يعرفه فيخبر فرعون بأمره، واعجله ذلك عن أن يتخذ اهبته للسفر من زاد وراحلة..
وقد قصت الآيات التالية علينا هذه الأحداث:

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ

---

(١٨) العهد القديم، الإصحاح الثاني من سفر الخروج.

ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[19]

وكانت هذه الحادثة إحدى الفتن التى تعرض لها موسى ونجاه الله منها، وذكرها الحق - سبحانه - فى معرض المنة على موسى حين قال له: ﴿فنجيناك من الغم وفتناك فتونا﴾[20] والتى كان لها أثر فى إنضاجه وإصلاحه للرسالة، حيث عدلت من سلوكه وغيرت من اتجاهه، وجعلته لا يتسرع فى استعمال قوته، ولا يندفع فى البطش بمن يراه ظالمًا، وأن يقدم له النصح، ويحاول أن يعدل من سلوكه بدلاً من أن يتخلص منه.

موسى فى مدين:

خرج موسى من مصر متجهًا إلى الشرق، مخترقًا شبه جزيرة سيناء فى طريقه للذهاب إلى مدين. وقد عرفنا مكانها فى قصة شعيب - وذلك بعد أن حذره رجل جاء إليه يسعى من أقصى المدينة.

ولعل هذا الرجل هو الذى أخبر عنه القرآن فيما بعد بأنه مؤمن آل فرعون. وقد اختلف العلماء فى اسمه، فقال كثير منهم: إنه «حزقيل بن صبورا» آمن بموسى بعد أن أرسل.

لقد كانت فى نفسه بوادر الإيمان، فإن الله يهدى لنوره من يشاء، وكثير من العقلاء يهولهم البغى ويحملهم شيوع الباطل على التدبير والتفكر حتى يفطنوا إلى الحق. وهذا شائع فى كل زمان ومكان.

وقد كان قبل بعثة النبى - ﷺ - متحنفون نأوا بأنفسهم عن عبادة الأصنام، وأدركوا ضلال قومهم وسفه آرائهم.

فهذا الرجل من آل فرعون من أولئك النفر الذين يمن الله عليهم بنعمة الهداية ويجعلهم من أتباع الرسل بعد بعثتهم.

---

(19) الآيات ١٥ : ٢١ من سورة القصص.

(20) الآية ٤٠ من سورة طه.

وقد عز عليه أن يقتل رجل يستنكر ما يستنكره، وتثور فى نفسه الفضيلة التى يعز وجودها فى زمانه..

وأسرع هذا الرجل - كما عرفنا - يحذر موسى من التآمر عليه..

وكان تحذيره هذا سببًا فى نجاة موسى..

لماذا اختار مدين؟

ولعل موسى اختار مدين بالذات لأنه عرف بُعدها عن يد فرعون..

ولعله لحظ القرابة التى تربطه بأهل مدين، وقد عرفنا أن مدين هو ابن إبراهيم، فأولاده من سلالته يعيشون في هذه المنطقة، وهم أبناء عمومة مع موسى.

وخرج موسى بدون زاد أو راحلة، وكان عقده التوكل على الله..

التجأ إليه وهو يقول: عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل.

ومن كان عقده التوكل على الله كفاه الله همه، وأذهب حزنه وغمه، وييسر له أمره وشرح له صدره ورزقه من حيث لا يحتسب.

والتوكل ديدن الأنبياء، وعلى لسانهم قال - الله تعالى -: ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾[٢١].

وقال تعالى داعيًا إلى التوكل: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرًا﴾[٢٢].

قال العلماء: إن الله بعث لموسى ملكًا هداه إلى الطريق، وقال بعضهم: إن هذا الملك هو جبريل - عليه السلام -.

وقطع المسافة بين مصر ومدين فى ثمانية أيام..

كانت رحلة شاقة لموسى، ولكنها النبوة وتكاليفها الشديدة، إن الإعداد لها يتطلب الصبر والمشقة.

---

(٢١) الآية ١٢ من سورة إبراهيم.

(٢٢) الآية ٣ من سورة الطلاق.

والقى موسى عصا التسيار عند مشارف المدينة .. وهناك بئر يزدحم حوله الوراد .

ورأى من بين الجموع فتاتين تقفان بمنأى عن الناس ، تذودان عن غنم لهما ، وتنتظران فراغ القوم من سقى أغنامهم .

وأقبل موسى على الفتاتين يسألهما : ما شأنكما ؟

فأجابت إحدى الفتاتين والثانية تصدقها : نحن لا نستطيع أن نسقى أغنامنا حتى ينتهى القوم من سقى أغنامهم ، فالغلبة هنا للأقوى ، وأبونا شيخ كبير لا يستطيع مغالبة هؤلاء القوم .

فى كلمات قليلة أجابت الفتاتان ، ولكنها كانت كلمات كافية أمام فطنة موسى ليدرك من ورائها حال هذا البيت الذى تعيش فيه هاتان الفتاتان .

وتحركت فى نفسه نخوة أولى العزم ومروءة أهل التقوى ، وتذكر ما عاهد الله عليه أن يجعل قوته فى نصرة المظلوم ونجدة الضعيف المهضوم .

وكأن مشقة الطريق وشدة الجوع من طول السفر قد ذهبت أدراج الرياح ، فلم يشعر بما عاناه فى رحلته ، نسيه فى لحظة واحدة . واستعاد ما أعطاه الله من قوة ، وأقبل على البئر ليرفع من فوقها حجرًا ضخمًا يعجز الأشداء عن حمله ، ويخلى وجه البئر أمام الواردين ، ويتناول الدلو بذراع فتية وينزع من الماء إلى الحوض لترتوى أغنام الفتاتين .. حتى فرغ من شأنهما .

ثم تركهما لحالهما ، واتجه إلى ظل شجرة يستريح ، ويرفع أكف الضراعة إلى الله ، يطلب معونته ويستغيث برحمته قائلاً : رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير .

وسرعان ما استجاب الله له ، قبل دعاءه وحقق رجاءه .

وأقبلت إحدى الفتاتين مسرعة تسير على استحياء ، تدعوه للقاء والدها ، فقد أبلغت الفتاتان أباهما بما حدث ، وكأنه قد تعجب من عودتهما مبكرين على غير العادة ..

وقام موسى على أثر الفتاة التى مضت أمامه لتعرفه طريق البيت .

وجد الريح تضرب ثوبها فتظهر ساقها، فقال لها: سيرى ورائى وأرشدينى بقولك إلى الطريق. قولى لى: اتجه يمينًا أو يسارًا، أو امض أمامك.

وهكذا.. فعلت الفتاة وسار بإرشادها حتى وصل إلى البيت..

وقَدَّم الشيخ أبو الفتاة وهو شعيب النبى – عليه السلام – لموسى طعامًا.

وكره موسى أن يتناول الطعام خشية أن يكون ذلك مكافأة له على صنعه مع فتاتيه، وهو لا يبتغى على المعروف أجرًا..

ولكن الشيخ طمأنه إلى أن هذه عادته مع ضيفه.

وتناول موسى الطعام الذى قدم إليه شاكرًا الله على نعمته.

ثم قص موسى على الشيخ خبره.. فطمأنه الشيخ قائلاً: لا تخف نجوت من القوم الظالمين.

بين سليمان بن عبد الملك وأبى حازم الزاهد:

وهنا قصة ذكرها القرطبى فى تفسيره نذكرها للعبرة والعظة والذكرى تنفع المؤمنين.

قال: روى الدارمى بسنده قال: مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة، فأقام بها أيامًا. فقال: هل بالمدينة أحد أدرك أحدًا من أصحاب النبى – ﷺ – ؟

قالوا له: أبو حازم، فأرسل إليه.

ثم دار بينهما حوار جاء فيه:

قال سليمان: ما لنا نكره الموت؟

قال أبو حازم: لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب.

قال سليمان: أصبت، فكيف القدوم على الله تعالى؟

قال أبو حازم: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

فبكى سليمان، وقال : ليت شعري، مالنا عند الله؟

قال: اعرض عملك على كتاب الله.

قال سليمان: في أي مكان أجده؟

قال: في قوله –تعالى–: إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم.

قال سليمان: فأين رحمة الله؟

قال أبو حازم: قريب من المحسنين.

ثم بعد كلام قال سليمان: عظني.

فقال أبو حازم: سأوصيك وأوجز. عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار، وكتب إليه: أنفقها ولك عندي مثلها كثير.

فردها أبو حازم وكتب إليه:

يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلاً، أو ردي عليك بذلاً – أي راجيًا عطاءك وبذلك – وما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسي؟

إن موسى بن عمران – عليه السلام – لما ورد ماء مدين وجد عليه رعاء يسقون، ووجد من دونهم جاريتين تذودان، فسألهما فقالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير.

فسقي لهما، ثم تولى إلى الظل، فقال: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير.

وذلك أنه كان جائعًا خائفًا لا يأمن، فسأل ربه ولم يسأل الناس، فلم يفطن الرعاء وفطنت الجاريتان، فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة، وبقوله.

فقال أبوهما وهو شعيب – عليه السلام –: هذا رجل جائع، وقال لإحداهما: اذهبي فاستدعيه.

فلما أتته عظمته وغطت وجهها ، وقالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فشق ذلك على موسى حين ذكرت «أجر ما سقيت لنا» .

ولم يجد بدًا من أن يتبعها ، لأنه كان بين الجبال جائعًا مستوحشًا ، فلما تبعها هبت الريح فجعلت تصفق ثيابها على ظهرها فتصف عجيزتها . وجعل موسى يعرض مرة ويغض أخرى ، فلما عيل صبره ناداها : يا أمة الله كوني خلفي ، وأريني الطريق بقولك .

فلما دخل على شعيب إذ هو بالعشاء مهيأ ، فقال له شعيب : اجلس أيها الشاب فتعش .

فقال موسى – عليه السلام – : أعوذ بالله .

فقال له شعيب : لم ؟ أما أنت جائع ؟

قال : بلى ، ولكني أخاف أن يكون هذا عوضًا لما سقيت لهما ، وإنَّا أهل بيت لا نبيع شيئًا من ديننا بملء الأرض ذهبًا .

فقال له شعيب : لا يا شاب ، ولكنها عادتي وعادة آبائي ، نقري الضيف ونطعم الطعام .

فجلس موسى فأكل .. هذه القصة ذكرها أبو حازم لسليمان بن عبد الملك .. ثم قال له :

فإن كانت هذه المائة دينار عوضًا لما حدثت به ، فالميتة والدم ولحم الخنزير في حال الإضطرار أحل من هذه . وإن كانت لحق لي في بيت المال فلي فيه نظراء ، فإن ساويت بيننا ، وإلا فليس لي فيها حاجة[٢٣] .

قال القرطبي : وهكذا يكون الاقتداء بالأنبياء والعلماء ..

زواج موسى :

وقالت إحدى الفتاتين لأبيها – وقد علمت أنه في حاجة إلى من يقف بجواره ليشد من أزره ويعينه في شيخوخته ، وهي وأختها فتاتان ضعيفتان لا تغنيان في كل الأحوال – : يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين .

---

(٢٣) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٢٣٧ ط . دار الكتب .

لقد حكمت على قوته برفعه الحجر من فوق البئر ، وهو حجر ثقيل لا يرفعه الجم الغفير من الناس .

وحكمت على أمانته بقوله : سيرى ورائى وصفى لى الطريق .

ومثل هذا الرجل القوى الأمين هو الذى يحتاج إليه الشيخ ليساعده فى أموره ويعينه فى حياته .

واستجاب الأب سريعًا لنداء ابنته فقال لموسى :

إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىَّ هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرًا فمن عندك .

لم يقل الشيخ لموسى : إنى أريد أن أستأجرك .. لأنه قد توسم فيه شرف النفس وعلو الهمة ، ووجد فيه الأهلية الكاملة لمصاهرته ، ولتكون العلاقة بينهما قوية متينة راقية ، وليست علاقة مادية واهية .

ولم ينظر الشيخ فى مصاهرته إلى الغنى والثروة وعرض الدنيا ، ولكنه نظر إلى الدين والأخلاق .. وهذه هى الكفاءة الحقيقية فى نظر أهل الله ..

وقد دلت التجارب على أن الكفاءة القائمة على الدين والخلق هى التى تضمن للحياة الزوجية السعادة والاستقرار ، لأنها كفاءة ثابتة لا تتغير . أما النظر إلى أعراض الدنيا وحدها من مال وثروة وجمال ومنصب وجاه فهى نظرة زائلة متغيرة ، ولذلك تعرض الحياة الزوجية للشقاق والنزاع والضياع .

واستجاب موسى ، وتم الإيجاب والقبول . وأصبحت «صفورة بنت شعيب» زوجًا لموسى – عليه السلام – .

وصدقت فراسة الفتاة فى موسى ، وصدق الأثر الذى يقول : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين قال عن يوسف لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا ، وصاحبة موسى حين قالت لأبيها : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب – رضى الله عنهما – .

وقال شعيب لموسى : ادخل هذا البيت . وأشار له إلى بيت معين وخذ منه عصا من العصى التى بداخله . فدخله وأخذ عصا . هى أول ما وقعت عليها يده .

وخرج بها ، وكانت هى العصا التى هبط بها آدم من الجنة ، وتوارثها الأنبياء من بعده حتى وصلت إلى شعيب .

وكان شعيب يطلب من موسى تغيير هذه العصا ويأخذ غيرها ، فكان يدخل فأخذ شعيب العصا التى اختارها موسى وردها إلى البيت ثم طلب من موسى أن يذهب لإحضار عصا أخرى . فكان يدخل إلى البيت ويخرج بها ذاتها ، فعل ذلك عدة مرات .

فأدرك شعيب أن موسى سوف يكون له شأن ..

وكانت هذه العصا هى رفيقة موسى فى رعيه ، ثم فى رحلته ، ثم أصبحت معجزة له فى رسالته بعد ذلك .

وبقى موسى فى صحبة شعيب عشر سنين ، وهى المدة التى أخبر بها النبى - ﷺ - حين سئل عن ذلك فقال : قضى موسى أبر الأجلين وأوفاهما .

وهذه الأحداث تقصها علينا الآيات الآتية :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾(٢٤).

وأهل الكتاب يقولون : إن الذى قابله موسى فى مدين هو كاهنها واسمه يثرون - ويثرون - هو شعيب على ما قدمنا فى قصته ، ويقولون : إنه كان له سبع بنات ، فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن ، فجاء الرعاة وطردوهن ، فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن ، فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن - ورعوئيل أيضًا هو يثرون - ..

---

(٢٤) الآيات ٢٣ : ٢٨ من سورة القصص .

ويمضى النص فيقول : فاستدعاه، وتزوج موسى صفورة، وولدت له ابنًا اسمه «جرشوم».

ومات ملك مصر، وصرخ بنو إسرائيل إلى الله من أجل العبودية. فسمع الله صراخهم[٢٥].

لا خلاف في المضمون، وإن كان هناك خلاف في التفاصيل..

ولكن سياق أسلوب القرآن وجمال الترتيب وبلاغته كل ذلك يأخذ بمجامع القلوب، ويلفت النظر إلى ما فى القصة من ملامح تستدعي العظة والعبرة وتأخذ بالنفوس إلى مواطن القدوة الصالحة والأسوة الحسنة والأدب الراقى الرفيع والسلوك الإنسانى المهذب.

موسى فى طريقه إلى مصر وتلقيه الرسالة :

انقضت السنوات العشر، وانطلق موسى راجعًا بأهله فى إحدى ليالى الشتاء الباردة. فى طريقه إلى مصر..

وفى صحبتهما أغنام أعطاها الشيخ لموسى وزوجته تعينهما على الحياة.. ويقول الرواة : إن المخاض جاء إلى زوجته فى الطريق.. فانتحى بها جانبًا، وأعد لها خباء، وقعد بها حتى تلد..

وأخذ يلتمس لها نارًا تستدفىء بها.. وضرب بقداحته فلم تخرج نارًا، وحارٌ في أمره ماذا يصنع؟ وهو وحيد فى بيداء لا أول لها ولا آخر :

ولاحت له نار من بعيد، ففرح بها، وأيقن بالفرج.

فقال لأهله : امكثوا هنا إنى رأيت نارًا، سوف أذهب وآتى منها بقبس تصطلون به، ولعلى أعثر على من يدلنى على الطريق..

كان موسى قد ضل عن الطريق الموصلة إلى مصر..

وتوجه صوب النار، فإذا بالنار تشتعل فى شجرة..

---

(٢٥) سفر الخروج - الإصحاح الثالث -.

فوقف متعجبًا من حسن ضوئها، وصفاء نارها، مع شدة خضرة الشجرة التى لم تغير النار لونها. ولم يجد للنار المشتعلة لفحًا ولا حرارة.. ولكنه وجدها نورًا رقيقًا رفيقًا يستولي سحره على القلوب..

ووقف موسى - عليه السلام - لحظات يتأمل جمال هذه النار التى لم ير مثلها من قبل، ثم أقبل نحوها يلتمس منها جمرات يحملها إلى زوجته، ولكنه فوجىء بأن النار تتأخر عنه، فداخله شيء من الخوف. وقال فى نفسه: هل تمشي النار؟ ثم قال: وما لها لا تنبعث منها تلك الحرارة التى تلفح وجه من يقترب منها؟ وما لها لا يتصاعد منها دخان كما يتصاعد من غيرها من النيران؟ وما لها تشتعل فى شجرة خضراء ومع ذلك لا تأكل من الشجرة شيئًا، ولا يطفيء ماء الشجرة من النار شيئًا؟ إن النار من عادتها أن تشتعل فى الأشجار الجافة اليابسة وهذه شجرة خضراء وارفة؟..

لعلها تساؤلات دارت فى نفس موسى - عليه السلام - وأحاسيس تجاوبت فى صدره حاول أن يبحث لها عن تعليل..

ولم يلبث موسى - عليه السلام - أن سمع نداء من قبل تلك النار، وأحاط به ذلك الصوت من جميع الأقطار..

وأقبل عليه الصوت يناديه فى رفق حبيب أخذ بمجامع نفسه وملك عليه قلبه وشد إليه عقله.

يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك، إنك بالواد المقدس طوى..

إنها دعوة لموسى أن يتخلص من أثقال المادة التى تشده إليها، إن عليه أن ينطلق إلى فضاء الروح، وعليه أن يتجرد لله فلا يعلق همه إلا به.. إنه منذ الآن أصبح نبيًا، والأنبياء موكولون إلى الله، والله كفيل بهم يتولى أمرهم، وهم يتولون تبليغ الرسالة التى أمروا بها.

إنه نداء حقيقي عليه أن يستجيب له.. فبادر موسى فخلع نعليه..

روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال: كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف وجبة صوف وسراويل صوف، وكانت نعلاه من جلد حمار ميت..

فأمر بخلع هاتين النعلين لأنهما نجستان إذ هما من جلد غير مذكى .

ولتنال قدماه بركة هذا الوادى المقدس حين تمسان ترابه ، وليكون أقرب إلى الخشوع لله والتواضع له حين يخاطبه ويناجيه .

وهكذا يفعل الناس حين يطوفون حول بيت الله .

وهكذا يفعل القراء حين يتلون كتاب الله ..

وقد كان الإمام مالك – رضى الله عنه – لا يرى لنفسه ركوب دابة بالمدينة برًا بتربتها وتكريمًا لساكنها – ﷺ –[٢٦].

لقد بسط الله لموسى بساط النور ، فلا ينبغى له أن يطأ هذا البساط بنعليه .

وقد فهم أهل الذوق من هذا الأمر أن الإنسان يجب أن يتخلص من أحواله الردية ويرفع نفسه إلى المقامات السنية إن كان يطمع فى الوصول إلى الدرجات العلا .

والوادى المقدس هو بجوار الطور ، لأن الله – تعالى – يقول : آنس من جانب الطور نارًا ..

وطوى : مصدر للفعل طوى . تقول : طوى الشىء بمعنى ثناه ، وقد طوى موسى المكان مرتين ذهابًا وإيابًا . أو طواه طيًا بتجاوزه إياه .

واختار الله موسى لرسالته ، وألقى عليه تكاليفها فى ذلك المكان المقدس .

لقد طلب الله إليه أن يصيخ سمعه جيدًا لما يلقى إليه من تعاليم ..

فألقى موسى سمعه ، وأسكن جوارحه ، وتابع ما يلقى إليه بذهنه وقلبه .

وكانت التكاليف مجتمعة فى إفراد الله بالوحدانية وعبادته وذكره : ﴿إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى﴾[٢٧].

وأولى الناس بالقيام بهذه التكاليف هو النبى أولاً .. ولذلك وجه إليه الأمر بذلك . وعليه أن يبلغ ذلك لأمته فيقتدون به ويفعلون مثله .

---

(٢٦) تفسير القرطبى – سورة طه – ص ٤٢١٣ .

(٢٧) الآية ١٤ من سورة طه .

والصلاة أساس الدين فى أى شرع ، ولا دين بدونها ، ولذلك بدأت التكاليف بها .

ويلى الأمر بعبادة الله وحده الإيمان بالبعث والنشور والحساب والجزاء ، ولذلك صدر الأمر لموسى بذلك لتبليغ أمته بوجوب الإيمان بها .

وقد جاء هذا الأمر عن طريق الإخبار :

﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى﴾[٢٨].

ثم طلب من موسى التشمير لهذا اليوم والاستعداد له ، وعدم الانشغال عن ذلك بأى أمر آخر ، وعدم الاستجابة لمن يصرفه عن الإيمان به .

لقد فوجى موسى بهذه التكاليف ، وأدرك أنه أصبح منذ الآن مكلفًا بمهمة شاقة بين قوم لا يقدرون خطورة مسئوليته ودقة موقفه .

إنه رجل أعزل ضعيف لا حول له ولا قوة ، ثم إنه مطارد ومطالب بدم ، وقد كان عازمًا على العودة سرًا ليعيش بين أمه وأخويه فقد اشتاق إليهم ، دون أن يحدث ضوضاء أو جلبة .

فكيف يصنع الآن وهو مأمور بأن يعلن عن نفسه أولاً ، ثم يجهر بدعوة غريبة على الأذهان من شأنها أن تثير العداء وتشعل الهيجاء ؟

واطلع الله على ما يدور في نفسه من أحاسيس ، فأراد أن يبث الثقة فى نفسه ، وأن يعطيه ما يقويه ويشد أزره . فقال له :

﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾[٢٩].

إنها عصاه ، والإجابة عن هذا السؤال ميسورة .

لقد أراد الله أن يؤنسه بسؤاله . وشعر موسى بالأنس فعلاً .. فكان يكفى أن يقول فى إجابته عن السؤال : عصا ..

ولكنه لم يكتف بذلك ، بل أسهب فى الإجابة وأطال فى وصف هذه العصا دون أن يطلب منه ذلك .

---

(٢٨) الآية ١٥ من سورة طه.

(٢٩) الآية ١٧ من سورة طه.

﴿قال هي عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾[٣٠].

لقد جذبه جمال الخطاب الإلهي ، وآنسه هذا الصوت الحبيب القريب ، فأحب أن يطيل أمد التخاطب بينه وبين ربه .

وكم تمنى أن تطول هذه اللحظة الفريدة التي نعم فيها بلذة الأنس والقرب والخطاب من الله .

وقال الله لموسى : ألق عصاك يا موسى .

وصدع موسى بالأمر ، وألقى عصاه ، وما كان أشد هلعه وخوفه حين رأى أمامه ثعبانًا يتلوى على الأرض .

فأطلق موسى ساقيه للريح ، وولى مدبرًا فزعًا من أن يلتهمه هذا الثعبان .

ولكن الله ناداه يا موسى أقبل ولا تخف ، إنه لا يخاف لدى المرسلون .

يا موسى هذه آية لك ، وسلاح معك ، ومعجزة تؤيدك في رسالتك .

وعاد موسى يرجف فؤاده .

وناداه الحق قائلاً : خذها ولا تخف .

والتقط موسى ذنب هذه الحية التي تتلوى بيده في وجل . فإذا بها تعود عصا كما كانت .. هي عصاه التي كانت معه ..

ومنذ ذلك الوقت وتحولت العصا إلى صديق ورفيق ..

لم تصبح مجرد آلة صماء ، بل كانت بعد ذلك معجزته التي تسير معه ، ويعلق عليها أحماله ، وتضيء له شعبتاها بالليل كالشمع ، وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشعبتان كالدلو . وإذا اشتهى ثمرة ركزها في الأرض فأثمرت تلك الثمرة ..

لقد كانت هذه العصا من أشجار الجنة هبط بها آدم - عليه السلام - وورثها الأنبياء من بعده ، حتى وصلت إلى شعيب ثم أخذها موسى[٣١].

---

(٣٠) الآية ١٨ من سورة طه.

(٣١) تفسير القرطبي - طه - ص ٤٢٢٠ .

وأراد الله أن يؤيد موسى بمعجزة أخرى تزيده قوة ووثوقًا . فقال له : أدخل يدك في جيبك ثم أخرجها .. ففعل فإذا بيده تخرج بيضاء ناصعة منيرة ساطعة . تبعث أمام من يراها نورا كضوء الشمس والقمر .

ثم أمره أن يدخلها في جيبه مرة أخرى . فأدخلها فعادت كما كانت ..

واطمأن قلب موسى أكثر وأكثر ..

فلا خوف إذن ولا قلق . فعليه أن ينصرف توًا إلى تبليغ رسالة ربه إلى فرعون . وها هي ذى المعجزة التى تثبت نبوته حاضرة لديه ، ترد على كل تكذيب ، وتقضى على أى شك أو ترهيب .

وصدر الأمر الإلهي يحدد له مهمته ..

يا موسى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى ، ادعه إلى عبادة الله وحده ، واطلب منه أن يكف عن إيذاء بنى إسرائيل وتسخيرهم ، وأن يعتقهم مما هم فيه من عبودية وإذلال ، وأن يتركهم أحرارًا فى الانطلاق إلى بلادهم التى كانوا فيها قبل أن يجيئوا إلى مصر ..

ولكن موسى – عليه السلام – لم يرد أن يضيع هذه الفرصة الذهبية دون أن يستثمرها استثمارًا صالحًا .. إنها فرصة يطلب فيها من الله العلى الذى شرفه بالمخاطبة وأنعم عليه بالمكالمة أن يشرح له صدره حتى لا يضيق بتكاليف الرسالة ، وأن ييسر له أمره حتى لا تتعقد أمامه السبل ، وأن يحل له هذه العقدة التى لاثت لسانه منذ أن لسعته النار فلا يكاد يبين ، حتى يصبح لسانه منطلقًا فى الكلام ، فيقوى على أداء ما يريد من بيان ، ويفهم الناس ما يلقيه عليهم من أحكام ، وطلب أيضًا أن يؤيده الله بأخيه هارون فهو أفصح منه لسانًا وأقوى بيانًا .

واستجاب الله لما طلبه موسى ، وأعطاه ما سأل ، ولم يبق إلا أن ينطلق موسى فى ثبات ويقين فى طريق أداء هذه المهمة .. ويالها من مهمة ..

وقد وردت هذه المحاورة فى القرآن الكريم بأساليب مختلفة وفي سور متعددة ، ولكنها متفقة فى مضمونها ..

وردت في سورة طه، وفي سورة القصص[٣٢] وفي سورة الشعراء[٣٣] ولكنا نكتفي هنا بآيات سورة طه:

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) ﴾[٣٤].

انظر إلى هذا النسق القرآني الجميل المعجز.
هل ترى فيه كلمة نابية وردت على لسان موسى؟

هل تلمح فيه اعتراضًا على مقام الربوبية، او تأبيًا على الرسالة التي شرف الله بها موسى؟

هل تدرك أن هناك ضيقًا راود نفس موسى وترددًا منه بشأن هذه الرسالة؟

أما الكتابيون فيمضون في نصوصهم واصفين موسى باللجاج والاعتراض والامتعاض، وأنه رد الرسالة ثلاث مرات.

---

(٣٢) الآيات ٢٩ : ٣٥ من سورة القصص. (٣٣) الآيات ١٠ : ١٥ من سورة الشعراء.
(٣٤) الآيات ٩ : ٣٦ من سورة طه.

فمرة يقول : من أنا حتى أذهب إلى فرعون ؟

ومرة يقول : إنهم لا يصدقونني ولا يسمعون قولي .

ومرة يقول : لست فصيحًا ولا أقدر على إبانة الكلام والجدال .

لقد رفع القرآن الكريم من شأن موسى - عليه السلام - وهكذا يكون مقام الأنبياء ، إنهم يعرفون مقام الربوبية جيدًا ، وهم أولى الناس بمراعاة هذا المقام ، وأحق الناس بمعرفة أدب الخطاب في حضرة ذي الجلال والإكرام .

موسى يبلغ الرسالة :

والآيات القرآنية الكريمة التي قرأناها تدل دلالة واضحة على أن موسى - عليه السلام - تلقى الرسالة في أثناء خروجه إلى مصر مع أهله ..

ولكن النص الوارد في العهد القديم يفيد أن الأمر بالرسالة جاءه في أثناء رعيه الغنم عند صهره فعاد يستأذنه للخروج إلى مصر بعد ذلك .

والنص القرآني هو الأنسب لدلالة الحال ..

وانطلق موسى - عليه السلام - من توه إلى مصر ، وقد تغير هدفه تمامًا من رحلته إليها ..

نسي أهله ، وشغلته تكاليف الرسالة ومهامها عن زوجه وولده . وكانت زوجته قد وضعت في تلك الليلة المباركة .

لقد ارتفع هم موسى عن زوجه وولده . وتفرغ لِهَمِّ شعبٍ بأسره يريد أن ينقذه من الضلال ويرده إلى الحق ..

وإن شئت فقل : أذهلته لذة خطاب الحق والأنس به عن كل لذة أخرى مهما كانت .

وصرفه أمر الله والتفرغ له عن أن يضيع وقتًا في البقاء بجانب أهله ، وقد وثق أن الله لن تضيع عنده الودائع . لقد استودع أهله عند ربه ومضى ..

وقيض الله لهم من أهل مدين راعيًا مر بهم فعرفهم فاحتملهم وعاد بهم إلى شعيب . وظلوا عنده حتى خرج موسى بقومه من مصر .

وأخذ موسى طريقه وحده إلى مصر يهديه الله في رحلته .

وأوحى الله إلى هارون يبشره بعودة أخيه ويشركه معه فى رسالته إلى فرعون وانه جعله وزيرًا لأخيه.

واستقبل هارون أخاه موسى فى شوق شديد.

وانهى موسى إلى هارون مهمته التى جاء من أجلها، وعرفه هارون بأن الله – تعالى – أخبره بذلك. ودعاه إلى مؤازرته فى رسالته.

وسمعت أمهما طرفًا من الحوار الذى دار بينهما بشأن هذه الرسالة، فجزعت وناشدتهما الله – خوفًا عليهما – بألا يذهبا إلى فرعون..

ولكن كيف يجبن الرسل؟

وما زال موسى وهارون يتلسمان الفرصة التى يلتقيان فيها بفرعون ليبلغاه الرسالة.

وقد أفاض الإخباريون فى شرح ذلك والتهويل منه.

ولكن القرآن الكريم لم يتعرض لهذه التفاصيل التى لا تقدم ولا تؤخر فى موضوع القصة.

ولاحت الفرصة أخيرًا، وتمكن موسى وأخوه هارون من أن يلتقيا بفرعون.

فتقدم موسى إليه فى ثقة وإيمان وهو يردد هذا الدعاء:

لا إله إلا الله الحكيم الكريم، لا إله إلا الله العلى العظيم. سبحان رب السموات السبع والأرضين السبع، وما فيهن، وما بينهن، ورب العرش العظيم، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

اللهم إنى أدرأ بك فى نحره وأعوذ بك من شره، وأستعين بك عليه فاكفنيه بما شئت(٣٥).

---

(٣٥) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٨٦.

ثم قال له: أنا وأخي رسولا الله إليك..

وقد علم الله موسى أن يكون لينًا في خطابه لفرعون، لأن للكلام رهبته في النفوس وموقعه من القلوب.

والنفوس تضيق بالشدة في الكلام إذا ووجهت بها أول مرة، ولكنها قد تصغى إلى ما يلقى إليها من كلام حسن رقيق.

وقد حدث الرواة عن هارون الرشيد أن واعظًا قال له: سأسمعك كلامًا قاسيًا شديدًا، فأجابه هارون بقوله: لقد بعث الله من هو أفضل منك إلى من هو شر مني، وطلب منه أن يلين له في القول.

أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون، وقال لهما: فقولا له قولاً لينًا لعله يتذكر أو يخشى.

فكان وعظ هارون الرشيد للواعظ أوقع وأوعظ.

إن الكلام اللين من أسباب نجاح الداعية، والله جل علاه يخاطب سيد الخلق بقوله: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾[٣٦].

ووصفه بقوله ﴿ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[٣٧].

ألقى موسى كلمته إلى فرعون في هدوء: إنا رسولا رب العالمين.

وأخذت هذه الكلمة على قصرها بمجامع عقل فرعون وزلزلت كيانه وأخرجته عن شعوره..

لقد زلزلت نفسه زلزالاً عنيفًا. هل هناك رب غيره؟

إنه منذ وجد على هذا العرش لا يعرف الناس إلهًا غيره، هو يقوت الناس ويرزقهم، وبيده حياتهم وموتهم وسعادتهم وشقاؤهم، وما زال وزراؤه وحاشيته والمحيطون به ينفخون فيه حتى وقر فى نفسه أنه إله حقًا.. أو على الأقل أنه ظل الإله أو ابن الإله رع..

---

(٣٦) الآية ١٢٥ من سورة النحل. (٣٧) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران

إنه صنم متحرك يأكل ويشرب ويعقل ويتكلم ويأمر وينهي، وهو بذلك أفضل من الآلهة الأخرى التى يعبدها الناس، ينحتونها بأيديهم من أحجار وأخشاب يسجدون لها..

وهو كذلك أفضل من تلك الكواكب من شمس وقمر ونجوم، وأفضل من الأبقار وغيرها. فهذه لا تسمع ولا تنطق ولا تجيب.

أما هو فيسمع ويجيب..

فإذا قال له واحد من رعيته: يا فرعون أعطني. يعطيه..

يا فرعون: اكسني يكسوه. يا فرعون: انصرني. ينصره..

يا فرعون: ادفع عني يدفع عنه..

فما بال هذا الرجل الذى أمامه يزعم أن هناك إلهًا غيره ينبغي أن يُعبد؟

عجبًا لك يا موسى: هل تريد أن تجعلني عابدًا بعد أن أصبحت معبودًا؟

وتصيرني تابعًا بعد أن صرت متبوعًا؟ وتريد من أن أكون طالبًا بعد أن كنت مطلوبًا؟

لقد تضمنت عبارة موسى «إني رسول رب العالمين» كل معالم الرسالة وأصول الإيمان والعقيدة المتمثلة في توحيد الله وإفراده بالعبادة وفي وجوب الإيمان بالبعث والجزاء..

وكان من المتوقع لدى موسى أن ينكر فرعون قوله، فقال له:

﴿حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾[٣٨].

لقد كان هدف موسى أن يعتق رقاب أهله من رق فرعون الذى قهرهم وأذلهم، وأن يتركهم أحرارًا يذهبون إلى أرض غير هذه الأرض وديار غير هذه الديار يعبدون الله بعيدًا عن هذه الوثنية التى يحيا في ظلها هؤلاء الضالون.

---

(٣٨) الآية ١٠٥ من سورة الأعراف.

حوار بين موسى وفرعون :

وفتح موسى بكلمته تلك الطريق أمام فرعون للحوار . فقد ذكر فرعون موسى بذنبه القديم ..

ثم سأله عن رب العالمين .. من هو ؟ وما حقيقته ؟ وأين هو ؟

وقد تولت الآيات الكريمة الآتية توضيح ذلك :(٣٩)

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

وقد أحسن موسى الدفاع عن نفسه ..

وأحسن في تأدية رسالة ربه .

قال في الدفاع عن التهمة التي وجهت إليه : لقد حدث مني ما حدث وأنا من الجاهلين . لقد جهلت مقدار قوتي وما كنت أعلم أن وكزتي ستودي بحياة الرجل الذي وكزته . وكان فراري خوفًا من القصاص . ولكن الله انعم عليّ بالتوبة فالنبوة .

ثم إنك تمن عليّ بالتربية ، ولكنك نسيت أنك استعبدت بني إسرائيل كافة ..

حقًا لقد أعتقت رقبة واحدة ، ولكنك استرققت رقاب اكثر من ستمائة الف عبراني ..

قال العلماء : لقد كان عدد بني إسرائيل في ذلك الوقت ستمائة الف وثلاثين الفًا .

---

(٣٩) الآيات ١٦ : ٢٩ من سورة الشعراء .

وماذا يكون الإحسان إلى واحد بجانب الإساءة إلى هذه الآلاف المؤلفة ؟

ولقد أساء فرعون فى سؤاله عن الله تعالى بقوله : وما رب العالمين ؟

لقد حسب أن إله موسى الذى يدعو إليه من جنس الآلهة التى يعبدها الفراعنة . فكان السؤال بما ، وهى الاستفهام عما لا يعقل .

وكانت إجابة موسى موفقة سديدة ..

أجاب فرعون بذكر الصفات التى ينبغى أن تكون للخالق العظيم الذى يستحق العبادة ويتفرد بالألوهية .

إنه رب السموات والأرض وما بينهما ..

وهو ربكم ورب آبائكم الأولين ..

وهو رب المشرق والمغرب وما بينهما ..

إنه رب كل شىء ، ولا يحق لأحد أن يشرك فى عبادته شيئًا آخر .

وغاظت هذه الإجابة على وضوحها وصدقها فرعون ، وأثارت نقمته ، وأفحمته .

والعاجز حين يفحم يلجأ إلى التهديد ، ويلوح بالانتقام ، إنه لم يجرؤ على المناقشة ، ولم يستطع أن يستمر فى الحوار المنطقى الهادف ، الذى يسعى إلى بيان وجه الحق ، والوصول إلى غاية المعرفة ، ولكنه أطلق تهديده لموسى وتوعده بالسجن ..

آية بينة :

ولم يهتم موسى – عليه السلام – بتهديدات فرعون ، ولكنه لجأ إلى تحديه بالمعجزة التى أعطاها الله إياه .

فقال له : إن معي ما يثبت صدقى ويؤيد نبوّتى ، إن الله زودنى بآية . فهل تؤمن لو أريتك إياها ؟

قال فرعون : فأت بها إن كنت من الصادقين .

والقى موسى عصاه ، فتحولت العصا إلى ثعبان مبين فاغرٍ فاه ليلتقم كل من يقف أمامه ..

وجرى الناس مذعورين ، وأقبل فرعون الذى تكلف الثبات فوق عرشه . ولكن ما إن رأى الثعبان متجهًا نحوه حتى أخذ الخوف منه كل مأخذ ، ووثب عن سريره ، وقد وضع يده على بطنه ..

واستغاث فرعون بموسى أن يكف أذى الثعبان عنه . واعدًا إياه أن يجيبه إلى طلبه إن كفه عنه .

فأخذ موسى بذنب الثعبان فعاد عصا كما كانت من قبل فى يد موسى .

ثم قال موسى : وإليك أيضًا آية أخرى ، لعلك تؤمن ويرتد إليك صوابك ..

وأدخل موسى يده فى جيبه ، وأخرجها فإذا هى بيضاء للناظرين .. ورأى الناس لها نورًا ساطعًا يعشى الأبصار ويخجل الأقمار ..

ثم ردها موسى إلى جيبه فعادت كما كانت إلى لونها الطبيعى ..

وداخل نفس فرعون روع لم يكن له به عهد ، وأحس فى داخله بأن موسى قد يكون على حق .

إنه لم يجابه من أحد بما جوبه به من موسى ، ولم يأت أحد بمثل ما جاء به ..

وهنا يأتى دور هامان وغيره من بطانة السوء التى تحيط عادة بالملوك وتحف بالرؤساء .

إنهم يزينون لهم الشر ويشيعون الفساد ، وكم قوضوا بسوء مشورتهم للحكام من دول ، وأشعلوا من حروب ، وأشاعوا من فساد ، وضيعوا من حقوق .

وصدق رسول الله – ﷺ – حيث يقول : «ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحثه عليه والمعصوم من عصمه الله» ..

فأقبل هامان هو والملأ من قومه يقولون له : لا يهولنك من أمر موسى شىء ، إنما هو عبد من عبيدك . أما ما رأيته من آياته فلا يعدو أن يكون سحرًا يبطله سحر مثله . فابعث جنودك فى طلب السحرة من كل مكان ، وستعرف أن موسى لن يثبت أمامهم فى الميدان .

واستراح فرعون لهذا القول . وألقى إليه أذنيه .

وبعث فى طلب السحرة البارعين، حتى احتشد له جمع هائل منهم.

السحر فى قوم فرعون:

وكان السحر رائجًا فى قوم فرعون. وهو فن من فنون المصريين القدماء له منهج كمناهج العلوم يدرس فى مدارسهم العالية، مع غيره من العلوم الأخرى.

والمعنى الجامع للسحر هو: أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها، فمتى عرف سبب شىء منها بطل إطلاق اسم السحر عليه[٤٠].

قال العلماء:

منها ما يعمل بالأسباب الطبيعية من خواص المادة المعروفة للساحر، المجهولة عند غيره، كاستعمال الزئبق فى العصى والحبال فيخايل لمن رآها أنها تسعى. وهكذا فعل سحرة فرعون مع موسى.

ومنها الشعوذة، وهى خفة اليدين، وهو ما نراه من فعل الحواة الذين يعرضون أعمالهم فى المسارح وأمام أنظار التلاميذ فى المدارس.

ومنها ما يقوم على تأثير الأنفس ذات الخواص القوية فى أصحاب النفوس الضعيفة، وقد يلجأ هؤلاء إلى الاستعانة بالجن والشياطين مصداقًا لقوله –تعالى–: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا﴾[٤١].

وقوله –تعالى–: ﴿ويوم يحشرهم جميعًا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم﴾[٤٢].

ومن هذا النوع ما يطلق عليه التنويم المغناطيسى..

---

(٤٠) تفسير المنار جـ ٩ ص ٤١.
(٤١) الآية ٦ من سورة الجن.
(٤٢) الآية ١٢٨ من سورة الأنعام.

والذى يهمنا هنا أن نعرف أن السحر صنعة تتلقى بالتعليم والتمرين، فيمكن لأى أحد متى وجد الاستعداد لديه، وتهيأت فرص التعلم أمامه أن يكون ساحرًا، فهو ليس خارقًا للعادة.

وهذا هو الفرق بين السحر والمعجزة. فالمعجزة أمر خارق للعادة حقيقة، وليس فى مقدور أى واحد أن يقوم بها، ولكنها منحة إلهية لمن اصطفاه الله من الأنبياء، يؤيد الله بها نبوته ويصدقه بها فى دعوته ورسالته.

فرعون يستدعى السحرة:

تناجى فرعون مع كبار قومه فى أمر موسى وما جاء به من آيات.

وخرجوا جميعًا بنتيجة لم يختلفوا عليها، وهى أن موسى ساحر، والساحر يجابه بساحر مثله.

والرأى الذى توصلوا إليه بعد المناجاة والتشاور هو أن يرجئوا موسى وأخاه فترة من الزمن تمكنهم من دعوة السحرة من أنحاء القطر.

ووافق موسى. فهو واثق من أمره.

وجاء السحرة من كل مكان، واشترطوا على فرعون شروطهم. لقد أدركوا أن مصير فرعون الآن فى كف القدر، فهو إما أن يصعد أو يهبط، إما أن يبقى أو لا يبقى. فما بالهم لا يساومون؟ وما لهم لا يملون شروطهم كما يريدون؟

قالوا له: ائن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين؟

لقد اشترطوا الأجر لأنهم تعودوا منه السخرة. كان يأمر فيطاع ويتم ما يريده بدون أجر يقدمه أو عوض يدفعه.

فأجاب فرعون على الفور بالموافقة على ما طلبوا، بل وبأكثر مما طلبوا.

قال لهم: نعم وستكونون أيضًا من المقربين.

واتفق السحرة مع موسى على يوم المناظرة..

واختار موسى يوم الزينة ، يوم عيدهم الذى يحتشدون فيه ، وفيه يمرحون ويلعبون .

وحدد ساعة اللقاء ، فى ضحى ذلك اليوم المشهود . وأن يحشر الناس إلى هذا اللقاء ليشهده أكبر عدد ممكن من الناس .. من العاصمة وغيرها من البلاد فى أنحاء القطر .

لقد كان تحدى موسى لهم أكبر ..

ولعل فرعون كان يفضل أن يتم كل شىء فى هدوء وخفاء ودون ضوضاء ، وهو بذلك يخفىُ قلقًا فى أعماقه وأحساسًا بالفشل فى داخله .

ولكن موسى أصر على الإعلان ، وأصر أيضًا على الدعاية لهذا اليوم فهو على بصيرة من ربه ، ويقين بأن الله سيظهر كلمته ويعلى دينه .

حوار بين موسى والسحرة :

وجاء اليوم المشهود ، واجتمع السحرة بقضهم وقضيضهم ، حاملين معهم حبالهم وعصيهم ، والتقوا فى ميدان واسع ..

إنها مظاهرة كبيرة من السحرة .. وأمامها موسى وهارون وحدهما ..

وليس فى يد موسى إلا عصاه ..

واقبل موسى على السحرة يعظهم ، ويذكرهم قدرة الله وحوله وقوته ويحذرهم من الافتراء عليه قائلاً لهم : ويلكم لا تفتروا على الله الكذب .

ويبدو أن هذا الكلام كان له أثر فى نفوسهم ، فقد أخذوا يتشاورون فيما بينهم ويتدبرون معنى كلامه .

إنه ليس كلام ساحر ، ولكنه رجل قوى مؤيد بما لا قبل لهم به ، إنه كلام نبى ..

ولكن بريق المادة خطف أبصارهم ، والقرب من فرعون الذى وعدهم به أعمى قلوبهم ، فقالوا : « إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى » .

وحذر بعضهم بعضًا من التخاذل والاختلاف، وأوصوا بعضهم بالائتلاف والاتحاد .. إن الذى سيغلب فى هذه المباراة هو الذى يستحق العلو والفلاح.

لقد ظنوا واهمين أنهم الأعلون ..

ولكن كيف يعلو الباطل مهما جمع له من حشود، وحشد له من جنود؟

وقال السحرة لموسى: إما أن تلقى أولاً، وإما أن نلقى نحن.

فقال لهم موسى: بل ألقوا أنتم أولاً ..

فألقى السحرة ما بأيديهم من حبال وعصى قائلين فى غرور باطل: بعزة فرعون إنا غالبون ..

ومن يكون فرعون؟ إنه لا يعدو أن يكون عبدًا حقيرًا يدعى ما ليس له.

وتحركت الحبال والعصى التي ألقاها السحرة وسحروا أعين الناس فظنوا أنها تمشى حقيقة .. وتخيل موسى أيضًا أنها تمشى وتتحرك، فأقلقه ذلك ..

وذهل الناس من منظر هذه الآلاف من الحيات الوهمية التى أخذت تزحف هنا وهناك. لقد سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم.

وأوحى الله إلي موسى: لا تخف إنك أنت الأعلى.

ومست موسى نفحة هذه الكلمات الربانية، فاستعاد ثقته بالله كاملة، وأيقن بالنصر والظفر ..

ولئن كانوا هم قد أقسموا بعزة فرعون الموهومة على أنهم غالبون. فإن موسى قد استعان بحول الله وقوته على إبطال هذا الوهم الذى صنعوه، وإزهاق هذا الباطل الذى زيفوه.

﴿ قال موسى: ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾(٤٣).

وألقى موسى عصاه مستعينًا بالله .. فإذا بالعصا تتحول إلى ثعبان مبين، أقبل على هذه الحيات التى صنعها السحرة بإفكهم يلتقمها، واحدة تلو

---

(٤٣) الآيتان ٨١ ، ٨٢ من سورة يونس.

الأخرى فى سرعة خاطفة، ويبتلعها فى قوة بالغة، وما هى إلا لحظة حتى خلا الميدان أمام هذا الثعبان، ولم يبق أثر لسحر السحرة.

فذهل الناس.. وكان أول من آمن منهم هؤلاء السحرة أنفسهم..

لقد أدركوا أن ما فعله موسى ليس سحرًا.. بل هو معجزة حقيقية أيده بها الله الذى أرسله.. فهو إذن نبى حقًا.. وخروا ساجدين لله تعالى قائلين: آمنا برب العالمين.

لقد افتضح السحر وذهب الباطل وظهرت صولة الحق، وأصيب فرعون وملؤه بخيبة أمل عظيمة.. خصوصًا بعد أن قال السحرة على ملأ الناس: آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون.

وعلى عادة صغار النفوس من الجبابرة فى أنهم يصبون نقمتهم على الضعاف من الناس، لا على أصحاب الشوكة والقوة، أقبل فرعون على هؤلاء السحرة يصب عليهم جمام غضبه ويمطرهم بوابل من التهديد والتنكيل.

«وكذلك يفعل كل متسلط وكل رئيس مستبد فى شعب يخاف أن ينتقض عليه باجتماع كلمته على زعيم آخر بدعوة دينية أو سياسية، وما من شعب عرف نفسه وحقوقه، وتعارف بعض أفراده وتعاونوا على صدق هذه الحقوق إلا وتعذر استبداد الأفراد فيهم وإن كانوا ملوكًا جبارين»(٤٤).

لقد اتهم فرعون السحرة بالفشل، ثم عاد واتهمهم بالممالأة لموسى، ثم عاد يهددهم ولم ينس نعرته الكاذبة وعنجهيته الظالمة فقال لهم:

أتؤمنون به قبل أن آذن لكم؟

عجبًا، وهل يحتاج الإيمان إلى استئذان؟

هل يحتاج الإيمان بالله رب العالمين إلى إذن من مخلوق ضعيف ثبت عجزه على أعين الملأ؟

ولكنه يحاول الاستنجاد بعنف كاذب.. وجبروت ذاهب.

---

(٤٤) تفسير المنار جـ ٩ ص ٦٣.

إنه يريد أن يحافظ على بقية من كبرياء موهومة لن تلبث أن تذهب أدراج الرياح.

ثم أتبع هذا التوبيخ بتهمة أسندها إلى هؤلاء السحرة:

إن هو إلا مكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها.. إن موسى كبيركم الذى علمكم السحر..

هذه تهم ألقاها جزافًا يحاول بها أن يستبقى هيبته الجريحة الضائعة..

ثم أرغى وأزبد وهدد وتوعد:

لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم فى جذوع النخل..

لقد كان هذا التهديد مظهر خوف قابع فى نفس فرعون. ومم يخاف؟ إنه يخاف من صولة الإيمان بالله. لقد استيقظ الشعب على حقيقة واقعة سوف تذهب بفرعون إلى الأبد.

إن إيمان الشعب بالله سوف ينزله عن عرش ربوبيته الزائف، ويجعله فردًا عاديًا يدين بما يدين به الناس.

وهذا هو ما سبق أن قاله لموسى وهارون ذات يوم: أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون.

ولكن هذا التهديد لم يجد شيئًا أمام قوة الإيمان التى تغلغلت فى نفوس السحرة، والإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب هان فى نظر أصحابه كل شيء، لا تفرحهم الدنيا بحذافيرها، ولا ترهبهم أى قوة مهما بلغت واشتدت..

قال السحرة لفرعون: ﴿لا ضير. إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين﴾[٤٥].

---

(٤٥) الآيتان: ٥٠ : ٥١ من سورة الشعراء.

لن نبالى بتهديدك ووعيدك، ولن نؤثر التقرب إليك على التقرب إلى الله، ولن نفضل جوارك على جوار الله و «لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا»..

إننا لن نبالى بما تقول، فافعل ما شئت واحكم بما تريد.. فلن يتعدى ما تتوعدنا به الحياة الدنيا، وأمرها قصير. ومتاعها قليل.. أما وعد الله – تعالى – فخالد، ووعيده كذلك.

انظر إلى الإيمان كيف يبدل أطوار النفوس في لمحة عين..؟

فبينما كان هؤلاء السحرة قمة فى الكفر والضلال إذا بهم قمة فى الإيمان واليقين.. لقد كانوا بالأمس عدة للكافر ونصرة للظالم فإذا بهم اليوم عدة للمؤمن ونصرة للحق.

لقد أمسى هؤلاء السحرة كفرة وأصبحوا مؤمنين..

وأراد فرعون أن يجعل من هؤلاء السحرة نكالاً لغيرهم فاستعمل معهم أقصى أنواع العقاب.

قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ولم يقتلهم بادىء ذى بدء، فالقتل فيه راحة للمقتول. ولم يكتف بذلك، بل أتبع القطع بالصلب..

ولم يكن صلبًا عاديًا ولكنه صلب عنيف بالغ فيه بإيثاق المصلوب فى جذوع النخل حتى جعله كأنه قطعة منها لا ينفصل عنها.

وكل ذلك لم يجد فرعون شيئًا أمام إيمان السحرة ويقينهم، ولم يثن السحرة عن إيمانهم الذى ضربوا به المثل الأعلى فى الاستسلام لقضاء الله، والثقة بما وعدهم به من نعيم مقيم فى جنة عرضها السموات والأرض.

إنهم لم يزيدوا على أن قالوا هذه العبارة التى تشهد بقوة الإيمان وعمق اليقين: ربنا افرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين.

وهى عبارة ما قالها أحد فى شدة إلا هون الله عليه شدته، وأعانه على اجتياز المحنة بنجاح وظفر، حتى تصبح المحنة منحة والنقمة نعمة. ولنقرأ الآيات الكريمة الواردة فى هذا المعنى:

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ

مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ »[٤٦]

فرعون ينكل بالإسرائيليين :

لقد هز إيمان السحرة أركان المملكة ، وزلزل عرش فرعون ، وأذهل هيئة المنتفعين حول فرعون ، وخشوا عاقبة الأمر . إن سلطانهم يتهاوى الآن ، وهذه السلطة التى يقبضون عليها بأيديهم توشك أن تتلاشى وتضيع ..

لقد هان سلطان فرعون فى نفوس الرعية ، ولسلطان الأعوان أهون وأذل .

فماذا يصنع هؤلاء الأعوان ليحتفظوا بما فى أيديهم من منافع ؟

اقبلوا على فرعون يزينون له النقمة من موسى وقومه ..

قالوا له : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ؟

كيف يصبح هؤلاء القوم المفسدون أحرارًا آمنين يتمكنون من إضلال الشعب وإغوائه فيترك عبادتك وعبادة آلهتك ؟

لقد كان الشعب يعبد فرعون ، وفرعون ظل لإله آخر هو الشمس التى كانوا يطلقون عليها «رع» وفرعون نفسه يقول إنه سليل «رع» وابنها المعبود باسمها .

---

(٤٦) الآيات ١٠٧ : ١٢٦ من سورة الأعراف .

كيف يزلزل موسى هذه العقيدة فيتهاوى الحكم بهذه الصورة المزرية ؟

وأثارت هذه الأقوال حنق فرعونِ على موسى ، فعزم على البطش به وبقومه .

قال فرعون : لابد من عقاب هؤلاء القوم عقابًا شديدًا ، لابد من قتل أولادهم الذكور دون الإناث فإنهم بذلك يظلون مقهورين حتى ينقرض نسلهم تمامًا ، فإن بنى إسرائيل لا يزوجون غير الإسرائيلى .

ولم يكتف بذلك بل لوح بقتل موسى نفسه قائلاً :

﴿ ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾(٤٧).

ولجأ موسى إلى ربه يستنصره على هؤلاء الجبابرة الذين لا يستجيبون لدعوة الحق ، ولا يقبلون الانقياد للصواب .

والمظلوم المؤمن لا يجد له نصيرًا إلا الله ، فهو وحده القادر على رد كيد الكائدين إلى نحورهم ، وإبطال عسفهم وجورهم ﴿وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾(٤٨).

من فرعون ؟

يذكر صاحب تفسير المنار أن المرجع عند المتأخرين من المؤرخين الواقفين على حقائق التاريخ أن فرعون موسى هو الملك «منفتاح» ، وكان يلقب بسليل الإله «رع» وقد جاء فى آخر الأثر المصرى الوحيد الذى ذكر فيه بنو إسرائيل (وهو معروف برقم ٣٤٠٢٥ المحفوظ فى متحف مصر) أن مصر هى السليلة الوحيدة للمعبود «رع» منذ وجود الآلهة ، وأن «منفتاح» سليله أيضًا ، وهو الجالس على سدة المعبود «شو» ، وأن الإله «رع» التفت إلى مصر ، فولد «منفتاح» ملك مصر .. فخضع له العبرانيون والحيثيون والكنعانيون وعسقلان وجزال وينعمام» ..

---

(٤٧) الآية ٢٦ من سورة غافر .   (٤٨) الآية ٢٧ من سورة غافر .

وفيه: «وانفك الإسرائيليون فلا بزر لهم، وأصبحت خلية مصر، والأراضي كلها مضمومة في حفظه، وكل اسم وعفه (أي أضعفه وأذله) الصيدن (وهو لقب منفتاح) سليل الشمس معطي المعيشة كل نهار مثل الشمس»[٤٩].

وهذا النص المترجم من النصوص القديمة الفرعونية يشير إلى ما كان يدعيه منفتاح ويزعمه من أنه واهب الحياة ومعطي المعيشة، وهذا هو الذي مهد له فيما بعد ادعاء الربوبية.

كما يشير إلى ما فعله مع بني إسرائيل من قطع نسلهم، وهو المعنى الذي يفهم من قولهم (لا بزر لهم) وهو بمعنى القول: قطع دابرهم.

ويؤيد هذا الرأي الشيخ عبد الوهاب النجار، ولكنه يضيف شيئًا آخر تطمئن إليه النفس. وهو:

أن منفتاح هذا هو فرعون الخروج، أي الذي أرسل إليه موسى، أما فرعون الذي ولد موسى في عصره وربي في قصره فهو أبو منفتاح.. وهو «رعمسيس»..

وكان منفتاح هو ولي العهد لأبيه حين التقط موسى، وربي في القصر ولذلك قال له: «ألم نربك فينا وليدًا ولثبت فينا من عمرك سنين».

وكان موت رعمسيس هو الذي أثار في نفس موسى الرجوع من مدين لأنه هو ولي الدم للقتيل الذي قتل، فلم يعد في مصر من يطالبه بالدم حين يعود، وهذا ما يفهم من التوراة حين قالت: وفي هذه الأثناء – أي أثناء إقامة موسى بمدين – كان الملك الفرعون قد مات.

وكان رعمسيس ومنفتاح في الأسرة التاسعة عشرة[٥٠].

موسى يطمئن قومه ويبصرهم:

وحاول موسى أن يطمئن الإسرائيليين ويبث في نفوسهم الثقة بوعد الله، ولكن إيمانهم بموسى لم يكن على المستوى المطلوب الذي يريده موسى منهم،

---

(٤٩) تفسير المنار جـ ٩ ص ٧٠.

(٥٠) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٢٢٩.

لقد كان إيمان السحرة قويًا جعلهم لا يرهبون تهديد فرعون وقهره. ولكن بنى إسرائيل -وقد أرسل موسى من أجل إنقاذهم- كانوا مترددين فى الإيمان به والوقوف معه.

وأحسب أن انضمامهم له لم يكن إلا بدافع العصبية فقط، لا بدافع الإيمان الذى يهون بجانبه كل شيء.

﴿قال موسى لقومه: استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾(٥١).

ولكن هذا الكلام يصلح لقوم اشتروا آخرتهم بدنياهم، واشتروا جنة عرضها السموات والأرض بأنفسهم.

أما هؤلاء فكان ردهم على موسى ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾(٥٢).

ومعنى ذلك أنهم لم يستفيدوا من رسالته شيئًا. إن منطق النفعية ماثل فى أذهانهم، وكانوا يطلبون ثمنًا سريعًا للإيمان برب موسى، أو على الأقل كانوا ينتظرون أن يرتفع الظلم عنهم.

لقد غاب عن أذهانهم أن الإيمان امتحان، ومن آمن بالله فكأنه قال له: امتحنى.

والحق -سبحانه وتعالى يقول:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾(٥٣).

واشتد الأذى بقوم موسى.

وارتفعت مع الأذى أصواتهم بالشكوى لموسى.

---

(٥١) الآية ١٢٨ من سورة الأعراف. (٥٢) الآية ١٢٩ من سورة الأعراف.

(٥٣) الآية ٢١٤ من سورة البقرة.

ولم يملك موسى إلا أن يهدىء من روعهم ويبث الاطمئنان فى نفوسهم ، ولكن بدون جدوى .

قال لهم : ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون﴾(٥٤).

إنه يبعث فيهم روح الأمل ، ويزرع فى قلوبهم الثقة ، ويدفع فى نفوسهم التفاؤل بالمستقبل ، فما بعد الضيق إلا الفرج ، وما بعد العسر إلا اليسر ، ولكن لا سميع ولا مجيب .

والعهد القديم يصور موسى بأنه يئس من قومه ، ولجأ إلى ربه ساخطًا عليهم .

فهو يقول مثلاً : «رجع موسى إلى الرب وقال : يارب لماذا ابتليتنى بهذا الشعب ؟ لماذا بعثتنى ؟ .. فإنى منذ دخلت على فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هؤلاء الشعب وأنت لم تنقذ شعبك»(٥٥).

وأيًا ما كان فقد اشتد ضيق بنى إسرائيل لوقوع الأذى عليهم ، ولم ينج موسى مع ذلك من الكيد له والضيق به ، وتهديده بالقتل .

مؤمن آل فرعون :

وعندما يشتد الظلام يظهر بصيص ضوء يبعث أشعة أمل . ويذكر بأن الله – جلت قدرته – لا يتخلى عن عباده المخصلين .

فقد أصبح أمر موسى شغل فرعون الشاغل هو والمحيطين به من قومه والمقربين إليه من أعوانه .

وما زال فرعون يحاول الاستنجاد بكبريائه المزعومة ، يباهى بها بين المحيطين به ، فمن آن لآخر يذكرهم بقوته وسلطانه .

كأن يقول لهم ما ذكره القرآن الكريم عنه : ﴿أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى﴾ ؟(٥٦).

---

(٥٥) سفر الخروج . الإصحاح الخامس .   (٥٦) الآية ٥١ من سورة الزخرف .

والبلغاء يعرفون أن هذا أسلوب استفهامى الغرض منه التقرير . فكأنه يريد أن يقررهم بهذه الحقيقة .

وهو لم يلجأ إلى مثل هذا الأسلوب إلا لأنه أحس أن هناك شكًا يراود نفوسهم حول هذه الحقيقة .

أو لعله من منطق الاستعلاء استكثر أن يدعوه هذا الشخص الحقير - فى نظره - إلى دين غير ما يدين به ، وهو صاحب هذا الملك العريض والجاه الواسع والثروة الطائلة .

إن مصر فى ذلك الوقت قصبة الدنيا وحاضرة العالم ورمز الحضارة ومركزها الحضارى . فنيلها يفيض بالخير وأرضها تجود بالعطاء ، وجوها عطر ، وثمارها خير ثمار الدنيا ، ورزقها وفير وخيرها كثير ، وعيشها نضير ، وماؤها نمير ..

فمن حق ملكها أن يكون سيد ملوك العالم . فكيف يكون تابعًا لصعلوك من صعاليك بنى إسرائيل ، يلفت نظره إلى أن هناك إلهًا غيره ؟ وهل يملك الإله اكثر مما يملكه هو ؟

وأتبع فرعون ذلك بالسخرية من موسى الذى يزعم أنه رسول واصفًا إياه بما يعده من خلال وجهة نظره عيبًا ، ويدخل نفسه فى مقارنة بينه وبين موسى .. فيقول : ألست أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين .

لقد وصف موسى بصفتين إحداهما أنه من عامة الناس المضطهدين . أى من الطبقة السفلى التى يستعبدها فرعون وقومه ، وأنه لا يستطيع الإبانة عما فى نفسه .

لقد قاس فرعون الناس بمنظاره هو ، منظار التفاخر الكاذب والإدعاء الباطل والتعالى والغرور .

فمقياس العظمة عند هؤلاء الانتساب إلى الأسر العريقة ، والمغالاة فى الزينة والرياش وارتداء أفخر الثياب .. وقد كان موسى لا يولى أهمية لكل ذلك .

إن ملابسه متواضعة جدًا ، رداء من صوف ، وقلنسوة من صوف ، وسراويل من صوف ، لباس العامة والقانعين الراضين الذين يرتفعون بأنفسهم عن

زخارف هذه الدنيا طمعًا فى المتاع الباقى عند الله ، إنهم يؤثرون الآخرة الباقية على الدنيا الفانية .

أما فرعون فقومه يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة .. والآخرة خير وأبقى .

وكيف يُذهب موسى نصيبه عند الله وما ادخره له من طيبات لقاء زخرف زائل وعرض فان ؟

ولقد أتبع فرعون سخريته من موسى بقوله بقوله الذى يظهر به مقياسه فى التعالى على الناس : ﴿فلولا القى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين﴾[٥٧] ، ليظاهروه في دعوته ويؤيدوه فيما يقوله ، ويكونوا من حوله حشمًا وحرسًا ، حتى يكون مناظرًا لى فى حشمى وحرسى ؟؟

وكان موسى من بنى إسرائيل ، ونسبه عند الله عريق ، فهو من سلالة أنبياء ، ولكن هذا النسب عند فرعون لا يساوى شيئًا ، لأن الإسرائيليين أصبحوا أذلاء محتقرين مسخرين .

ولو فقه فرعون التاريخ ، ونظر إلى الوراء قليلاً ، لأدرك أن جد هذا الذى يسخر منه هو الذى أنجب يوسف الصديق الذى أنقذ مصر من كارثة محققة ، وكان يعتلى فيها عرشًا عظيمًا ، وأتت إليه الناس من شتى الأقطار خاضعة تطلب الميرة والقوت ، فيكرمها ويردها غانمة سالمة شاكرة .

ولم يكن فرعون يهدف من وراء سخريته بموسى إلا مزيدًا من التنكيل بالإسرائيليين والبطش بهم .

وود لو أن يده الآن فى عنق موسى تطبق عليه فيعصرها عصرًا ، ويخلص مصر من دعوته ..

ووسط هذا الجو القاتم يظهر شعاع النور ويقوم رجل من آل فرعون أنفسهم يصحح الأوضاع فى نظر هؤلاء القوم المعاندين ، ويطلق صيحة يحاول أن يرد بها العقول إلى الرءوس .

---

(٥٧) الآية ٥٣ من سورة الزخرف .

كان هذا الرجل هو «حزقيل» فى رواية بعض العلماء، أو «شمعان» فى رواية أخرى[٥٨].

ويقال: إنه هو الذى حذر موسى سابقًا حين قتل القبطى. ونصحه بالخروج من مصر خوفًا من القتل فخرج إلى مدين.

وهو صِدّيق، بناء على الأثر الذى ذكره القرطبى وقال فيه: الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل يسن، ومؤمن آل فرعون الذى قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله، والثالث أبو بكر الصديق وهو أفضلهم[٥٩].

ويصدقه ما حدث من أبى بكر رضى الله عنه بعد وفاة أبى طالب حين تظاهر القرشيون ضد النبى - ﷺ - وآذوه فدافع عنه أبو بكر دفاعًا مجيدًا، وهو يقول أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله، وأصيب أبو بكر إصابات بالغة وهو يدافع عن النبى - ﷺ -.

لقد هيأ الله مؤمن آل فرعون ليقول كلمة حق عند سلطان جائر، وهذا هو أفضل الجهاد، ونافح هذا الرجل عن موسى - عليه السلام - وناقش قومه بالمنطق.

قال لهم: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟ بهذا الأسلوب الانكارى التعجبى.

وهذا قول حق. فما ذنب موسى؟ هل ذنبه أنه جاء ليقول: إن ربى الله وليس فرعون؟

إنه لم يرفع فى وجهكم سيفًا .. ولم يقوض لكم حكما، ولم يعلن ضدكم ثورة.

إنه لم يزد على أن قال كلامًا حقًا. فهل تقابلون القول بالقتل؟

---

(٥٨) تفسير القرطبى - سورة غافر - ص ٥٧٥٠.

(٥٩) الحديث ذكره السيوطى فى جمع الجوامع برقم ٣٥ / ١١٠٨٣ بلفظ: «الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل يسن، وحزقيل مؤمن آل فرعون وعلى بن ابى طالب وهو افضلهم» وقال: اخرجه ابو نعيم في المعرفة عن ابى ليلى، وفيه عمرو بن جميع متهم بالوضع، واخرجه ابن النجار عن ابن عباس، وفيه محفوظ بن ابى توبة ضعيف، ولكن ابن عساكر رمز لحسنه راجع جمع الجوامع جـ ٢ ص ٣٧٣ ط. مجمع البحوث.

ثم إنه جاءكم بأدلة تثبت صدقه، وهذه الأدلة ظهرت في العصا التى لقفت ما أتى به السحرة ، وفى اليد التى أعشى نورها الأبصار ..

وصاحبت مجيئه آيات وخوارق كادت تهلككم لولا أن ردها الله عنكم ببركة دعائه .. وهذه الآيات تظهر فيما يأتى :

الآيات التسع :

حين اشتد العسف ببنى إسرائيل لجأ موسى إلى الله –سبحانه وتعالى– شاكيًا ما لقيه قومه من أذى، وما لقيه من قومه من اعتراض. فأيده الله بآيات بينات سوى الآيتين الأوليين وهما العصا واليد.

فقد أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات وألوان أخرى من العذاب منها :

الطوفان. فقد أرسل الله على قوم فرعون أمطارًا مغرقة وسيولاً جارفة، وفاض النيل زيادة عالية، فأتلفت الزروع وأهلكت الثمار ..

وقال بعضهم : إن المقصود بالطوفان هنا كثرة الموت فى آل فرعون بالطاعون الجارف ..

ولعل التفسير المتبادر إلى الذهن وهو الماء الكثير الذى جاء من مصادر متعددة وترتب عليه هلاك الزرع والضرع هو الأولى بالمعنى والأقرب إلى الفهم.

ولجأ فرعون إلى موسى طالبًا منه أن يدعو ربه ليكشف عنهم هذا العذاب، ودعا موسى ربه، وانكشف العذاب. ولم يؤمن فرعون كما وعد.

فابتلاهم الله بالجراد الذى قضى على البقية الباقية من الزرع الذى لم يلحقه الدمار بالطوفان ..

ولجأ فرعون أيضًا إلى موسى، ودعا موسى ربه عز وجل، فانكشف الجراد وهلك، ومع ذلك لم يؤمن فرعون أيضًا

فأرسل الله عليهم القُمَّل، وهو غير القمْل المعروف ..

قيل : هو السوس، وقيل هو الجراد الصغير، الذى لا أجنحة له، وقيل : هو القراد، وقيل : هو البعوض والذُّبَّان.

روى الدميرى أن موسى – عليه السلام – مشى بعصاه إلى كثيب أعفر مهيل بقرية من قرى مصر تدعى «عين شمس» فضربه بعصاه، فانتشر كله قملاً فى مصر، فتبع ما بقى من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكله ولحس الأرض..

فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم منه، أخذ بشعورهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم، ولزم عيونهم كأنه الجدرى..

فصاحوا إلى موسى : إنا نتوب فادع ربك يكشف عنا العذاب، فدعا ربه فكشفه عنهم بعد ما أقام سبعة أيام من السبت إلى السبت(٦٠). ومع ذلك لم يؤمنوا.

ثم بعث الله عليهم الضفادع التى ملأت بيوتهم وأفنيتهم، وخالطتهم فى حياتهم، وشاركتهم فى فرشهم وأطعمتهم وآنيتهم.

ولقوا منها أذى شديدًا ولم يجدوا مكانًا يستريحون فيه، ولا طعامًا يأكلونه ولا شرابًا يتذوقونه خاليًا من الضفادع.

وصرخوا إلى موسى، ولجأ موسى إلى ربه ودعاه فكشف عنهم هذا البلاء بعد ما أقام عليهم أسبوعًا.. ومع ذلك لم يؤمنوا.

ومكثوا سهرًا فى عافية ثم أرسل الله عليهم الدم، قيل : هو الرعاف، وقيل : هو الدم العادى سلطه الله على القبط خاصة، فلا يغرفون ماء من نهر أو بئر إلا وجدوه دمًا عبيطًا أحمر..

وكان فرعون يجمع القبطى والإسرائيلى على الإناء الواحد فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء، وما يلى القبطى دمًا..

ولجأوا إلى موسى، ودعا موسى ربه فكشف عنهم ما هم فيه. ومع ذلك لم يؤمنوا.

آيات متوالية من العذاب، والعذاب هو الرجز الذى أشار الله – سبحانه – إليه بقوله : ﴿ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾(٦١).

---

(٦٠) حياة الحيوان جـ ٢ ص ٤٥٨.   (٦١) الآيتان ١٣٤، ١٣٥ من سورة الأعراف.

كانت الآية تأتيهم فتظل أسبوعًا، ثم تنكشف بدعوة موسى، ثم يمكثون شهرًا في عافية، وتأتيهم آية أخرى..

ومع ذلك فما آمنوا وما صدقوا.. وزعموا أن موسى ساحر.. وقالوا له على ما أخبر به القرآن الكريم: ﴿وقالوا يأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون. فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾[٦٢].

ولقد أخبر الله عن ذلك كله.. ولو علم الله فيهم خيرًا لهداهم ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين..

ومن العجيب أنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة وجاءهم الرخاء بعد البلاء ظنوا أن ذلك حق مكتسب لهم، وأنهم نالوا ذلك الخير بجدارة. فإذا ما أصابهم البلاء بعد ذلك قالوا: ما أصابنا ذلك إلا بسبب موسى، وتشاءموا منه وأصروا على كفرهم وعنادهم.. فلا النعمة أرشدتهم ولا النقمة نبهتهم.. وكانوا مع ذلك يضطرون إلى الالتجاء إلى موسى كي يدعو ربه ليدفع عنهم، فانظر إلى حال هؤلاء القوم، وتذبذبهم بين الإيمان لحظة حاجتهم إلى موسى وبين الكفر لحظة استغنائهم عنه. وهذه هي الحماقة الكبرى.

عودة إلى مؤمن آل فرعون:

ذكّرهم مؤمن آل فرعون بهذه الآيات التي جاء بها موسى - عليه السلام - وقال لهم في منطق معقول:

ماذا تنقمون من موسى بعد أن جاءكم بهذه البينات من ربكم؟

إن كان كاذبًا فلن يضيركم شيئًا، فكذبه على نفسه ويحيق به وحده. ولكنه إن كان صادقًا عاد ذلك عليكم بالخير إن آمنتم به. وإلا حلت بكم النقمة التي توعدكم بها.. وقد رأيتم بأعينكم مدى العذاب الذي سلط عليكم..

وقال لهم:

---

(٦٢) الآيتان ٤٩، ٥٠ من سورة الزخرف.

أنتم الآن ملوك، ولكم الملك ظاهرًا فى الأرض، وقد اتسعت مملكتكم شرقًا وغربًا. ولكن ذلك لن يغنى عنكم شيئًا إذا جاء بأس الله..

ولكن هذا الكلام لم يعجب فرعون. وكيف يعجبه؟ إن هذا الرجل يريد منه أن يتنازل عن كبريائه فيؤمن بموسى؟؟

والتفت إلى «حزقيل» فى جبروت ظاهر واستبداد بالرأى، وخاطب الجميع ولكنه عنى حزقيل فى المقام الأول: ليس هناك رأى صائب إلا ما أراه، وليست هناك دعوة راشدة إلا ما أدعو إليه..

فاتركوا ما يزعمه حزقيل وما يريده من مهادنة موسى والتفكير فيما يدعو إليه. ولكن الرجل المؤمن استمر فى نصحه قائلاً:

ليست هناك أمة تكبر على عذاب الله، وهناك أمم كبيرة بادت وحق عليها القول فدمرت تدميرًا.. وأنا أذكركم ما أصاب المكذبين بالأنبياء من قبلكم.

ولعله ألمح إلى ما أصاب قوم نوح الذين أغرقهم الطوفان، وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب، هؤلاء الذين خرجوا على أنبيائهم ولم يؤمنوا بدعوتهم فكانت عاقبتهم الهلاك والضياع.

وأخذ يحذرهم أيضًا من يوم القيامة، والفراعنة يؤمنون بالبعث، كما يحكي عنهم وما بنوا الأهرامات إلا استعدادًا لذلك اليوم، لقد أرادوا أن يحفظوا أجسادهم حتى ترد سليمة يوم القيامة..

وأتى لهم بشاهد من بنى وطنهم فقال لهم: ألم يأت يوسف من قبل إلى آبائكم وأجدادكم؟ وقد شكّوا فيما جاء به مع أنه عين الصواب ومعدن الحق، وكذبوا به فضلوا.. قال تعالى:

﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾[٦٣].

فماذا كان رد فرعون على هذا النصح الكريم والمنطق السليم؟

---

(٦٣) الآية ٣٤ من سورة غافر.

كان رده ردًا يملؤه الجفاء والكفر ، لم يلتفت إلى هذا الناصح الحكيم ، ولكنه أعرض عنه جملة وتفصيلاً ، وازدراه . ونظر إلى هامان قائلاً له : ليس هناك إله غيري .. يا هامان ابن لي صرحًا لعلي أطلع إلى إله موسى .. وما أظن أن هناك إلهًا سواي . لقد كذب موسى علينا . وما أظنه صادقًا فيما يزعمه ..

ولم يتوان هامان في تنفيذ أمر سيده ومولاه ..

فشيد قصرًا مهولاً عاليًا ، لم ير مكان أعلى منه . اتخذه من الآجُرّ المحمي كما أخبر الله بذلك ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحًا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين﴾(٦٤).

وقال أهل الكتاب : لقد سخّر فرعون بني إسرائيل في بناء هذا الصرح تسخيرًا شديدًا ، وأذاقهم العذاب في جمع ترابه وتبنه ومائه ، وكان الذي يتواني في عمله يضرب ويؤذى(٦٥).

ولم ييأس الرجل بعد من هداية قومه .. فقال لفرعون ومن حوله من الملأ : يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد .. إن هذه الدنيا لا تغني عنكم شيئًا . بل هناك حياة أفضل وأبقى ، يجزى فيها المحسن أضعاف ما قدم ، وإنني أنصحكم إلى مافيه نجاتكم وسعادتكم ، وما يدعو إليه فرعون ضلال عاقبته الدمار والبوار ..

وكأنه أحس منهم تآمرًا عليه وتحفزًا للبطش به ، ففوض فيهم أمره إلى الله فأنجاه من كيدهم ومكرهم ..

وفي الآيات التالية عرض بليغ لهذا الحوار الدائر بين مؤمن آل فرعون وقومه :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ

(٦٤) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٦٥) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٣٣٩ .

اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦))[٦٦]

لقد أظهر الحوار إيمان هذا الرجل وانحيازه الكامل إلى موسى ، وأعلنها صريحة بأن ما يدعو إليه موسى هو الحق ، وأن ما يدعو إليه فرعون هو الضلال .. فتآمر عليه قومه ، وكادوا له ، وعزموا على التخلص منه .. ولكن الله نجاه من كيدهم ومكرهم ..

(٦٦) الآيات ٢٨ : ٤٦ من سورة غافر.

قال بعض الصالحين : عجبت لمن يمكر به ولم يقل : وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد .. والله يقول فى عقبها : «فوقاه الله سيئات ما مكروا» وعجبت لمن وقع فى غم وهم ولم يقل : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . والله يقول فى عقبها : ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾(٦٧) .

وعجبت لمن جمع الناس له جموعهم ولم يقل : حسبنا الله ونعم الوكيل والله يقول في عقبها : ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾(٦٨)..

لقد جعل الله في القرآن دواء لكل داء .. ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا﴾(٦٩).

نهاية طاغية :

واشتد إلحاح موسى على فرعون - بعد أن يئس من إيمانه - أن يترك بنى إسرائيل يرحلون عن هذه الأرض التى كثر إيذاؤهم فيها .

ولم يجد فرعون بدًا من الموافقة على ذلك بعد أن ضاق ذرعًا به ، وبآيات العذاب التى جاءت تترى إليه وإلى قومه ..

ونادى موسى فى قومه بالرحيل ..

واجتمع الملأ من بنى إسرائيل سراعًا وكانوا قد ضاقوا ذرعًا بحياة السخرة والعذاب . وساروا خلف موسى فى اتجاه الشرق ..

ولكن فرعون الذى كان قد أذن لموسى فى أن يأخذ بنى إسرائيل ويخرج ، لم يلبث أن ندم على ذلك ، فتبعهم بجنوده ..

ولماذا تبعهم ؟ قد يكون تبعهم كبرًا وعلوًا ، لقد أقسم - قبل ذلك - أن يجعلهم عبرة ونكالاً ، وخروجهم بهذه الصورة يوحى بأنه نكث فى يمينه ،

---

(٦٧) الآية ٨٨ من سورة الأنبياء .   (٦٨) الآية ١٧٤ من سورة آل عمران .
(٦٩) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .

ولم يكن بارًا فى قسمه، وهذا لا يتفق مع دعواه بأنه الرب الأعلى الذى إذا قال فعل.

أو تبعهم لأنه خشى أن يعودوا بعد خروجهم وقد ازدادوا قوة واكتسبوا فى الحروب خبرة فيقضون على ملكه وينتقمون منه شر انتقام. فهو يريد باتباعه لهم أن يقضى عليهم الآن قبل أن يقضوا عليه غدًا.

أو تبعهم لأنه كبر عليه أن يخرجوا دون أن يحصلوا منه على إذن خاص. لقد أذن لموسى إذنًا عامًا، ولم يحدد له وقت الخروج، فخروجهم بهذه الصورة فيه مجافاة لطاعة فرعون ينبغى أن يؤاخذوا عليها ويعاقبوا بسببها.

أو تبعهم لأنه أراد أن يأخذ ما معهم من حلى وغير ذلك مما خف حمله وغلا ثمنه وكان يرى أن هذه الأشياء هى ملك للمصريين وليس لبنى إسرائيل حق فيها.

إن كل ذلك جائز. ولكن الله جلت حكمته كان قد سبق فى علمه أن يهلك فرعون وقومه بصورة تكون عبرة لمن تسول له نفسه أن يتجرأ على مقام الألوهية.

لقد استكبر فرعون فى الأرض استكبارًا شديدًا، وعتا عتوًا كبيرًا، ولم يقف عند ذلك الحد، بل فعل ما هو أكثر من ذلك كما قال عز وجل: ﴿فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى﴾[٧٠].

تبًا لك يا فرعون، أبلغت بك الجرأة أن تكابر فتدعى لنفسك هذا المقام؟ والمولى –عز وجل– يقول فى حديث قدسى: «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى من نازعنى واحدًا منهما قذفته فى النار ولا أبالى»[٧١].

وما زال موسى وقومه جادين فى السير حتى وصلوا مع شروق الشمس إلى ساحل بحر القلزم –البحر الأحمر–.

---

(٧٠) الآيات ٢٢ : ٢٤ من سورة النازعات.

(٧١) أخرجه أبو داود فى سننه –باب ما جاء فى الكبر جـ ٤ ص ٥٠. وفى كتاب الأحاديث القدسية حديث رقم ٢٧١ ص ٢٧٠. ط. دار الفكر العربى.

ونظر الإسرائيليون فإذا البحر أمامهم وفرعون فى جنود لا قبل لهم بها وراءهم. فقالوا لموسى: إنا لمدركون.

ومعنى هذه العبارة بلغة الواقع: إنا لهالكون..

ولك أن تتصور مدى الجزع الذى أصاب الإسرائيليين، ولكن موسى على العكس منهم كان رابط الجأش مطمئن الفؤاد واثقًا فى معونة الله له..

لقد وعده الله بالنجاة، وعلمه طريق الخلاص..

ولذلك رد على قومه فى إيمان: كلا إن معى ربى سيهدين..

وكان معه ربه حقًا..

أمره أن يضرب البحر بعصاه، فضربه، فانفلق البحر اثنى عشر طريقًا بعدد أسباط بنى إسرائيل. كل سبط عبر من طريق..

وجاء فرعون ومن معه.. ووجدوا الطرق أمامهم فى البحر ممهدة فقال فرعون -فيما يحكيه الدميرى-: انظروا إلى البحر كيف انفلق من هيبتى حتى أدرك عبيدى الذين أبقوا؟

وأمر جنوده بالعبور خلفهم قائلاً: ادخلوا وراءهم البحر..

فهاب قومه أن يدخلوا. وقالوا له: إن كنت ربًا حقًا فادخل البحر أمامنا كما دخل موسى أمام قومه..

وتردد فرعون فى اقتحام البحر.. كان يريد أن يعبر الجنود ويرقب عبورهم وهو على الشاطئ..

وكان فرعون على حصان أدهم، ولم يكن فى خيل جنوده فرس أنثى. فجاء جبريل - عليه السلام - على فرس أنثى وديق - تشتهى الفحل - فتقدم وخاض البحر، فلما شم حصان فرعون ريح الفرس اقتحم البحر فى أثرها، ولم يملك فرعون من أمره شيئًا، وهو لايرى فرس جبريل، فاقتحمت الخيول كلها خلفه البحر.

وجاء ميكائيل - عليه السلام - على فرس خلف القوم يسوقهم، حتى لم يبق رجل منهم على الشاطىء، وهو يقول لهم: الحقوا بأصحابكم.

حتى إذا خاضوا البحر وتوسطوه، وخرج موسى – عليه السلام – ومن معه من البحر إلى الشاطىء، أمر الله البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم فأغرقهم أجمعين.

كان بين طرفى البحر أربعة فراسخ..

وغرق آل فرعون بمرأى من بنى إسرائيل، وذلك قوله – تعالى –: ﴿وأنتم تنظرون﴾ أى إلى مصارعهم[٧٢].

وهتف فرعون بأعلى صوته وقد أيقن بالهلاك. وكأنه قد عاين ما أعد له من عذاب وانتقام فأراد أن ينجو منه مستغيثًا بموسى.. كما استغاث به من قبل فى كشف الآيات التى سلطها الله عليهم فى الدنيا. وظن أن النطق بالشهادة يشفع له..

فهتف قائلاً: لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين..

قاتله الله.. لقد استنكف أيضًا أن ينطق باسم الله.. فلم يقل لا إله إلا الله.. وكأن الله أراد ألا يتشرف لسان فرعون بنطق اسمه جل وعلا..

ولكنه يتلقى الرد على ذلك بقول الله تعالى: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾[٧٣].

لقد طمع فرعون بهذه الكلمة أن ينجو من عذاب الله. ولكن هيهات.

إن الله جعل مصيره عبرة لمن يعتبر..

ولقد طوى البحر أجساد أصحابه جميعًا ولفظ جسده هو وحده، وقذفه على الشاطىء، لأن كثيرًا من الناس ومنهم عبرانيون كانوا لا يعتقدون أن فرعون يغرق، فأظهر الله جسده ليكون آية لهم وعبرة، وليوقنوا بأنه ليس أكثر من بشر، يتعرض لما يتعرض له غيره من الهلاك والدمار وعوارض الحياة.

---

(٧٢) انظر حياة الحيوان جـ ١ ص ٤٠٦. (٧٣) الأيتان ٩١، ٩٢ من سورة يونس.

فرعون مات كافرًا :

ولا عبرة لقول من يقول إن فرعون بهذه الكلمة التى قالها أعلن إسلامه واصبح مسلمًا . فالإسلام له شواهد ، وقد ظل فرعون مصرًا على كبره وكفره حتي آخر لحظة من حياته .. ولم يتفوه بهذه اللفظة التي قالها إلا بعد أن عاين مصيره .. والإسلام ساعة الغرغرة لا يجدى . إن حال فرعون هو حال من ورد فى حقه :

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾)[(٧٤)]

ولقد جاءت هذه الآيات فى آخر سورة غافر التى قصت قصة فرعون بتفصيل دقيق ..

ثم إن موت فرعون على الكفر ثابت بنصوص القرآن الكريم نفسه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾)[(٧٥)]

وهناك آيات أخرى غير هذه ..

فليس لمكابر أن يزعم أن فرعون بكلمة « آمنت » قد نجا ، بعد أن دمغه القرآن الكريم بالكفر الصريح ، وأوضح عاقبته أمام الأبصار ، وحتى لا يطمع طامع فى أن يظل الإنسان سادرًا فى كفره حتى إذا أيقن أن الموت قد احاط به تبرأ من كفره .. قال تعالى :

---

(٧٤) الآيات ٨٣ : ٨٥ من سورة غافر .

(٧٥) الآيات ٩٦ : ٩٩ من سورة هود .

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ (٧٦)

إن عدل الله أحق بالتطبيق فى جانب هؤلاء .

أما رحمة الله التى وسعت كل شىء فهى قريبة من المحسنين ويكتبها للمتقين .

لقد وردت قصة هلاك فرعون وقومه ، فى مواضع متفرقة مفصلة وموجزة ..

فى سورة الأعراف(٧٧) ، وسورة يونس(٧٨) ، وسورة الإسراء(٧٩) ، وسورة طه(٨٠) ، وسورة الشعراء(٨١) ، وسورة القصص(٨٢) ، وسورة الزخرف(٨٣) ، وسورة الذاريات(٨٤) ، وفى سورة الدخان ، وهذه آيات من سورة الدخان :

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (٨٥)

---

(٧٦) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة النساء .   (٧٧) الآيتان ١٣٦ ، ١٣٧ .
(٧٨) الآيات ٩٠ : ٩٢ .   (٧٩) الآيات ١٠٣ : ١٠٥ .
(٨٠) الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .   (٨١) الآيات ٥٢ : ٦٨ .
(٨٢) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .   (٨٣) الآيتان ٥٥ ، ٥٦ .
(٨٤) الآية ٤٠ .   (٨٥) الآيات ١٧ : ٣١ .

لقد كان هلاك فرعون استجابة لدعوة موسى وهارون - عليهما السلام - حين اشتد أذاه لهما ولقومهما فقالا فيما يحكيه القرآن الكريم:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٨٦)

وبهلاك فرعون انطوت صفحة أخرى من صفحات الكفر والشقاق.

وبقيت قصته علامة على الطريق تذكر الناس بما يجب عليهم، نحو خالق الوجود الملك المعبود، الذى لا يغلبه غالب، ولا يقدر على مطاولته محارب..

قال عز وجل مبرزًا قدرته القادرة:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ (٨٧)

★ ★ ★

---

(٨٦) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة يونس. (٨٧) الآيات ٦ : ١٤ من سورة الفجر.

موسى وبنو إسرائيل

صفحة جديدة في الجهاد :

وكانت نجاة موسى وقومه يوم عاشوراء .. وأصبح هذا اليوم ذكرى طيبة يصومونها كل عام ..

ولما دخل النبي – ﷺ – المدينة بعد الهجرة ، وجد اليهود فيها يصومون يوم عاشوراء فسألهم عن سبب صيامه ، فقالوا : هذا يوم نجى الله فيه موسى . فقال : نحن أحق بموسى منكم(٨٨) . وصامه النبي – ﷺ – .

ولم تنته مهمة موسى – عليه السلام – بعبوره البحر إلى سيناء ، وتوجهه بقومه إلى ديار أجدادهم في كنعان ، حيث كان يقيم الجد الأعلى يعقوب – عليه السلام – ومن قبله أبوه اسحاق وإبراهيم – عليهما السلام – .

لقد كان جهاد موسى – عليه السلام – مع قومه أشق من جهاده مع فرعون .. وتعرض موسى معهم لسلسلة من المتاعب القاسية التي تعصف بلب الحكيم ، وتذهب بحلم الحليم .

ولولا مؤازرة الله له لما أطاق تصرفاتهم ، ولما أمكنه الصبر على شقاقهم ونفاقهم .

لقد جبل الله هؤلاء القوم على العناد ، والقرآن الكريم يصور لنا جوانب متعددة من ذلك سوف نعرض لها بتوفيق الله تعالى ومشيئته .

وكتابهم الذي بأيديهم يشهد بذلك . وهذه بعض نصوصه :

---

(٨٨) أخرجه البخاري ومسلم ، وذكره القرطبي جـ ٦ ص ٣٩١ .

«فتذمر كل جماعة بنى إسرائيل على موسى وهارون فى البرية، وقالوا لهما: ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزًا للشبع، فإنكما أخرجتمونا إلى هذا القفر لتميتا كل هذا الجمهور بالجوع»(٨٩).

«ونزلوا فى رفيديم ولم يكن ماء ليشرب الشعب، فخاصم الشعب موسى، وقالوا: أعطونا ماء لنشرب، فقال لهم موسى: لماذا تخاصموننى؟ لماذا تجربون الرب؟ وعطش هناك الشعب إلى الماء، وتذمر الشعب على موسى، وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر؟ لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش؟»(٩٠).

«فقال الرب لموسى: اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر، زاغوا سريعًا عن الطريق الذى أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلاً مسبوكًا وسجدوا له وذبحوا له»(٩١).

«وقال الرب لموسى: رأيت هذا الشعب، وإذا هو شعب صلب الرقبة فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم»(٩٢).

لقد ضاقوا سريعًا بالحرية وتمردوا عليها.. وكأنهم كانوا يريدون استمرار الحياة فى ذل وتسخير فى ظل الفراعنة ويفضلونها على الحرية والعزة والكرامة.

وغلبت الوثنية عليهم، ونسوا أنهم نسلوا من أصلاب الموحدين..

وربما سرت إليهم هذه الوثنية من مجاورتهم للمصريين تلك القرون الطويلة وكان المصريون يعبدون آلهة شتى، ووصل بهم الأمر إلى أن اتخذوا فرعون إلهًا يسجدون له من دون الله.

لم تكن إقامة بنى إسرائيل فى مصر قصيرة، ولكنها استطالت حتى تجاوزت القرون الأربعة نما فيها شعبهم نموًا كبيرًا. جاءوا إلى مصر سبعين، وخرجوا فى حدود السبعمائة ألف.

---

(٨٩) سفر الخروج. الإصحاح السادس عشر.

(٩٠) سفر الخروج. الإصحاح السابع عشر.

(٩١) سفر الخروج. الإصحاح الحادى والثلاثون.

(٩٢) المرجع السابق.

وأربعة قرون ليست بالزمن القصير ، لقد نشأت في ظلها أجيال متتابعة قلدت غيرها في عبادتها وتقاليدها الاجتماعية والدينية . هذا على الرغم من أن هؤلاء كانوا انعزاليين بطبعهم لا يميلون إلى الخلطة مع غيرهم ، ولا يرغبون في التزاوج من غير جنسهم . ولكنه الزمن وفعله .

وكانت رسالة موسى موجهة إلى قومه بالدرجة الأولى .

وهكذا كانت رسالات الأنبياء قديمًا . إنها رسالات خاصة بذويهم ، ولم تكن هناك رسالة عامة بالمعنى المفهوم لعمومية الرسالة إلا لخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد – ﷺ – الذي يقول الله في حقه : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[93]. ويقول له : ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[94].

هل عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد فرعون ؟

إن المتأمل لبعض الآيات الكريمة الواردة في شأن بني إسرائيل يفهم أن بني إسرائيل ورثوا فرعون وقومه بعد هلاكهم .

انظر إلى قوله – تعالى – :

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾ [95]

وإلى قوله تعالى :

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾ [96]

---

(٩٣) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .   (٩٤) الآية ٢٨ من سورة سبأ .
(٩٥) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف .   (٩٦) الآيات ١٠٢ : ١٠٤ من سورة الإسراء .

وإلى قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وعُيُون . وكُنُوزٍ ومَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[٩٧].

تجد فيها ما يشير إلى أن بنى إسرائيل عادوا إلى مصر ليرثوا فرعون وقومه . وقد فهم ذلك بعض المفسرين ، واعتمدوا في فهمهم على ماجاء في بعض التواريخ التي تقول : إن موسى استولى على مصر ، وتمتع هو وقومه بالسيادة فيها طائفة من الزمن تقدر بثلاثة عشر عامًا ، ثم أُخرج منها بعد ذلك[٩٨].

ولا يمتنع عقلاً بعد أن هلك فرعون وجنوده غرقًا في البحر أن يعود بنو إسرائيل إلى مصر ، فلا يوجد من يصدهم عن ذلك .. ولكن المتعارف في التاريخ المشهور هو أن انشغال الإسرائيليين بأنفسهم ، ومحاولة موسى معهم أن يسوقهم إلى الأرض المقدسة التي وعدهم بها صرفهم عن العودة إلى مصر ..

وجمهور المفسرين يرون أن الأرض التي ورثها بنو إسرائيل من فرعون ، والتي تشير إليها الآيات السابقة وغيرها ، هي أرض الشام ذات الجنات الكثيرة والخيرات الوفيرة ، وقد كانت هذه البلاد واقعة فعلاً تحت سيطرة فرعون في ذلك الوقت . فبغرق فرعون خرج المصريون منها وورثها بنو إسرائيل .

وبركة هذه الأرض معروفة بنص القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾[٩٩].

وقال : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾[١٠٠].

والضمير في نجيناه يعود على إبراهيم – عليه السلام – .

---

(٩٧) الآيات ٥٧ : ٥٩ من سورة الشعراء . (٩٨) تفسير المنار جـ ٩ ص ٨٦ .
(٩٩) الآية الأولى من سورة الإسراء . (١٠٠) الآية ٧١ من سورة الأنبياء .

وقال : ﴿ ولِسُلَيْمَان الرِيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾[١٠١] .

وهذا هو التفسير الذى يطمئن إليه القلب ويؤيده المشهور من وقائع التاريخ .

جهود موسى مع قومه :

قلنا إن رسالة موسى – عليه السلام – كانت قاصرة على قومه بنى إسرائيل ، ولذلك كانت مهمته تكاد تكون مقصورة على إخراجهم من مصر أولاً ، ليتولى بعد ذلك تربيتهم على دستور الرسالة التى أرسل بها .

وكانت دعوته التى أرسل بها هو وأخوه هارون إلى فرعون مهتمة أولاً بإخراج بنى إسرائيل . وهذا ما يبدو فى قوله – تعالى – : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَونَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِين . أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾[١٠٢] .

وفي قوله – تعالى – : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾[١٠٣].

وعلى الرغم من طول المسافة التى قضاها موسى وهارون بين بنى إسرائيل فى مصر قبل الخروج إلا أنهما لم يجدا استجابة تذكر لما يدعوان إليه بينهم . وقد ذكر القرآن الكريم ذلك بقوله : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُم وإِنَّ فِرْعَونَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِين ﴾[١٠٤].

وبدأ شقاق قوم موسى عليه فور خروجهم من البحر وانسياحهم فى الأرض التى هبطوا فيها .

---

(١٠١) الآية ٨١ من سورة الأنبياء .

(١٠٢) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الشعراء .

(١٠٣) الآية ٤٧ من طه .

(١٠٤) الآية ٨٣ من سورة يونس .

طلبهم اتخاذ الأصنام :

اتجه موسى بقومه بعد أن تجاوزوا البحر إلى حيث الأرض المقدسة ، وكان يقيم في الأرض التي مروا بها قوم من العرب . قيل : إنهم من لخم وجذام .

وكانوا يعكفون على أصنام لهم يعبدونها من دون الله .. كانت تماثيل من نحاس للبقر .

فما أن رأى الإسرائيليون هذه الأبقار النحاسية حتى أعجبوا بها .

فقالوا لموسى : اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ..

فوصفهم موسى بالجهل .. وأنحى عليهم باللائمة .. قال لهم : إنكم قوم تجهلون . فلو كانوا على علم لما قالوا ذلك الكلام . وهذا هو الفرق بين الجاهل والعالم .

إن العالم يستعمل عقله ، أما الجاهل فهو يلغى عقله ..

وقد استعمل السحرة عقولهم فاهتدوا ، وضحوا بأنفسهم في سبيل عقيدتهم ، وأما غيرهم فران الجهل على عقولهم وأفئدتهم ، فضلوا ولم يهتدوا ، وحق عليهم هذا الوصف ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ .

قال لهم موسى : إن هؤلاء القوم هالكون ، وباطل ماهم فيه ، وما أرسلت إليكم إلا لتقيموا الدين الصحيح ، ولتعبدوا الله وحده لا شريك له ، وتبتعدوا عن الوثنية والشرك .

إن السعادة كلها لن يجدها الإنسان إلا فى حمى الله وحده ، وفى عبادته حق عبادته ، وفى عدم الإشراك به ، وفى إسلام الوجه له .

وكيف أبغيكم إلهًا غير الإله الذى تفضل عليكم بنعمته ، وفضلكم على هؤلاء الخلق الذين ترونهم أمامكم ؟ وهذه الأفضلية لم يستحقها بنو إسرائيل إلا لأنهم انفردوا عن كافة الخلق فى زمنهم بالاقرار لله بالوحدانية . فأى فضل يكون لهم لو اشركوا بالله شيئًا ؟

إن أى شعب يؤمن بالله وحده يفضل غيره .. فهذا هو مقياس الأفضلية فى كل زمان ومكان .. وليست الأفضلية بالعِرْق أو النسب .. وقد أخبر الله

-تعالى- عن هذا المقياس فى قرآنه الكريم بقوله: ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(١٠٥).

وحين جاء الإسلام تفرد المسلمون فى العالم أجمع بعبادة الله وحده وأخلصوا الدين له، وطبقوا التعاليم التى جاء بها رسول الله -ﷺ- فاستحقوا الأفضلية التى أخبر الله عنها فى كتابه الكريم:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾(١٠٦)

اى لو آمن أهل الكتاب كما آمنتم لشاركوكم هذه الخيرية، واستحقوا معكم الأفضلية.. وهذا سلمان الفارسى رفعه إسلامه إلى منزلة سامية، قال عنه النبى -ﷺ-: «سلمان منا أهل البيت»، وهذا صهيب بن سنان الرومى رفعه إسلامه إلى منزلة رفيعة وعُدَّ من أهل الفضل والرفعة. وهذا بلال الحبشى استحق بإسلامه أن يكون من أفضل الصحابة -رضوان الله عليهم-.

حاول موسى عليه السلام أن يذكر قومه بنعمة الله عليهم، فقد أنجاهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، ويسخرونهم فى معايشهم، ويقتلون أبناءهم ويبقرون بطون نسائهم، وأى بلاء أشد من هذا؟

وكان المنطق يقضى بأن يشكر هؤلاء هذه النعمة العظيمة، نعمة النجاة من ذلك القهر والبطش، وشكرُ الله هو إفراده بالعبادة وعدم الاشراك به. فإذا بهم يطلبون من موسى أن يتخذ لهم عجلاً يعبدونه..

لقد خيبوا ظن موسى -عليه السلام- فيهم حتى أخذ ينحى عليهم باللائمة ويوجه إليهم قوارع الكلم.

---

(١٠٥) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(١٠٦) الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

وقد عبر الله – تعالى – عن هذه المعاني وغيرها بقوله:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾) (١٠٧)

إن أفضلية بني إسرائيل التي أشارت إليها الآيات كانت – كما قلنا – بالنسبة لزمانهم حيث كانوا من سلالة أنبياء.

ولكنهم لم يحفظوا هذه النعمة، بل جحدوها، وجحودهم لها أوردهم مورد التهلكة وردهم إلى أحط منزلة، واستحق كثير منهم سخط الله، حتى إن بعضهم تحولوا إلى قردة وخنازير. ونزل في حق الكافرين منهم قوله – تعالى –:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾) (١٠٨)

لقد شاهد هؤلاء الإسرائيليون بأنفسهم كفاح موسى وأخيه – عليهما السلام – وجهادهما في سبيل إنقاذهم من بطش فرعون وكيده. وجرت أمامهم آيات تحول ذوي القلوب الصلبة المتحجرة إلى أناس رحماء أوفياء أسخياء بررة. ولكن هذه الآيات لم تؤثر في هؤلاء وكانوا على عكس ذلك تمامًا.

---

(١٠٧) الآيات ١٣٨ : ١٤١ من سورة الأعراف.

(١٠٨) الآيات ٧٨ : ٨٠ من سورة المائدة.

في الطريق إلى الأرض المقدسة :

وكانت الأرض المقدسة التي أمروا بالتوجه إليها في أيدي قوم من الجبارين طوال الأجسام عراض المناكب أقوياء . قيل : إنهم كانوا من بقايا عاد ، وقيل : هم من أولاد عيصو بن اسحاق ..

وكانوا يسكنون أريحاء من أرض فلسطين .. وهي الأرض التي أمروا بدخولها ..

وطلب موسى من قومه أن يتوجهوا لدخول هذه المدينة على هؤلاء القوم ، ويسكنونها .. ولكن بني إسرائيل خشوا هؤلاء القوم ، وامتلأت قلوبهم رعبًا . وقالوا لموسى :

كيف ندخل المدينة وفيها هؤلاء القوم ؟

وحاول موسى أن يذكرهم بنعمة الله عليهم الذي أنجاهم ممن هم أشد من هؤلاء بطشًا ، وكيف أن الله نكل بأعدائهم وجعل أجسادهم طعمة لحيتان البحر وتناثرت أشلاؤهم على الشواطيء .. فهو قادر على أن يكفيكم شر هؤلاء الآخرين كما كفاكم شر الأولين ..

وقال لهم أيضًا : اذكروا نعمة الله فقد جعل فيك أنبياء ، فجدكم إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة ، فولد إسماعيل واسحاق ، وكلاهما نبي ، وولد اسحاق يعقوب ، وهو نبي ، وولد يعقوب يوسف وهو نبي .. وجاء بعد ذلك سلسلة من الأنبياء آخرهم أنا وأخي ..

وكما جعل فيكم أنبياء جعلكم ملوكًا .. تملكون أنفسكم ، فبعد أن كان الفراعنة يستذلونكم ويملكون رقابكم ويتحكمون فيكم ، أصبحتم سادة أنفسكم .. والرجل متى أصبح قادرًا على أن يملك زمام نفسه فهو ملك . قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : إن الرجل إذا لم يدخل أحد بيته إلا بإذنه فهو ملك .

وروى يزيد بن أسلم – فيما ينقله القرطبي – عن النبي – ﷺ – : من كان له بيت يأوي إليه وزوجة وخادم يخدمه فهو ملك[١٠٩] ..

---

(١٠٩) تفسير القرطبي جـ ٦ ص ٢١٢١ ط. دار الشعب.

ومقتضى ذلك أن تمتلىء قلوبهم إيمانًا وأن لا ينكصوا على أعقابهم حين يؤمرون بما فيه مصلحتهم، وأن يثقوا بنصر الله لهم وتأييده إياهم بالمعجزات..

عليهم أن يرتفعوا إلى مستوى السادة ليتخلصوا نهائيًا من حياة الذل التى كانوا يعيشون فيها، والتى مازالت فى نفوسهم بقية منها.

ولكنهم رفضوا التقدم، وأصروا على عدم دخول المدينة حتى يخرج منها هؤلاء الجبابرة.

إلا أن رجلين منهم قيل: إنهما «يوشع بن نون» و «كالب بن يوقنا» وهما مؤمنان من صالحى بنى إسرائيل ونقيبان من النقباء الذين اختارهم موسى قالا لقومهما:

لا يدخلكم الرعب من هؤلاء القوم، واقتحموا عليهم باب المدينة، فإنهم لن يثبتوا أمامكم، سيفرون حينما يرونكم، لا تغتروا أيها القوم بطول أجسامهم أو ضخامة أبدانهم، فإن قلوبهم ضعيفة وأبدانهم واهنة.

توكلوا على الله، والمتوكل يمده الله بعونه ويؤيده بنصره.

ولكن بنى إسرائيل أصروا على عدم الدخول ما دام هؤلاء القوم فى هذه المدينة، وقالوا لموسى فى عجرفة وسوء أدب: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون.

وهذا الكلام يدل على كفر صريح منهم، لأنهم شكُّوا فى رسالة موسى – عليه السلام – وقعدوا عن نصرته..

ولم يجد موسى بُدًا من أن يتجه إلى السماء مفوضًا أمره إلى الله متبرئًا من فعل هؤلاء القوم الذين آذوه باعتراضهم وعزوفهم عن الحق وتوليهم عن الجهاد. قائلاً: إنه لا يملك إلا نفسه وأخاه. أما هؤلاء فلم يعد يملك من أمرهم شيئًا، وطلب من الله أن يحكم بينه وبينهم.

واستجاب الله دعاءه، فكتب عليهم التشرد فى الصحراء.. وحرم عليهم دخول الأرض المقدسة المباركة التى لو دخلوها لقرت عيونهم وسعدت أرواحهم. ولكنهم أصبحوا مشردين فى الصحراء تائهين لمدة أربعين سنة..

ومع ذلك فلم يتخل موسى عنهم، ولم يتركهم وشأنهم. بل تاهوا وبقى موسى معهم لم يتخل عنهم. فربما يثوبوا يومًا إلى رشدهم ويعودوا إلى ربهم فيهديهم الله عز وجل. وفى هذه القصة يقول الله - تعالى -:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١١٠)

ولم تفتح هذه المدينة إلا بعد وفاة هارون وموسى .. فتحها يوشع بن نون وسيأتى خبر ذلك إن شاء الله تعالى.

شكواهم الشمس والجوع والعطش - فى التيه -:

كان بنو إسرائيل لا يكفون عن الشكوى والصراخ والضجيج، فشكوا إلى موسى حرارة الشمس، فرفع شكواهم إلى الله، فأرسل الغمام يظلهم ..

وكانوا فى أثناء التيه يمشون نهارهم كله، ثم ينزلون للمبيت. فيصبحون فإذا هم فى المكان الذى كانوا فيه بالأمس.

حيرة لا نهاية لها، أوقعوا أنفسهم بأنفسهم فيها .. لقد عمّى الله عليهم الأرض فلم يعرفوا أين يقصدون ولا أين يسيرون، وهى فراسخ معدودة ولكن التخبط صنع صنعه فأصبحت أمامهم متاهات لا أول لها ولا آخر.

---

(١١٠) الآيات ٢٠ : ٢٦ من سورة المائدة.

ويمكن تحديد المنطقة التي تاه فيها بنو إسرائيل بأنها الطرف الجنوبى الأقصى لفلسطين وكان طولها أربعين فرسخًا فى مثلها تقريبًا ، وهى تمتد من منطقة الفرما العريش إلى طور سيناء ، ويحدها من الغرب مصر ومن الشرق بيت المقدس . ويطلق على هذه المنطقة صحراء التيه .

إنهم لم يبرحوا شبه جزيرة سيناء في تيههم لمدة أربعين سنة .

شكوا لموسى الجوع ، وقالوا له : من أين نأكل وكان لنا قبل خروجنا معك طعام ، -وقد مرت بنا العبارة المقتطفة من العهد القديم في ذلك- .

واتجه موسى إلي ربه رافعًا شكوى قومه إليه ..

فأنزل الله عليهم المن والسلوى ..

والمن : شراب حلو لذيذ كالعسل . وقيل : هى الكمأة ، وهى ثمرة تخرج تلقائيًا ، بدون بذر أو حرث أو سقى أو تعب ، وفيها يقول النبى - ﷺ - : « الكمأة من المن الذى أنزل الله على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين »(١١١).

والسلوى هى طير السُمَانى ، وقال الدميرى نقلاً عن ابن سيده : هو طائر أبيض مثل السمانى واحدة سلوة .

وقيل : السلوى اللحم ، وسمى سلوى لأنه يسلى الإنسان عن سائر الإدام ..

وكان بنو إسرائيل يدخرون المن والسلوى ، وقد نهوا عن اختزانهما ، لأن الله كان يرسل لهم رزقهم تباعًا يومًا بيوم . فكان الذى يختزنونه يتعرض للفساد ، وقد روى البخارى فى أحاديث الأنبياء ، ومسلم فى باب النكاح حديث أبي هريرة -رضى الله عنه- عن النبى - ﷺ - : « لولا بنو إسرائيل لم يختزن اللحم »(١١٢).

لقد كفل الله لهم الرزق ، وكان مقتضى ذلك الشكر والاستجابة السريعة لأمر الله والاستقامة على منهج نبيهم - عليه السلام - .

---

(١١١) رواه مسلم من حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل جـ ١٤ ص ٤ شرح النووى كتاب الأطعمة .

(١١٢) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٤٤ ، ومعنى يختزن : يتغير وينتن .

ولكن الشقاق كان فى طبعهم ، واللجاج كان ديدنهم ، فكانوا لا يكفون عن الضجيج والصراخ والشكوى ، وكلما استجيبوا إلى أمر طلبوا غيره حتى ضج بهم نبيهم موسى - عليه السلام - .

لقد طلبوا منه الماء ، مع أن الله أغناهم عنه بالمن ، فقد كان المن شرابهم والسلوى طعامهم .

ومع ذلك فقد أجابهم الله إلى طلبهم بمعجزة منه جعلها لنبيهم .

أمره الله أن يضرب حجرًا بعصاه .. فضربه . فتفجرت منه اثنتا عشرة عينًا ، لكل سبط من أسباطهم عين يشرب منها .. حتى لا يطغى بعضهم على بعض .

كان الحجر الذى ضربه موسى - عليه السلام - مربعًا .. اطردت من كل جهة من جهاته ثلاث عيون .. كانوا يشربون منها مدة إقامتهم فى المكان الذين توجد فيه هذه العيون فإذا ارتحلوا جفت هذه العيون ..

وهذه معجزة أتاها الله موسى - عليه السلام - ليقر بها عين قومه ، ولتتآلف قلوبهم على الإيمان برسالته ..

وقد أعطى نبينا - ﷺ - مثل تلك المعجزة : فقد تفجر الماء من بين أصابعه - ﷺ - ..

قال القرطبى : روى الأئمة الثقات والفقهاء الإثبات عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبى - ﷺ - فلم نجد ماء بتوْر - إناء يُشْرَبُ فيه - فأدخل - ﷺ - يده فيه ، فقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه ويقول : حى على الطهور . قال الأعمش : فحدثنى سالم بن أبى الجعد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفًا وخمسمائة[١١٣] .

ولم يقنع كل ذلك بنى إسرائيل ولم يؤمنوا بكل هذه المعجزات التى أتى بها نبيهم واستمروا فى ضلالهم ومطالبهم التى لا تنتهى . فطلبوا من موسى عليه السلام أن يطلب من ربه أن يعطيهم أنواعًا أخرى من الأطعمة غير تلك التى منّ عليهم بها ..

---

(١١٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٤٢١ .

فقالوا لن نصبر على طعام واحد وهو السلوى .. إنا نريد ما يخرج من الأرض من بقولها وقثائها، وعدسها وبصلها وثومها ..

فقال لهم موسى : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟

لقد كفل الله لكم حياة رغدة ورزقكم العسل شرابًا والسلوى طعامًا ، فإذا بنفوسكم تشتهى هذه الأطعمة الدنيا .. إن طباعكم طباع من لا يعقل ، حيث يفضلون الأدنى على الأعلى ، لقد أراد الله أن يرفعكم إلى مقام المتوكلين الذين يُرزقون بغير حساب ، فإذا بكم تريدون أن تكدوا أجسامكم بالحرث والبذر والسقى والجنى والحصاد وغير ذلك مما يقوم به الحرَّاث ..

ثم إن ما تاقت إليه نفوسكم - ولو أنه نعمة من نعم الله - إلا أنه ليس بشيء ذى بال تشتهيه النفوس الرفيعة ..

فقيل لهم : إن أردتم ما تتوقون إليه ، فاهبطوا أى مصر من الأمصار . أو عودوا إلى مصر التى خرجتم منها وسوف تجدون ما تريدون وتنالونه بذل وصغار . ذلك بما قدمت أيديكم وما كنتم تصنعون .

وقد أشارت الآيات الآتية إلى هذه الأحداث فى قوله تعالى :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (١١٤)

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (١١٥)

---

(١١٤) الآية ٥٧ من سورة البقرة . (١١٥) الآيتان ٦٠ ، ٦١ من سورة البقرة .

مواعدة موسى :

لقد جرت فى التيه أحداث كثيرة، منها أن الله أراد أن يكرم موسى بمناجاته، فضرب له موعدًا.

أمره بصيام شهر ثم يناجيه الله بعده. فصام موسى – عليه السلام – شهر ذى القعدة كله – ثلاثين يومًا – وأنكر رائحة فمه من طول الصيام فاستاك.

فقالت له الملائكة : يا موسى، إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك، فلماذا أفسدت هذه الرائحة؟

فقال : لقد أنكرت رائحة فمي وأنا ماض لمناجاة ربى، فاستكت. فقالت له الملائكة : أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك؟(١١٦)..

وأمره الله أن يصوم عشرة أيام أخرى، فصام عشرًا من ذى الحجة.

ومضى موسى على أثرها وقد تم له أربعون يومًا صائمًا. مضى لمناجاة ربه، وكان ذلك غداة يوم النحر.

وسمع موسى كلام ربه، واستغرق فيه، وطمع بعد هذه المنة العظمى بتكليم الله إياه أن يتم نعمته عليه برؤيته. فقال : رب أرنى أنظر إليك.

ولكن الله قال له : لن ترانى، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسيمكنك أن ترانى..

وتجلى الله على الجبل بعظمته، فدك الجبل..

وصعق موسى من هول ما رأى..

وأدرك موسى أنه أخطأ في طلب ما ليس من حقه.. فتاب إلى الله وأناب، واستغفر ربه فتاب عليه.. واصطفاه لرسالته وكلامه، وأعطاه الألواح مكتوبًا

---

(١١٦) أورد مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال رسول الله – ﷺ –: قال الله – عز وجل –: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزى به. والصيام جنة. فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يفسق فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إنى صائم. والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك» الأحاديث القدسية جـ ١ ص ١٧٣ حديث رقم ١٦٢.

فيها كل ما يحتاج إليه قومه من مواعظ وآداب واحكام ، وطلب منه أن يأمر قومه باتباع ما فيها ، وعدم الخروج على تعاليمها .

وكان موسى قبل ذهابه لمناجاة ربه قد استخلف أخاه هارون على قومه ، واوصاه بالأناة معهم، واللين لهم ، والإصلاح بينهم، وعدم الاستماع للمفسدين منهم ..

عبادة بنى إسرائيل للعجل :

كان الموعد المضروب لموسى ثلاثين يومًا .. فلما زيد عشرة لم يرجع . فاستبطأه قومه وهم لا يعلمون أن الله زاده عشرة أيام أخرى ، لقد قال إنه سيغيب عنهم ثلاثين يومًا ، فإذا به يتخطاها إلى الأربعين .. فساورتهم الظنون .. ولم يحسنوا الظن بموسى فى غيابه .. وقالوا : لابد أن يكون قد ضل طريقه ، أو نسى الرجوع إلينا ..

واجمعوا أمرهم على أن يتخذوا إلهًا آخر يعبدونه غير الإله الذى دعاهم موسى إلى عبادته ..

يا ويلهم ، ما أضلهم وما أشقاهم .. لقد دل ذلك فعلاً على أنهم أهل شقاق وكفر وفساد ، وليسوا أهلاً لهذه الإكرامات المتتالية والانعامات المتواصلة التى أفاء الله عليهم بها ..

وفكروا كيف يكون الإله الذى يعبدونه .. وكأن الوثنية التى سرت إلى أرواحهم ما زالت عالقة بها ، فأقبلوا على حليهم يجمعونها ثم سلموها لرجل منهم اسمه موسى السامرى[١١٧] ليصنع لهم منها عجلاً يعبدونه .

تسلم السامرى هذه الحلى فصهرها ، وصور منها عجلاً ..

---

(١١٧) هو موسى بن ظفر ، ينتسب إلى قرية أو قبيلة «سامرة» أو شامرة بالشين ، ولد عام قتل الأبناء بمصر ، فأخفته امه فى كهف ، فغذاه جبريل – عليه السلام – وتعهده حتى كبر ، ولذلك عرف جبريل حين رآه يمضى بفرسه امام فرعون إلى البحر . ولما كبر هذا الرجل كان من الضالين الذين يكثرون من الاعتراض على نبى الله موسى – عليه السلام – . وهذا من المفارقات التى لفتت نظر الشاعر فقال :

فموسى الذى رباه فرعون مؤمن   وموسى الذى رباه جبريل كافر

وكان السامرى قد شاهد جبريل على فرسه حين تراءى لفرعون في أثناء عبوره البحر ، فأخذ السامرى قبضة من التراب الذى وطئته فرس جبريل فاحتفظ بها .

فلما أشعل النار ليصهر الحلى ، قذف بقبضة التراب التى التقطها من أثر جبريل في النار مع الحلى . فلما صور من هذا الذهب المصهور عجلاً إذا بهذا العجل يخور كأنه عجل حقيقى .

وقيل إنه جعل العجل مجوفًا فكانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فمه فيسمع لها صوت كأنه خوار .

وقال لبنى إسرائيل : هذا إلهكم وإله موسى الذى نسبه هنا ..

وجن الإسرائيليون بهذا الإله جنونًا ، وفرحوا به فرحًا عظيمًا .

كانوا يجتمعون حوله يرقصون ويتسامرون ، وكلما خار سجدوا له . وعكفوا على عبادته ، وأحبوه حبًا شديدًا . وهذا قوله تعالى : ﴿و أشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم﴾[118] .

لقد استطاع السامرى أن يضلهم ويصرفهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام .

وحاول هارون – عليه السلام – أن يثيبهم إلى رشدهم ، وينبههم إلى خطئهم فلم يجد كلامه معهم شيئًا ، وتكاثروا عليه واستضعفوه ، وكادوا يقتلونه ، وانصرفوا عنه إلى عجلهم يلهون حوله ويرقصون ويصفقون .

وأخبر الله موسى – عليه السلام – بما فعله قومه فى غيبته .

فعاد مسرعًا ، وقد ملأه الغضب واشتد به الضيق .

وألقى ما فى يده من ألواح فتحطمت . وكان إذا غضب وقف شعره ، ولا يكاد يقف فى وجهه أحد من شدة غضبه .

وأخذ يوجه إلى قومه قوارص الكلم ويوبخهم على ضلالهم وما قاموا به من عمل مشين .

---

(١١٨) الآية ٩٣ من سورة البقرة .

ثم انصرف إلى أخيه يأخذ بتلابيبه ، فقد اعتبره مسئولاً عما حدث ، وأخذ بلحيته وجره من رأسه فى غضب صارخ . غضب لله ومن أجله جعله يعنف أخاه الأكبر لرفقه ولينه مع بنى إسرائيل ..

وأقبل على أخيه يلومه على ما حدث ..

فقال له أخوه : على رسلك يا موسى .. ولا تعجل عليَّ في غضبك فما قصرت فى أمرهم ، وما توانيت فى إرشادهم ، وقد هممت أن أتركهم ، ولكنك أوصيتنى بملازمتهم ، وخشيت أن تقول إنك فرقت بين بنى إسرائيل ..

إن العبء كله يقع على عاتق هذا السامرى الذى أضلهم وفتنهم .

إن هؤلاء القوم يا أخى قد استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين بظلمك إياى ..

وهدأ موسى وسكت غضبه ، واتجه إلى ربه يعتذر إليه ويطلب منه المغفرة له ولأخيه ..

ثم أقبل على السامرى - يستجليه حقيقة هذا الخبر المؤسف ، ويستجوبه فيما حدث من أمر هذا الخطب الجليل الذى أضل به بنى إسرائيل ..

فأقر السامرى بما حدث ، وأخبر موسى - عليه السلام - بأنه رأى جبريل يقود آل فرعون إلى البحر ، فأخذ قبضة من أثر تراب فرسه ، فما ألقى شىء من هذا التراب على شىء إلا استحال حيًا ..

وكان السامرى قد تأثر بمنظر الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم بعد اجتيازهم البحر ، فأسر ذلك فى نفسه نفاقًا وكفرًا حتى أظهره بعد غياب موسى لمناجاة ربه .

وقيل : إن السامرى كان من قوم يعبدون البقر ، وكان قد أظهر الإيمان بموسى ، ولكن حب عبادة البقر ما زال فى قلبه[١١٩].

فدعا موسى على السامرى دعوة غضب ، فعاقبه الله بمرض أفقده عقله ، فأصبح لا يطمئن إلى أحد ولا يطمئن إليه أحد .

---

(١١٩) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ١٦٨ .

وقد أصابه مرض يتأذى بسببه من أى شىء يقع على جسمه، وهو مرض النقرس. فكان ينادى بألا يمسه أحد. وصاحب النقرس يتأذى حتى من الذباب لو وقع عليه.

وقد يكون موسى - عليه السلام - نفاه حتى لا يخالطه أحد، وفى هذا جواز الحكم على أهل البدع والأهواء والفتن بالنفى حتى لا يتأثر أحد بما يدعون إليه.

هذا عقاب الدنيا.. أما عقاب الآخرة فما أشده وأهوله!

ثم أقبل موسى على هذا العجل الذهبى فجعله طعمة للنار أولاً، ثم ألقاه فى قاع البحر.

وقد عرضت الآيات الكريمة الآتية لهذه الأحداث من القصة:

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (١٢٠).

وقال تعالى:

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ

---

(١٢٠) الآيات ١٤٢ : ١٤٥ من سورة الأعراف.

فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾) (١٢١)

رؤية الله :

تتضمن آيات سورة الأعراف طلب موسى – عليه السلام – رؤية ربه ، وأن الله – سبحانه وتعالى – قال له : لن تراني ..

وهذا يدل على أن رؤية الله في هذه الدار الدنيا غير ممكنة لعدم صلاحية الأجساد البشرية الفانية لذلك وعدم قدرتها على إدراك الجلال والجمال الإلهيين .. والله يقول : ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾(١٢٢).

أما في الآخرة فإن الله يعطي أحباءه والمقربين إليه القدرات الخاصة والصلاحيات الممكنة لرؤيته تعالى مصداقًا لقوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾(١٢٣) ولقوله تعالى : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾(١٢٤) فقد قال العلماء : الحسنى هي الجنة ، والزيادة هي رؤية الله جل جلاله .

وهذا ما اصطلح عليه جمهور المفسرين ..

---

(١٢١) الآيات ٨٣ : ٩٨ من سورة طه .

(١٢٢) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

(١٢٣) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(١٢٤) الآية ٢٦ من سورة يونس .

ماذا كتب في الألواح ؟

قال تعالى : ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ ..

لقد جمعت الألواح خلاصة التعاليم التي تسير على هداها الأمة إلى مافيه صلاحها دنيا وآخرة ..

هذا وقد أوصى الله تعالى موسى بوصايا عشر خلاصتها :

- أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ولا تشرك بي شيئًا .
- اشكر لي ولوالديك إلى المصير .
- لا تقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق .
- لا تحلف باسمي كاذبًا .
- لا تشهد بما لا يعي سمعك ، ولا تنظر عينك ، ولا يقف عليه قلبك .
- لا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلي ورزقي .
- لا تزن ولا تسرق .
- لا تفجرن بحليلة جارك .
- أحبب للناس مما تحب لنفسك .
- لا تعد في السبت[125]

وقد جاء في القرآن الكريم الذي جعله الله مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه ما يصدق هذه الوصايا ، ويأمر بالعمل بها . قال تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾[126]

---

(١٢٥) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٢٠٨ . (١٢٦) الآيات ١٥١ : ١٥٣ من سورة الأنعام.

وجاء بعقب هذه الآيات قوله تعالى :

(ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾)(١٢٧)

وفى ذلك دلالة على أن وصايا الله لأنبيائه لا تتغير ، وهى فى جملتها خصال الخير التى تجمع أسباب الصلاح فى الدنيا وتهدى إلى طريق النجاة فى الآخرة ..

جاء فى تفسير القرطبى أن يهوديًا قال لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبى - يعنى رسول الله ﷺ - فقال له صاحبه : لا تقل نبى لو سمعك فإن له أربعة أعين .

فأتيا رسول الله - ﷺ - وسألاه عن تسع آيات بينات . فقال لهم : لا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا المحصنة ، ولا تولوا يوم الزحف ، وعليكم خاصة معشر يهود ألا تعدوا فى السبت .

فقبلا يديه ورجليه . وقالا : نشهد أنك نبى .

قال : فما يمنعكم أن تتبعونى ؟ قالوا : إنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود(١٢٨).

رأى أهل الكتاب فيمن صنع العجل :

ويزعم أهل الكتاب أن الذى صنع العجل لبنى إسرائيل هو هارون نفسه . قالوا فى سفر الخروج : ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون ، وقالوا له : قم فاصنع لنا آلهة تسير امامنا ، لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ؟ فقال

---

(١٢٧) الآيتان ١٥٤ ، ١٥٥ من سورة الأنعام .

(١٢٨) أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح . والقرطبى جـ ١ ص ٤٣٩ .

لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها . فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى كانت فى آذانهم وأتوا بها إلى هارون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلاً مسبوكًا . فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر . فلما نظر هارون بني مذبحًا أمامه ، ونادى هارون وقال : غدًا عيد للرب فبكروا فى الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح(١٢٩).

وهذا من الافتراءات على أنبياء الله . وهل يعقل أحد أن يفعل هارون عليه السلام وهو نبي من أنبياء الله هذا الفعل ، لقد أرسله الله ليهدى الناس لا ليضلهم أو يساعدهم على الضلال . ولكن ليس بكثير على قوم كانوا يقتلون أنبياءهم أن يصفوهم بصفات لا تتفق مع العقل أو المنطق .

الميثاق ورفع الجبل :

أدرك بنو إسرائيل أنهم ارتكبوا ذنبًا كبيرًا باتخاذهم العجل ، ولجأوا إلى موسى راجين أن يستغفر لهم ربهم . ولكن موسى أفهمهم بأنهم ظلموا أنفسهم ظلمًا كبيرًا ، وأنه لا توبة لهم إلا بأن يقتلوا أنفسهم ..

ومن هنا ندرك رحمة الله بالأمة الإسلامية حيث جعل الاستغفار سبيلاً إلى الغفران وتكفير الذنوب .. قال تعالى : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيمًا﴾(١٣٠).

أما هؤلاء فقد قال لهم موسى : لا تطهر نفوسكم إلا بقتل أنفسكم ..

فقام البعض منهم صفين وقتل بعضهم بعضًا ، حتى قيل لهم : كُفُّوا . فكان ذلك شهادة للمقتول وتوبة للحى .

وقال بعض العلماء : وقف الذين عبدوا العجل صفًا ، وأقبل عليهم الذين لم يعبدوه فقتلوهم ..

وقد عوقبوا جميعًا بهذا العقاب وهو قتلهم أنفسهم ، لأن الذين لم يعبدوا لم ينكروا على الذين عبدوا . فعمهم العقاب جميعًا ، وقد أخرج ابن ماجه فى

---

(١٢٩) سفر الخروج – الإصحاح الثاني . (١٣٠) الآية ٦٤ من سورة النساء .

سننه : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي قوم هم أعز منهم وأمنع لا يُغَيِّرُون عليهم إلا عمهم الله بالعقاب » .

يقال : إن القتل استحر فيهم حتى بلغ عدد القتلى سبعين ألفًا . ثم عفا الله عنهم بعد ذلك .

والعقاب بالقتل هو ما يشير إليه قوله – تعالى – : ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾(١٣١).

ثم قدم لهم موسى – بعد ذلك – الألواح التي كتبها عن الله حين ناجاه ، وقال لهم : هذه وصايا الله فالتزموها واعملوا بتعاليمها ، ولكنهم بعد كل ذلك رفضوا الالتزام بما جاء في هذه الألواح قائلين :

لا ، إلا أن يكلمنا الله كما كلمك ، بل قالوا : إلا أن نرى الله جهرة ..

فأخذتهم صاعقة ، فماتوا .. وظلوا أمواتًا يومًا وليلة . ثم بعثهم الله مرة أخرى ..

فقال لهم موسى : اقبلوا ما آتاكم الله . فرفضوا أيضًا ..

فأمر الله ملائكته فاقتلعت الجبل ، فجعله عليهم مثل الظلة ، وأتاهم ببحر من خلفهم ونار من قِبَل وجوههم . ثم قيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها ، وإلا سقط فوقكم الجبل .

فسجدوا توبة لله ، وأخذ عليهم الميثاق . وكان سجودهم على شق لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفًا من سقوطه عليهم ..

وارتفاع الجبل فوقهم يشير إليه قوله تعالى :

﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾(١٣٢).

---

(١٣١) الآية ٥٤ من سورة البقرة .

(١٣٢) الآية ١٧١ من سورة الأعراف .

والميثاق الذى أخذ عليهم هى الوصايا التى سبقت الإشارة إليها . وجاء مضمونها فى قوله – تعالى – :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾(١٣٣)

ولكنهم على الرغم مما مر بهم من آيات ، وما تلقوه من وعيد لم يوفوا بالعهد ولم يحافظوا على الميثاق .. وقد أظهر الله مكنون ما فى صدورهم بقوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾(١٣٤)

موسى ينتخب من قومه لمناجاة الله :

واصطحب موسى – عليه السلام – أخاه هارون وابنيه فى رحلة تعبدية ، فانتهوا إلى جبل ارتقوه ، واستراح هارون فى كهف من كهوفه ففاضت روحه ولقى ربه ..

فعاد موسى إلى قومه فاتهموه بقتله ..

قالوا له : أنت قتلته حسدًا وبغيًا ، لقد كان ألين منك جانبًا وأحب إلينا منك فقتلته من أجل ذلك .

فقال لهم : كيف أقتله ومعى ابناه ، ثم أراد أن يشهدهم على أنه لم يقتله . فقال لهم : اختاروا من بينكم سبعين رجلاً .. فاختاروا ، وسار بهم .

---

(١٣٣) الآيتان ٨٣ ، ٨٤ من سورة البقرة .

(١٣٤) الآية ٩٣ من سورة البقرة .

حتى إذا انتهوا إلى الجبل الذى مات فيه هارون، وإلى المكان الذى دفن فيه. ناداه موسى: يا هارون.. فرد عليه هارون..

فقال له موسى: من قتلك يا هارون؟

فقال هارون: ما قتلنى أحد ولكن الله توفانى..

فبهت القوم ولاموا أنفسهم. فأخذتهم الرجفة، فجعلوا يميلون يمينًا وشمالاً.

ولجأ موسى إلى ربه مناجيًا إياه أن يرحمهم.. فرحمهم.. وفى ذلك يقول - تعالى -:

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[١٣٥]

البشارة بمحمد - ﷺ -:

طمأن الله موسى على المؤمنين من قومه، وأخبره وبشره بنبى آخر الزمان، وأن من أوصاف الذين تشملهم رحمة الله أنهم يؤمنون به.

ومن أوصاف هذا النبى الذى ورد ذكره فى التوراة والإنجيل أنه أمى، وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وأنه يضع الإصر والأغلال عن كاهل أهل الكتاب، فإنه سيأتى لإنقاذهم مما سيكونون فيه من اضطهاد، أو يخلصهم من القيود التى يثقل بها الأحبار والرهبان كاهلهم، بما يضيفونه على الناس من تبعات ليست فى الكتاب.

---

(١٣٥) الآيتان ١٥٥، ١٥٦ من سورة الأعراف.

فمن آمن به وصدقه ونصره كان من المفلحين الناجين ..

وهذه هي الآيات الدالة على ذلك :

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾) (١٣٦)

إن من خصائص هذا النبي أن الله أرسله إلى البشر جميعًا ، فرسالته عامة شاملة ، وليست رسالة خاصة كرسالة موسى وعيسى .

ولذلك خوطب الناس جميعًا بوجوب اتباعه والإيمان به .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾) (١٣٧)

وكان التبشير بالنبى – ﷺ – فى الكتب السابقة إلزامًا لأصحاب هذه الشرائع بوجوب اتباعه والإيمان به فور العلم بظهوره وبعثته .

وقد أخذ الله ميثاق النبيين السابقين على ذلك .

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾) (١٣٨)

---

(١٣٦) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .

(١٣٧) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .

(١٣٨) الآية ٨١ من سورة آل عمران .

إيذاء موسى :

تضاعف الأذى على موسى من قومه ، وتعددت وجوهه ..

فبينما هم يتهمونه بالغلظة عليهم ويصفون هارون بأنه أحلم منه وأعطف وأرق .. إذا بهم يتهمونه بأنه حمَّلهم ما لا يطيقون ، أخرجهم من أرض الخضرة والنعمة وزج بهم فى هذا التيه الذى لا أول له ولا آخر ، فى صحراء جافة غليظة تحرقهم الشمس ويكدهم ويقتلهم العطش ..

ثم إذا بهم يتهمونه بالكذب حينًا ، والسحر حينًا والجنون حينًا ..

ثم يلصقون به تهمة قتل أخيه هارون ، حينما رجع بدونه فقالوا له أنت قتلت أخاك ..

ثم إنهم اتهموه إلى جانب ذلك بعيب خِلْقى فوصفوه بأنه « آدر »[١٣٩] وأنه أبرص ، إلى غير ذلك من ألوان الأذى ..

وربما كان الإيذاء الذى برأه الله منه ينطبق على الإيذاء بالكلام الذى كانوا يوجهونه إليه مما جرت عادة المكذبين بالأنبياء أن يوجهوه إليهم ..

وقد حدث مثل ذلك لنبينا – ﷺ – فما من اتهام وجه إلى نبى سابق إلا وَوُجِّه مثله إلى النبى – ﷺ – .

وقد حدث أن النبى – ﷺ – كان يقسم بعض الغنائم بين أصحابه فقام رجل : وقال : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله .. فَذُكِر ذلك للنبى – ﷺ – فغضب ثم قال : رحم الله موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر ..

ومع ذلك فإنه لا يبعد الإيذاء عن طريق وصفه بعيب خلقى أشاعوه عنه حين رأوه يحتشم ويستر عورته عند اغتساله . وكانوا حين يستحمون يستحمون عراة كيوم ولدتهم أمهاتهم ، أما هو فكان يتوارى عنهم . فأشاعوا عنه بأنه آدر ، أو أبرص ..

وقد برَّأ الله نبيه موسى من كل ما وصفوه به فقد ذكر أنه فى أحد الأيام خلع ملابسه وألقاها على حجر ، وأخذ يغتسل ..

---

(١٣٩) الأدرة : انتفاخ الخصية .

فطار الحجر بملابسه فخرج وراءه يجرى وهو يقول : ثوبى يا حجر ثوبى يا حجر ، حتى رآه بنو إسرائيل جميعًا ، وعرفوا أنه لا يوجد به عيب خِلْقى ..

وهذا هو قوله -تعالى- : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا﴾[١٤٠] وقد ذكر المفسرون أسبابًا أخرى لنزول تلك الآية سيأتى بعضها .

إن جرى الحجر بثياب موسى هو معجزة بالنسبة له .. وليس أمرًا غريبًا ، فَعَصَاهُ -عليه السلام- فعلت ما هو أكثر من ذلك ..

وقد أورد البخارى فى ذلك حديثًا عن أبى هريرة . قال : كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة -ينظر بعضهم إلى بعض- وكان موسى -عليه السلام- يغتسل وحده ، فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر ، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ، ففر الحجر بثوبه ، فجرى موسى فى أثره يقول : ثوبى يا حجر ، حتى نظر بنو إسرائيل إلى موسى ، فقالوا : والله ما بموسى من بأس ، وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضربًا[١٤١].

ولكن رميهم موسى بذلك الداء ليس هو الأذى الذى برأه الله منه ، ويستدعى توبيخهم عليه بقوله :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (١٤٢)

إن عَجُز الآية يوحى بأن إيذاءه يتعلق بزيغهم عن الطريق المستقيم برميه بما لا يتناسب خُلُقيًا لا خِلْقيًا . من قبيل عدم العدل الذى وصف به ذلك الرجل نبى الرحمة والعدل -ﷺ- فقال -ﷺ- : رحم الله موسى أوذى بأكثر

---

(١٤٠) الآية ٦٩ من سورة الأحزاب .

(١٤١) البخارى -باب الغسل- جـ ١ ص ٧٨ . مسلم كتاب الحيض جـ ١ ص ٢٦٧ رقم ٣٣٨ ، كتاب الفضائل جـ ٢ ص ١٨٤١ . وجمع الجوامع جـ ٣ ص ٨٦ حديث رقم ٨٨ / ١٦٤٧١ .

(١٤٢) الآية ٥ من سورة الصف .

من ذلك فصبر .. وقد فعل بنو إسرائيل ما هو أكثر من اتهام نبيهم – عليه السلام – بالظلم . وذاك هو اتهام موسى – عليه السلام – بالزنا ..

وقصة ذلك أن موسى – عليه السلام – طالب قارون بالزكاة ، ولم تسمح نفس قارون بذلك ، فألح عليه موسى ، فأراد قارون أن يكيد له ، فاتفق مع امرأة فاجرة أن تدعى على موسى كذبًا أنه زنى بها ..

ولما أصبح قال قارون لموسى : أليس من وصايا الله عدم الزنا ، وأن عقوبة الزانى الرجم ؟ قال موسى : بلى ..

فقال له قارون : فإنك اقترفت جريمة الزنا مع فلانة . فهيا لنرجمك .

ولكن الله أراد أن يبرىء ساحة نبيه – عليه السلام – ويفضح ذلك الظالم الكاذب البخيل . فجاءت المرأة وأقرت بأن قارون هو الذى أمرها أن تقول هذا الكلام الذى لم يحدث ولا أساس له من الصحة[١٤٣].

وبرئت بذلك ساحة هذا النبى الشريف العفيف .

أما اتهامه بقتل أخيه فلا يقل شناعة عن رميه بالتهمة السابقة ، لأن جرائم القتل لا يرتكبها إلا من خلت من قلوبهم الرحمة وجفت من نفوسهم دوافع الخير والسلام ، وما هكذا الأنبياء ..

ولم يتهم موسى – عليه السلام – بقتل رجل عادى ، ولكنه اتهم بقتل أمَسّ الناس صلة به ، وأقربهم رحمًا منه . وهو أخوه .. وهو فوق ذلك نبى ..

وبرأه الله أيضًا من هذه التهمة التى أوذى بسببها كثيرًا .. فأنطق الله هارون على ملأ من الناس .. قائلاً : أنا لم يقتلنى أحد ، ولكن الله توفانى إلى رحمته ، واختارنى إلى جواره ..

وثبتت وجاهة موسى بذلك ، والوجاهة هى شرف النفس وطهارة الذيل وحسن الأحدوثة وطيب الذكر ..

قصة قارون :

كان قارون من بنى إسرائيل من قوم موسى .. بل إن هناك علاقة نسب وثيقة بينهما فهو على أحد الأقوال ابن عمه وعلى بعض الأقوال عمه ..

---

(١٤٣) قصص الأنبياء للنجار ص ٣٤١ .

وكان أعلم الناس بالتوراة بعد موسى وهارون وأقرأهم لها .. وله صوت جميل حين يتلوها . حتى كان يلقب بالمنوَّر ..

واختبره الله بالمال . والمال فتنة قلما ينجو منها إلا من عصمه الله .. وكان قارون وسيمًا جسيمًا ، وحين كانَ بمصر ولاه فرعون أمر بنى إسرائيل ، ولكنه بغى عليهم .. وتكبر وتجبر . ومن علامة تكبره أنه كان يطيل ثيابه على سبيل الخيلاء والتكبر لينفرد بذلك عن الناس .

ويبدو أنه تعلم صناعة الكيمياء فأثرى عن طريق ذلك ثراءً فاحشًا ، حتى كثرت خزائن أمواله ، وعجزت الرجال أولو القوة عن حمل مفاتيح هذه الخزائن . فما بالك بالخزائن نفسها ؟

وازداد طغيان قارون بماله واشتد حسده لموسى وهارون على ما آتاهما الله من نبوة . وكأنه أراد أن تجتمع له النبوة مع المال . ولكن ذلك ليس إليه إنما هو لله الذى هو أعلم حيث يجعل رسالته ..

واجتمع له مع كثرة ماله شحه وبخله .. فكان بطرًا شديد البغى ..

والنعمة تحب أن تحدث عن نفسها بالشكر ، وشكرها أن ينال منها الفقير والمحتاج ، فإذا حرما منها أصبحت وبالاً على صاحبها وفسادًا فى المجتمع . فكان على موسى – عليه السلام – حق نصحه وإرشاده . فأقبل عليه ينبهه على ما يجب عليه نحو نفسه وقومه ودينه .

واقبل عليه الحكماء من قومه يوجهونه إلى الخير ..

قال له قومه : لا تأشر ولا تبطر ، ولا تكفر النعمة .. إن من شكر النعمة فقد قيدها بعقالها ، ومن كفرها فقد عرضها لزوالها .. والله يحب من عبده أن يكون شكورًا لنعمته ، ويكره منه أن يكون معجبًا بنفسه مغترًا بماله ضنينًا به على أهله ومستحقيه .

وقال له قومه : يا قارون إن هذا المال تستطيع أن تبنى به لنفسك مجدًا باقيًا فى الآخرة ، بما تنفقه فى سبيل الله . وبما تساعد به الفقراء والمساكين ، وبما تدخره عند الله ، فالله يضاعف ذلك أضعافًا مضاعفة ..

وليس معنى ذلك أن تنسى الحياة الطيبة ، ولكن خذ منها نصيبك من حلال دون إسراف يمنعك عن حق الله فى عبادته والتقرب إليه فما أصدق قول

الحكيم الذى يقول : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا ..

إن العبادة الحقة لا تحرم صاحبها من التمتع بزينة الحياة الدنيا التى أحلها الله تعالى ..

وحقًا ذلك ، فقد جاء القرآن الكريم بعد ذلك مصدقًا لهذا المعنى حيث يقول : ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾[١٤٤].

وهذا يعنى أنك يا قارون يجب أن تراقب الله فى تصرفك ، وتلحظه فى تقلبك ومثواك ، فإن دوام مراقبة الله يعصمك من الانحراف ويصونك من الخطأ ويوجهك للصواب . وهذه المراقبة هى الإحسان الذى يعبد الإنسان فى ظله ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فليعلم أن الله يراه .

هذه نصيحة خالصة قدمها علماء بنى إسرائيل لقارون .. لقد كان ذا منزلة فيهم ، وعز عليهم أن ينحرف عن الجادة ، ويطغى هذا الطغيان فيفخر بماله ، ويعجب بثرائه ، ويجحد حق الفقير والمسكين ، وهو الذى كان بالأمس يعظهم ويقرأ عليهم التوراة بصوته الجميل وترتيله المؤثر .

ولكن الشيطان قد أعمى قلبه وطمس على بصيرته ، وأضله فأورده موارد التهلكة ..

نسى قارون أن الدنيا عارية مستردة ، وأن المال هبة من الله ، يبسط الرزق لمن يشاء ويطويه عمن يشاء لحكمة يعلمها هو ..

وما المال إلا فتنة يختبر بها الله الناس ليعرف من يصون النعمة ممن لا يصونها ، ولم يتأثر قارون بما سمع من نصائح ، وقال فى تكبر واستعلاء :

إن هذا المال لم يعطه لى أحد ، وإنما أوتيته على علم عندى .

لا تذكرونى بمواعظكم ولا تسمعونى قوارص كلمكم ، فلست فى حاجة إلى نصحكم ولا بمؤمن بما تقولون .. وما الأمر إلا مواهب تُحسن استثمار القدرات والأوقات ، وخبرات تعرف كيف تقلب الصفقات والتجارات ، وذكاء يحسن التنبؤ بأحوال السوق وما فيه من توقعات ..

---

(١٤٤) الآية ٣٢ من سورة الأعراف .

لا تقولوا لى : إنه حظ . وإنه قَدَر .. بل هو فن وخبرة وعبقرية . وهذه مناقب عندى أحسنت استثمارها فكانت نتيجتها ما ترون ..

فماذا تريدون منى بعد ذلك ؟

انصرفوا عنى ، ووفروا نصائحكم لأنفسكم ..

وكأنه أراد أن يظهر أمام الجميع قدرته ، ويظهر ثروته ، ويباهى بما لديه من جاه وسلطان . فخرج فى موكب عظيم تحتشد فيه المركبات الفاخرة ويحيط به الخدم والحشم ، ويتقدم أمامه من يفسح الطريق ، ويتأخر عنه من يحرسه من الخلف ..

وكان هذا مفاجأة لم ير الناس مثلها ..

وقف الناس منها موقفين متضاربين . أما طلاب الدنيا ، فقد تمنوا أن يكون لهم مثل الذى لقارون من جاه ومال ومنصب وسلطان ..

وحسبوا أن الحياة نعيم ومال ، وخدم وحشم ، وزخرفة وبهرجة . وطعام شهى ، ولباس فاخر ، وزينة ظاهرة .. ونسوا ما وراء ذلك من حساب وجزاء ونعيم وشقاء ..

وأما العلماء فقد تنبهوا إلى ما وراء ذلك من محنة خلقية ، وسفه وحمق ، وعمى عن الحق ، وتغاض عن الحكمة .. فأرادوا أن ينبهوا الناس إلى عدم الاغترار بما يرونه فقالوا لهم : ويلكم إن ثواب الله فى الجنة خير من ذلك كله . ولو أنصفتم أنفسكم لرثيتم لحال هذا البائس بدلاً من أن تتمنوا أن تكونوا مثله ..

ومر الموكب على موسى - عليه السلام - فى مجلسه وهو يذكر قومه ويعظهم ، فقال له موسى : ما حملك يا قارون على ما فعلت ؟ لماذا أردت أن تكسر قلوب الفقراء ؟

فقال له : يا موسى ، لئن كنت فضلت علىَّ بالنبوة فقد فضلت عليك بالمال ، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون علىَّ أو لأدعون عليك .

ويلك يا قارون ، لقد أضلك الشيطان وأعمى بصيرتك .. وأنساك أن الذى تخاطبه هو كليم الله وصفيه ..

ولقد خاب مقياسك حين وضعت المال فى كفة مع النبوة ..

واين يقع المال من النبوة ؟ بل اين تقع الدنيا بأسرها من النبوة ؟ إن الدنيا لو وزنت عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء ..

وقبل موسى – عليه السلام – التجدى ..

وخرج موسى ، وخرج قارون . فقال له موسى : أتدعو أم أدعو ؟ فقال قارون استعلاءً وكبرًا : ادعو انا ..

وظل يدعو ويدعو فلم يجد لدعائه صدى ..

واقبل موسى يدعو قائلاً : اللهم مر الأرض فلتطعنى اليوم .

فأوحى الله إليه : إني قد فعلت .

فقال موسى : يا أرض خذى قارون ومن معه .

فأخذتهم الأرض إلى اقدامهم .

ثم قال : خذيهم .

فأخذتهم إلى رُكبهم ، ثم إلى مناكبهم .

ثم قال : اقبلى بكنوزهم وأموالهم .

فاقبلت بها حتى نظروا إليها .

ثم اشار موسى – عليه السلام – بيده فقال : اذهبى بكل ذلك فاستوت بهم الأرض[١٤٥].

وذهب قارون إلى غير رجعة ، ولم يجد له نصيرًا ينصره من هذا المصير المشئوم .

ونظر الذين تمنوا أن يكونوا مثله إلى هذه العاقبة السيئة ، فحمدوا الله كثيرًا على انه لم يحقق لهم ما تمنوه .

---

(١٤٥) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤١٩ .

وأدركوا أن الله قد من عليهم فلم يخسف بهم كما خسف بقارون .. هذه القصة وردت فى القرآن الكريم فى قوله - تعالى - :

﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (١٤٦)

وقد اختلف المفسرون حول زمان هذه القصة .. هل كانت قبل خروج بنى إسرائيل من مصر . أم كانت فى التيه ؟

وربما كان قوله تعالى : ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ يشير إلى أنها كانت قبل الخروج . ففى مصر كانت لبنى إسرائيل دور ..

أما بعد خروجهم فقد كانوا فى تيه وصحارى .. وكانوا يقيمون فى خيام .. ولكن لا يبعد أن يكون قارون بغناه وثروته قد اتخذ له دارًا مشيدة أو قصرًا منيفًا ..

إن هذه القصة تلفت أنظارنا إلى عاقبة التعالى بالباطل والكبرياء الكاذبة . ووجوب التواضع ، وحمد الله على نعمه ، وعدم الاغترار بالمال فإنما هو

(١٤٦) الآيات ٧٦ : ٨٣ من سورة القصص .

عارية مستردة، وهو محنة قبل أن يكون منحة، والله جل وعلا يقول فى حق قوم أمدهم بالمال فلم يرعوا جانب الله فيه: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون﴾(١٤٧).

إن أساس الفساد فى الأمم غالبًا ما يكون من المترفين الذين يجرون وراءهم السُّذَّج من الناس.. ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا﴾(١٤٨).

بقرة بنى إسرائيل:

ومن العجائب التي حدثت في قوم موسى قصة البقرة التى أحياها الله بقدرته لتنطق باسم قاتل قتل قريبًا له ليرثه أو ليتزوج ابنته..

قال العلماء:

كان فى بنى إسرائيل رجل غنى اسمه عاميل أصبح القوم فوجدوه قتيلاً، ولم يعرفوا من قتله..

واختلف فى سبب قتله ومكانه..

فقال بعضهم إنه كان ذا غنى وثروة، وكان له ابن عم فقير ينتظر موته ليرثه، فلما طال الأمد دون أن يموت قتله، ونقل جثته إلى مكان بعيد.. وأصبح الناس فوجدوه قتيلاً..

وقال بعضهم: إنه كانت له ابنة جميلة، وطمع ابن عم له فى زواجها ولكن أباها رفض ذلك بسبب فقره، فقتله، وحمله إلى حيث لا يعرفه أحد..

وقال بعضهم: إن بنى إسرائيل كان لهم مسجد له اثنا عشر بابًا، لكل باب قوم يدخلون منه، فوجدوا قتيلاً فى سبط من الأسباط، فادعى هؤلاء على هؤلاء، فاختصموا إلى موسى..

ورفع موسى الأمر إلى ربه.. فقال له: مرهم بأن يذبحوا بقرة.

وجمع موسى قومه وأخبرهم بما أمره الله..

---

(١٤٧) الآيتان ٥٥، ٥٦ من سورة المؤمنون. (١٤٨) الآية ١٦ من سورة الإسراء.

وتعجب القوم من ذلك .. فما العلاقة بين قضيتهم الغامضة وبين ذبح بقرة ؟

ولذلك قالوا له : اتتخذنا هزوا ؟ هل تسخر منا يا موسى ؟ هل ذبح البقرة هو الذى يخبرنا بقاتل « عاميل » ؟

فأجابهم موسى بقوله : معاذ الله أن أسخر منكم ، وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، لأن السخرية من صفات الجاهلين الذين يبتعدون عن جواب السائل بما يرشده ، إلى طريق آخر يضلله ، وهذا هو الجهل الذى يرتفع عنه مقام النبوة .

فلما رأوا منه الجد سألوه عن حقيقة هذه البقرة التى يذبحونها .. طالبين منه أن يدعو ربه ليبين لهم ذلك .

فقال موسى : إن الله يقول لكم : هذه البقرة وسط بين البكر والمسنة فهى ليست فارضًا – والفارض المسنة – وليست بكرًا أوْ صغيرة لم تحمل بعد بل هى عوان بينهما – والعوان : الوسط – .

فلا تترددوا فى الاستجابة لهذا الأمر .

ولكنهم على عادتهم فى اللجاج والتردد عادوا يسألونه قائلين له :

بالله عليك ادع لنا ربك يوضح لنا لون هذه البقرة ..

فسأل موسى ربه ، وأجابهم بقوله :

إنه يقول لكم : إن البقرة المطلوب ذبحها يجب أن تكون صفراء لونها فاقع ، منظرها يسر النفس ويعجب العين .

وهذه أوصاف يمكن توافرها فى أبقار كثيرة ، وكان من الممكن الاجتزاء بواحدة منها ليكفيهم الله همهم ويذهب غمهم .

ولكنهم عادوا إلى موسى مرة أخرى طالبين زيادة فى العلم عن أمر هذه البقرة قائلين له : يا موسى ادع لنا ربك يبين لنا المزيد من صفات هذه البقرة ، فإن البقر كثير ، وهو متشابه ، وربما لو ذبحنا أى بقرة لم تجزئنا .. وسوف نستجيب إن شاء الله فى هذه المرة لما يأمر به الله .

فعاد موسى وسأل ربه وأجابهم :

إن الله يقول لكم : إن هذه البقرة المطلوبة من صفاتها أنها لم يذللها العمل . لم تقم بحرث الأرض ولا سقي الزرع قبل ذلك ، وهي خالية من العيوب سالمة من الآفات . لا توجد بها علامة مميزة في جلدها تخالف لونها الأصفر الفاقع ..

لقد تحددت – إذن – أوصاف البقرة المطلوبة ..

وأخذوا يبحثون عن بقرة اجتمعت فيها هذه الصفات حتى وجدوها عند يتيم في بني إسرائيل ..

ولا بأس من ذكر قصة هذا اليتيم التي أوردتها بعض الكتب لما فيها من العظة والاعتبار .

قالوا : إنه كان في بني إسرائيل رجل صالح ، وله عجلة ، وله طفل . فأتى بهذه العجلة إلى غيضة من الغياض وقال : اللهم إني أستودعك هذه العجلة لابني حتى يكبر .

ومات الرجل ، فصارت العجلة في الغيضة عوانًا ، وكانت تهرب من كل من رآها .

فلما كبر الابن ، وكان بارًا بأمه . فكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث . يصلي ثلثًا ، وينام ثلثًا ، ويجلس عند رأس أمه ثلثًا .

وكان إذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره ، وأتى السوق فباع ما احتطبه بما شاء الله ، ثم يتصدق بثلثه ، ويأكل بثلثه ، ويعطي أمه ثلثه .

فقالت له أمه يومًا : إن أباك ورَّثك عجلة استودعها الله في غيضة كذا وكذا . فانطلق وادع الله أن يردها عليك ، وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل لك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها .

وكانت تسمى المذهبَّة لحسنها وصفرتها .

فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى ، فصاح بها : وقال :

أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب أن تأتي .

فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه ، فقبض على عنقها وأقبل يقودها . حتى وصل بها إلى أمه ..

وقالت له أمه : إنك فقير لا مال لك ، ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل ، فانطلق فبع هذه البقرة .

فقال لها : بكم أبيعها ؟

قالت : بثلاثة دنانير ، ولا تبع بغير مشورتى .

وكان ثمن البقرة فى ذلك الوقت ثلاثة دنانير .

فانطلق الفتى إلى السوق ، فبعث الله إليه ملكًا لِيُرِى خَلْقَه قُدرته وليختبر الفتى فى مدى برّه بأمه وطاعته لها فقد اشترطت عليه أن لا يبيع البقرة إلا بعد مشورتها ، وكان الله عليمًا خبيرًا . فقال له الملَك :

بكم تبيع هذه البقرة ؟

قال الفتى : بثلاثة دنانير ، وأشترط عليك رضا والدتى .

قال له الملَك : فإنى أعطيك ستة دنانير ، ولا تستأمر والدتك .

فقال الفتى : لو أعطيتنى وزنها ذهبًا لم آخذه إلا برضا والدتى .

ثم إن الفتى رجع إلى أمه وأخبرها بالثمن فقالت له : ارجع واطلب فيها ستة دنانير . ولا تبع إلا بعد مشورتى .

فانطلق بها إلى السوق فأتاه الملك فقال له :

استأمرت أمك ؟

فقال له الفتى : إنها أمرتنى أن أبيعها بستة دنانير على أن أستأمرها .

فقال الملك : فإنى أعطيك اثنى عشر دينارًا على ألا تستأمرها .

فأبى الفتى ، ورجع إلى أمه فأخبرها بذلك ، فقالت له : إن الذى يأتيك ملك فى صورة آدمى ليجربك ، فإذا أتاك فقل له : أتأمرنا أن نبيع أم لا ؟

فجاء الفتى إلى السوق ، وجاءه الملَك . فأخبره بما قالت أمه ، فقال الملَك : اذهب إلى أمك وقل لها :

أمسكى هذه البقرة ، فإن موسى يشتريها منك لقتيل من بنى إسرائيل ، فلا تبيعيها إلا بملء جلدها ذهبًا .

وقدر الله على بنى إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها مكافأة لهذا الفتى على برّه بأمه[149].

وقص الثعلبى هذه القصة مع اختلاف يسير هو أن الذى جاء ليشترى البقرة من الفتى ليس ملكًا ، ولكنه كان إبليس يريد أن يغويه . وقصها أيضًا متفقة مع القصة السابقة .

وبحث بنو إسرائيل عن بقرة تجمع الأوصاف التى ذكرها لهم موسى – عليه السلام – فلم يجدوها مجتمعة إلا فى بقرة هذا اليتيم ..

فاشتروها منه بملء جلدها ذهبًا ..

وذبح بنو إسرائيل البقرة .. وجاء موسى وأخذ جزءًا منها فضرب به القتيل ، فحيِىَ القتيل بإذن الله .

قيل : إنه ضربه بلسانها لأنه آلة الكلام .

وقيل : إنه ضربه بعجب الذنب ، وهو الجزء الذى يعاد منه تكوين الإنسان يوم البعث والنشور .

وقيل : إنه ضربه بعظم من عظامها .

فقام القتيل وأوداجه تشخب دمًا ، واستنطقه موسى فنطق وقال : قتلنى فلان بن فلان ، ثم مات مكانه .

فحرم قاتله الميراث . وفى التشريع الإسلامى : لا ميراث لقاتل .. وهو مما بقى فى الإسلام من الشرائع الأولى .

وقد سميت سورة البقرة باسم البقرة التى ورد ذكرها فى هذه القصة . وفيها من العبر والعظات الكثير .

فهى تلفت أنظارنا إلى عناد بنى إسرائيل وتشددهم فى أمور لا تستحق أى تشدد ، فتكون مغبة ذلك راجعة عليهم هم ، فلو أنهم استجابوا إلى أمر موسى – عليه السلام – بادىء ذى بدء لما حملوا أنفسهم عناء كبيرًا ومالاً كثيرًا ..

---

(١٤٩) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٢٠٠ . قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٣٦ .

وهى تشير كذلك إلى فساد قلوبهم وقسوتها .. فهذه معجزة كبرى أمامهم ..

حياة قتيل بضربه بجزء من بقرة ذبيح - هل هناك إعجاز أكثر من ذلك ؟ كان يكفى ذلك لكى تستقيم نفوسهم على النهج ويسيروا على الطريق المستقيم ولكنهم لم يلبثوا فور رؤيتهم هذه المعجزة أن عادوا إلى طبيعتهم التى وصفها الله بقوله : ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة﴾ .

إن هذه القصة تضع أمامنا صورة لهؤلاء فنحذرهم ، ونعلم أى لون من الناس هؤلاء الذين أصبحوا يختلطون بالمسلمين فى مجتمعاتهم المختلفة . فلنكن على حذر دائم فى تعاملنا مع ذرية هؤلاء القوم .

ولابد من الإشارة إلى ما ترمز به قصة اليتيم من أثر البر بالوالدين وما كان له من أجر معجل فى الدنيا ناهيك عن أجر الآخرة .

وفى إحياء الميت دليل ملموس على قدرة الله ، ولفت للأذهان إلى الحياة الآخرة وحتميتها ، وأن البعث والنشور ليس أمرًا مستحيلاً كما يتوهم الكفرة .

ثم انظر إلى عبرة أخرى تكمن فى عبادة بنى إسرائيل العجل فقد لفت الله أنظارهم : كيف يستحق أن يكون إلهًا ما لا يستطيع أن يدفع عن رقبته سكين الجزار ؟

إن هذه القصة كفيلة أن تحطم أسطورة عبادة الأوثان ، وتعدل سلوك المنحرفين فى عبادة الأبقار لدى أصحاب العقول النيرة التى تفقه وتعى ..

إن قصة هذه البقرة والحوار الذى دار بين موسى وقومه حولها تقصه علينا هذه الآيات الكريمة :

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا

تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾) [150]

فقد أراهم الحق سبحانه وتعالى من الآيات والمعجزات ما يدفعهم إلى التصديق والطاعة والانقياد لو كان فى قلوبهم شيء من لين أو ذرة من حس، ولكنها قلوب اتصفت بالصلابة والقساوة، فصارت أشد قسوة من الحجارة، لأن من الحجارة ما يتأثر وينفعل، وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل أصلاً، ولذا فإن للحجارة مزايا فضلت بها على قلوب هؤلاء. فلها منافع ينتفع بها، فى حين تعطلت قلوب هؤلاء من كل نفع ومنفعة والحجارة تخشى الله، وقلوب هؤلاء تعصى الله فيما كلفها به.

موسى والخضر :

أورد البخارى فى صحيحه أنه قيل لابن عباس – رضى الله عنهما – إن فلانًا – وذكر اسمه – يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل وأنه موسى آخر. فقال: كذب عدو الله. حدثنا أبىّ بن كعب عن النبى ﷺ – أن موسى – عليه السلام – قام خطيبًا فى بنى إسرائيل، فسئل أى الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يَرُد العلم إلى الله. فقال له الحق سبحانه وتعالى: لى عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال: أى رب ومن لى به، قال: تأخذ حوتًا فتجعله فى مكتل، حيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ. وأخذ حوتًا فى مكتل ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة[151]..

---

(١٥٠) الآيات ٦٧ : ٧٤ من سورة البقرة.

(١٥١) أخرجه البخارى مرتين فى جـ ٤، ص ١٥٤، وفى سورة الكهف جـ ٦ ص ٨٨ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وروى أيضًا أن موسى – عليه السلام – سأل ربه فقال : يارب أىُّ عبادك أحب إليك ؟ فقال : الذى يذكرنى ولا ينسانى .

فقال : أىُّ عبادك أقضى ؟

قال : الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى .

فقال : يارب فأىُّ عبادك أعلم ؟

قال : الذى يبتغى علم الناس إلى علمه ، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى .

قال : فهل فى الأرض أحد أعلم منى ؟

قال : نعم .

قال : يارب من هو ؟

قال : الخضر .

قال : فأين أطلبه ؟

قال : على الساحل عند الصخرة التى يفلت عندها الحوت .

وجعل الحوت علمًا له ودليلاً ، وقال : إذا حيى هذا الحوت فإن صاحبك هناك[١٥٢] .

وهناك رواية أخرى تكاد تحدد زمن المحاورة . رواها القرطبى قال :

قال ابن عباس : لما ظهر موسى وقومه على أرض مصر أنزل قومه مصر ، فلما استقرت بهم الدار أمره الله أن يذكرهم بأيام الله . فخطب قومه فذكرهم ما أتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون ، وأهلك عدوهم ، واستخلفهم فى الأرض ، ثم قال : وكلم الله نبيكم تكليمًا واصطفاه لنفسه ، وألقى عليه محبة منه ، وأتاكم من كل ما سألتموه فجعلكم أفضل أهل الأرض ، ورزقكم العز بعد الذل ، والغنى بعد الفقر ، والتوراة بعد أن كنتم جهالاً .

---

(١٥٢) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٢٢ .

فقال له رجل من بنى إسرائيل : عرفنا الذى تقول ، فهل على وجه الأرض أحدًا أعلم منك يا نبى الله ؟

قال : لا . فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه .

فبعث الله جبريل : أن يا موسى ، وما يدريك أين أضع علمى ؟ إن لى عبدًا بمجمع البحرين أعلم منك[١٥٣]..

فقد كانت هذه المحاورة إذن فى مصر بعد هلاك فرعون ، وهى تتفق مع رأى من يقول : إن بنى إسرائيل عادوا إلى مصر واستقروا بها فترة تصديقًا لما ورد من آيات مثل :

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (١٥٤)

أما مجمع البحرين فقد وردت بشأنه أقوال عدة ..

فبعضهم يقول : هو ملتقى بحر فارس والروم .

وبعضهم يقول : ملتقى بحر الأردن وبحر القلزم .

وبعضهم يقول : هو عند طنجة ..

القصة :

واصطحب موسى فتاه يوشع بن نون ، وحمل مكتلاً فيه الغذاء ومن بينه حوت مشوى أو مملح .

ومن شدة حرص موسى على لقاء العبد الصالح لم يستخلف على قومه ومضى لوجهه . وسار موسى وصاحبه فى طريق غير ممهد وخاضا ماء ووحلاً حتى لقيا تعبًا وجهدًا شديدين .

---

(١٥٣) تفسير القرطبي سورة الكهف ص ٤٠٤٩ .

(١٥٤) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف .

وأخيرًا انتهيا إلى صخرة نائية فى البحر فأتياها . فانطلق موسى ليتوضأ . فاقتحم مكانًا فوجد فيه عينًا أعجبه ماؤها فتوضأ منها ، وانصرف ولحيته تقطر ماء . وكان حسن اللحية ، فنفض لحيته فأصاب الماء المكتل الذى فيه الطعام ، وابتل الحوت بالماء ، فحيى بإذن الله – لتتم بذلك العلامة التى أخبر الله بها . وانسلَّ الحوت من المكتل إلى الماء ، وأخذ طريقه إلى البحر فما أصاب فى سيره مكانًا مبتلاً إلا أصبح يابسًا بقدرة الله ..

واستأنفا سيرهما . ونسى يوشع أمر الحوت ..

فلما جهدهما السير وأدركهما الجوع قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا .

فتذكر يوشع الحوت فأخبر موسى بأمره ، فقال موسى : هذا ما كنا نبغى .. وعادا أدراجهما يسلكان الطريق الذى درجا عليه وهما يتبعان أثر أقدامهما ..

حتى وصلا إلى المكان الذى كانا فيه ، ورأيا أثر الحوت فى انطلاقه إلى البحر ..

ويقال إن الحوت تراءى لهما ليدلهما على الطريق .. وسارا فى طريق ألهمهما الله إياه حتى وجدا صخرة يجلس فوقها العبد الصالح .

فألقى موسى عليه السلام فرد عليه الخضر قائلاً : وعليك السلام يا موسى . يا نبى بنى إسرائيل .

فقال له موسى : ومن أخبرك باسمى ؟

قال : الذى دلَّك علىَّ .

وحدثت محاورة بينهما . طلب موسى من الخضر أن يعلمه مما علمه الله :

فقال له الخضر : إنك لا تصبر على مصاحبتى ..

ولكن موسى وعده بالصبر . فاشترط عليه الخضر ألا يسأله عن شىء يَحْدُث حتى يخبره به هو .. وطلب موسى من يوشع أن يعود أدراجه لقومه . ومضى موسى مع الخضر .

وسارا معًا، حتى وجدا سفينة، ركباها ليجتازا بها البحر مع الراكبين فيها.

ونزل طائر من الجو إلى الماء فحسا حسوة بمنقاره. فقال الخضر لموسى: أتدرى ماذا أراد الله أن يعلمنا إياه بالتقاط هذا الطائر الماء؟

قال موسى: لا. قال الخضر: أراد أن يعلمنا أن علمى وعلمك وعلم الأولين والآخرين بجانب علم الله لا يجاوز القطرة التى التقطها الطائر بمنقاره من هذا البحر الخضم.

ثم قال له: يا موسى إن الله أعطى كل أحد من علمه بمقدار، وأنت على علم علمك الله إياه لا أعلمه، وأنا على علم علمنيه الله لا تعلمه. وكأنه أراد أن يعرفه أن تلاقى العلماء يولد فنونًا من العلم، وينشر المعرفة بين الناس.

وما أن توسطت السفينة البحر حتى عمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه..

فاعترض موسى على ذلك الفعل، قائلاً: أتخرق السفينة لتغرق أهلها؟

فقال له الخضر: ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرًا؟

فتذكر موسى الشرط الذى اشترطه عليه العبد الصالح.. فوعد بأنه لن يتكلم مرة أخرى..

وكانا قد وصلا إلى الشاطىء الآخر فنزلا وسارا فى الطريق، فإذا بهما بغلمان يلعبون. فنظر الخضر إلى غلام حسن الصورة من بينهم واستدعاه إليه، فقتله.

وهنا لم يطق موسى صبرًا على هذا الفعل المخالف لما يعرفه من وصايا الله. فصاح بالخضر قائلاً:

أتقتل نفسًا بغير جرم ارتكبته؟

فنظر إليه الخضر قائلاً فى عتاب.. لقد اشترطت عليك ألا تعترض علىّ فى تصرفاتى، وها أنت نقضت الميثاق مرتين..

فأسرع موسى إلى الإعتذار قائلاً: لا تؤاخذنى بما نسيت، ولك أن تفارقنى إذا عدت للمخالفة مرة ثالثة..

ورضى الخضر بذلك، وسارا فى طريقهما ..

وكانا قد وصلا إلى قرية - يقال لها أنطاكية عند بعض الرواة - وقيل هى أيلة. وقيل غير ذلك.

وكان قد بلغ منهما الجوع أقصاه، وطلبا من أهل هذه القرية أن يضيفوهما. فأبى أهل القرية ذلك.. لقد كانوا من اللؤم والبخل بمكان.. والبخل من الصفات المذمومة التى حذرت منها الشرائع أجمع.

وأسلمهما التعب والجوع إلى جدار مُتداع في آخر القرية، واستندا إليه، وإذا بالخضر ينظر إليه فيجده يوشك أن ينقض فطلب من موسى أن يساعده على هدم الجدار وإقامته من جديد.

وهنا ثار موسى - وكان سريع الانفعال - وقال: أهكذا تفعل بدون أجر مع أهل هذه القرية الجاحدة اللئيمة؟

فقال له الخضر: يا صاحبى لقد أخبرتك منذ البداية أنك لن تصبر على صحبتى، وها أنت ذا نقضت عهدك ثلاث مرات، فالآن حلت لى مفارقتك.

ولكن قبل أن أفارقك أخبرك بتأويل ما حدث، حتى لا تظن أننى تصرفت من عندى دون أمر ربى.

أما السفينة يا موسى. فهى ملك لمساكين يقتاتون من أجرتها، وقد أردت أن أعيب هذه السفينة لأن هناك ملكًا ظالمًا إذا رأى سفينة صالحة يغتصبها من أصحابها ..

وأما الغلام فقد كان أبواه مؤمنين، وقد علم الله أنه لو كبر لكان سببًا فى هلاك والديه وردهما إلى الكفر. فأمرنى ربى بقتله تخليصًا لهما من شؤمه، وسيبدلهما خيرًا منه وأفضل وأكثر إيمانًا وصلاحًا.

وأما الجدار فهو لغلامين يتيمين فى هذه المدينة، وقد أودع أبوهما الصالح تحته كنزًا لهما، فإن سقط الجدار ذهبت معالم الكنز، أو جاء أهل هذه القرية ليقيموه وربما يعثرون على الكنز ويجحدون حق اليتمين فيه ..

وقال بعض العلماء: لقد كان تحت هذا الجدار علمًا مفيدًا .. من بينه لوح مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. عجبًا لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن.

وعجبًا لمن يوقن بالموت كيف يفرح . وعجبًا لمن يؤمن بالحساب كيف يجمع ، وعجبًا لمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها[155].

وقد استنبط العلماء من حفظ كنز اليتيمين أن الله سبحانه وتعالى قد ينفع الأبناء بصلاح الآباء .. وحقًا ذلك ، فالله -سبحانه وتعالى- يقول : ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديدًا﴾[156].

وهناك قصص فى عالم الواقع تؤيد هذه الحقيقة .. فقد يترك الأب الفقير الصالح لابنه تقواه ، فيقيض له الله من يأخذ بيده ويقيمه على قدميه ، ويساعده على المضى فى حياته إلى أعلى الدرجات ..

وقد يترك الغنى لأولاده مالاً وعقارًا وجاهًا وسلطانًا على غير أساس من التقوى والصلاح ، فلا يلبث أن يذهب كل ذلك أدراج الرياح ..

وفى قصة عمر بن عبد العزيز الذى لم يترك لأولاده سوى تقواه وورعه ولم يترك لهم من حطام الدنيا شيئًا .. فإذا بأولاده جميعًا راشدون نافعون حتى لقد رُئِى واحد منهم يجهز وحده مائة غاز فى سبيل الله من ماله .. فى الوقت الذى نرى فيه بعض أبناء أصحاب الجاه والسلطان ممن ترك لهم آباؤهم ما لا يعد ولا يحصى من المال والعقار يتكففون الناس فى الطرقات .. إنها عبرة لمن يعتبر ، وذكرى لمن يتذكر .

وهذه القصة بين موسى والعبد الصالح . تحكيها لنا هذه الآيات الكريمة ..

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ

---

(١٥٥) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٣٣ .

(١٥٦) الآية ٩ من سورة النساء .

أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾[١٥٧].

من العبد الصالح ؟

وقد اختلف العلماء في اسم هذا العبد الصالح الذى يطلق عليه الخضر . إن الخضر لقب له وليس اسمًا .. ولقب بذلك لأنه ما جلس فى مكان إلا اخضر من تحته .

قيل : إن اسمه هو «بليا بن ملكان بن فالغ بن شالخ بن أرفخشد بن سام ابن نوح[١٥٨] وقيل : هو «إيليا بن عاميل بن شمالخين بن إرما بن علقما بن عيصو بن إسحاق» ..

(١٥٧) الآيات ٦٠ : ٨٢ من سورة الكهف .

(١٥٨) المعارف لابن قتيبة وتاريخ الطبرى جـ ١ ص ٢٥٦ .

وقيل : هو «أرميا بن حلقيا من سبط هارون»[١٥٩].

والأصح ما تواتر عن أهل السير وهو «بليان بن ملكان»..

وقالوا عنه : إنه من بني إسرائيل ، من أبناء الملوك..

وتحدث أصحاب الأخبار بأنه حى ، ولكن لا سند يؤيد ذلك ، ولا حديث يوثق بقاءه كما يشيع بين الناس.

إلا أن هناك بعض الأخبار التي يتناقلها الناس تشير إلى حياته - وحياته لا تعجز قدرة الله على أى حال ، وقد يكون ذلك - إذا ثبتت صحته - لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى.

وقد نقل الدميرى ما جاء في التمهيد لابن عبد البر إمام أهل الحديث فى وقته - رحمه الله - أن النبى - ﷺ - حين غسل وكفن سمعوا قائلاً يقول : السلام عليكم أهل البيت ، إن فى الله خلفًا من كل هالك ، وعوضًا من كل تالف ، وعزاء من كل مصيبة ، فعليكم بالصبر واحتسبوا.

ثم دعا لهم ، وهم لا يرون شخصه . فكانوا يرون أنه الخضر - عليه السلام - (يعنى أصحاب النبى - ﷺ - وأهل بيته رضى الله عنهم)[١٦٠]. وهى أقوال رائجة بين الناس ، ولكن ليس لها من قوة السند ما يؤكد صحتها ، وعلينا أن نرجع علم ذلك إلى الله سبحانه وتعالى.

ولنا فى قصة لقاء موسى بالخضر - عليهما السلام - عظات وعبر.

فهى ترشدنا إلى ضرورة طلب العلم ، والحرص عليه ، والجد فى طلبه ، وتحمل المشاق في تحصيله ، وقد أمر النبى - ﷺ - بطلب الازدياد من العلم . أمره ربه قائلاً : ﴿وقل رب زدنى علمًا﴾[١٦١].

كما ترشدنا إلى أن العلم بحر لا ساحل له ، وصدق الله حين يقول ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾[١٦٢].

---

(١٥٩) حياة الحيوان للدميرى.

(١٦٠) حياة الحيوان جـ ١ ص ٤٧١.

(١٦١) الآية ١١٤ من سورة طه. (١٦٢) الآية ٧٦ من سورة يوسف.

وذلك يرشدنا إلى ضرورة التواضع فى طلب العلم ، وقد ورد أن العلم يضيع بين خلتين : الكبر والحياء .. يعنى يتكبر فلا يتعلم ، ويستحيى فلا يسأل ولا يتعلم .

وقد تواضع موسى – عليه السلام – للخضر ، مع التيقن بأن موسى نبىّ والخضر مختلف فى شأنه . قيل : إنه نبى لقوله ﴿وما فعلته عن أمرى﴾ ، وقيل : إنه ولىّ .

لقد شرف الله أهل العلم بالتواضع وبذلك أصبح التواضع زينة العلماء وحليتهم ، وليس هناك أجل قدرًا من العالم الذى يعرف المنة لله أولاً فيقول : الله أعلم ، ويعرف لغيره من العلماء قدرهم فيجلهم ويحترمهم .

وعلى العلماء أن يعترفوا أن فوق هذه العلوم التى حصلوها بالبحث والدراسة والنظر علومًا كثيرة تفوق ما اكتسبوه من معارف وعلوم . لقد نسب الله هذه العلوم إليه فقال فى حق الخضر : ﴿وعلمناه من لدنا علمًا﴾[(١٦٣)]

وسبيل تحصيل هذه العلوم التقوى والعمل بالعلم والتحلى بثمرته قال تعالى : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[(١٦٤)]. وقال : ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا﴾[(١٦٥)]. والأثر الشريف يقول : «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم﴾ .

ومن أهم ما ترشدنا إليه القصة عدم الإغترار بالعلم ، فليس لأحد أن يباهي بعلمه مهما كثر . والعلم شرف لصاحبه حقًا ، ويكفى أن يكون العلماء ورثة الأنبياء ، ولكن على العالم أن يحرس هذا الميراث بالأخلاق الفاضلة والعمل بما يعلم حتى لا يكون العلم عليه حجة يوم القيامة .

وصايا نافعة :

وهذه بعض الوصايا النافعة التى يجب على طالب العلم والعالم أن يلتزم بها ويجعلها نصب عينيه ..

---

(١٦٣) الآية ٦٥ من سورة الكهف . (١٦٤) الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .
(١٦٥) الآية ٢٩ من سورة الأنفال .

يا طالب العلم، إن القائل أقل ملالة من المستمع، فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم.

واعلم أن قلبك وعاء فانظر ما تحشو به وعاءك.

واعزف عن الدنيا وانبذها وراءك فإنها ليست لك بدار ولا لك فيها محل قرار..

تفرغ للعلم إن كنت تريده فإنما العلم لمن تفرغ له..

تعلم ما تعلمت لتعمل به ولا تتعلمه لتحدث به أو لتفخر به فيكون عليك بواره ولغيرك نوره..

اجعل الزهد والتقوى لباسك والعلم والذكر كلامك واستكثر من الحسنات فإنها تذهب السيئات..

وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يرضى ربك..

واعمل خيرًا فإنك لابد عامل سوءًا..

وفاة موسى:

مات هارون قبل موسى كما عرفنا..

وكان هارون محبوبًا في بنى إسرائيل ومقربًا إليهم وأثيرًا عندهم. كان متصفًا بالحلم والأناة. وكان يتولى أمر القربان فيهم..

واصطحب موسى هارون في رحلة إلى الجبل.

وقبض الله هارون في هذه الرحلة. فلما عاد موسى وحده اتهمه بنو إسرائيل بأنه قتل أخاه..

فشكا موسى إلى ربه قومه فأمره باختيار بعضهم، فاختار وفدًا منهم وانطلق بهم إلى حيث دفن.. قيل: إن الله بعثه لهم، فناداه موسى قائلاً: يا هارون من قتلك؟

فقال هارون: لم يقتلنى أحد ولكن الله توفانى.

فآمنوا وصدقوا بأن موسى لم يقتل أخاه بغيًا وحسدًا كما اتهموه بذلك.

قال العلماء : وهذا تفسير قوله – تعالى – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا ﴾[١٦٦].

وعاش موسى بعد هارون سبعة أشهر .. وقيل ثلاث سنين وقد ذكر بعض العلماء أنه لما حانت وفاة موسى عليه السلام جاءه ملك الموت ، وعرف منه موسى أن أجله قد حان فقال له :

ادنني من الأرض المقدسة رمية حجر .. فأدناه إليها فمات قريبًا منها ..

قال النبي – ﷺ – : لو كنت عنده لأريتكم قبره[١٦٧].

مات هارون وهو ابن مائة وثلاث وعشرين سنة .

ومات موسى وهو ابن مائة وعشرين سنة .

ومات كلاهما في التيه ولم يدخل بعد أحد من بني إسرائيل الأرض المقدسة التي خرجوا من مصر لأجل دخولها ..

قال المسعودي : أنزل الله على موسى عشر صحف ثم أنزل الله عليه التوراة بالعبرانية وفيها الأمر والنهي والتحليل والتحريم والسنن والأحكام وذلك في خمسة أسفار ، والسفر يريدون به الصحيفة .

قال : وكانت الألواح التي أنزلها الله على موسى بن عمران على جبل طور سيناء من زمرد أخضر فيها كتابة بالذهب[١٦٨]..

قالت الملائكة بعد أن مات موسى – عليه السلام – : مات صفيُّ الله موسى ابن عمران فمن الذي يطمع في البقاء ؟

ثناء الله على موسى :

وقد أثنى القرآن الكريم على موسى عليه السلام ثناء مستطابًا .. وثناء القرآن هو ثناء الله تعالى . فالقرآن كلامه ..

فقد اصطفاه الله ، وكلمه تكليمًا ..

---

(١٦٧) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٢٥٠ وقصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٣١ .

(١٦٨) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٦ .

قال : ﴿يا موسى إنى أصطفيتك على الناس برسالتى وبكلامى﴾(١٦٩).

وقال : ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾(١٧٠).

ووصفه بالوجاهة فقال : ﴿وكان عند الله وجيها﴾(١٧١).

وجعل منزلته فى السماء السادسة . ففى ليلة الإسراء والمعراج لقى سيدنا محمد - ﷺ - موسى فى السماء السادسة .

وروى البخارى ومسلم فى ذلك عن أنس عن مالك بن صعصعة قال : مر النبى - ﷺ - ليلة أسرى به بموسى فى السماء السادسة ، فقال له جبريل : هذا موسى . فسلم عليه . قال : فسلمت عليه . فقال : مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح .

ولموسى - عليه السلام - فضل يذكره النبى - ﷺ - له . ذلك أنه طلب منه حين فرضت الصلاة خمسين ، أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف لأمته ، قائلاً له : لقد بلوت الخلق قبلك وأعرف أنهم لا يطيقون ذلك .. وما زال يطلب منه المراجعة حتى أصبحت الصلوات خمسًا فى الأداء وخمسين فى الأجر ..

وأعطى الله موسى التوراة ووصفها أوصافًا سنية وجعل القرآن مصدقًا لها .. وجاء فى حقهما قوله تعالى :

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(١٧٢). وقال :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾(١٧٣)

---

(١٦٩) الأعراف الآية ١٤٤ . (١٧٠) النساء الآية ١٦٤ . (١٧١) الأحزاب الآية ٦٩ .
(١٧٢) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة الأنعام . (١٧٣) الآيات ٤٨ : ٥٠ من سورة الأحزاب .

ولقد وصف النبى - ﷺ - موسى كما وصف غيره من الأنبياء ..

فقال فى حديث الإسراء : مررت على موسى فوجدته قائمًا يصلى فى قبره[174].

وقال : رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعد الشعر كأنه من رجال شنوءة .

وروى عنه أنه قال : أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم - يعنى نفسه - ﷺ .

وقد حج موسى عليه السلام البيت الحرام كما حج إليه غيره من الأنبياء . وقد أوردنا فى قصة الكعبة المشرفة الآثار التى وردت فى ذلك .

إن فى قصة موسى - عليه السلام - كثيرًا من العظات والعبر التى ينبغى للأمة أن تتدبرها . وفى مقدمة ذلك :

وجوب السير على منهاج الرسول واقتفاء أثره واتباع سنته وعدم الخروج على تعاليمه .. وقد أشار النبى - ﷺ - إلى ذلك كثيرًا فى أحاديثه .. وقال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم بعدى لا تضلوا كتاب الله وسنتى » ..

وأشار إلى أن هلاك الأمم كان فى التغيير والتبديل والتحريف .. وقال فى ذلك « إنما هلك بنو إسرائيل بأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ..

وذكر القرآن الكريم تغيير بنى إسرائيل لما عهد إليهم من كتاب فزادوا ونقصوا وحرفوا وبدلوا ، وإن الله حذرهم من ذلك قائلاً : ﴿ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلاً﴾[176]..

ووصف تحريفاتهم المتعددة وقال :

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[177]

---

(١٧٤) رواه مسلم عن أنس.   (١٧٥) مسند أحمد جـ ١ ص ٢٢ .

(١٧٦) الآية ٤١ من سورة البقرة.   (١٧٧) الآية ٤٦ من سورة النساء.

وقال فى حقهم : ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾(١٧٨).

إن سعادة المسلمين ونصرهم فى التمسك بكتاب ربهم وسنة رسولهم، وهذا هو المنهج السليم والصراط المستقيم..

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل..

بنو إسرائيل بعد موسى

دخول الأرض المقدسة

لم يكتب لبنى إسرائيل دخول الأرض المقدسة فى حياة موسى - عليه السلام - فقد اعترضوا عليه كما علمنا. وقالوا له: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون.

وكانت النتيجة أن شردهم الله فى التيه أربعين عامًا..

وصحبهم من آمن بموسى حق الإيمان فى تيههم.. وهكذا أصبحوا مشاركين لهم فى جريرتهم التى ارتكبوها.. وبذلك يصدق قوله - تعالى -: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾(١٧٩).

وربما كان إكرامهم فى تيههم الذى سبق أن أشرنا إليه كان بسبب وجود موسى وهارون - عليهما السلام - وبعض الصالحين من القوم معهم.

ومن هؤلاء من نبئوا بعد هارون وموسى ومنهم يوشع بن نون.. وهو فتى موسى الذى أشار إليه الحق - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿وإذ قال موسى لفتاة لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبًا﴾(١٨٠).

ويوشع بن نون هو الذى قاد بنى إسرائيل بعد ذلك إلى الأرض المقدسة، وفتحها الله عليه ومكنه منها..

---

(١٧٨) البقرة ٧٩. (١٧٩) الأنفال ٢٥. (١٨٠) الكهف ٦٠.

يوشع بن نون :

و «يوشع» هو ابن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم – عليهم السلام – .

وكان أحد المؤمنيْن اللذين أشارا على بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة حين طلب موسى منهم ذلك وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾(١٨١).

أما الآخر فيقول العلماء إنه كالب بن يوقنا .

وقد قبض الله موسى وكان في صحبته يوشع .. كان يمشيان إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها يوشع ظنها الساعة ، وقال : إني ملتزم بموسى نبي الله .. والتزمه . فلما هدأت الريح لم يجد يوشع موسى فعرف أن الله قد قبضه لأنه وجد بعض ما كان معه من أشياء ومنها قميصه ..

فلما جاء يوشع بالقميص أخذوا منه القميص وقالوا : قتلت نبي الله ؟

فقال : ما قتلته ولكنه انسل مني فلم يصدقوه .. ولكن الله برأه من هذا الاتهام(١٨٢)، كما سبق وبرأ موسى من اتهامه بقتل هارون ..

ونبأ الله يوشع بعد موسى ، وأمره بالتوجه إلى قتال الجبارين من العمالقة الذين يسكنون الأرض المقدسة .

وأخبر بني إسرائيل بذلك فصدقوه وبايعوه ..

وتوجه بهم يوشع إلى أريحاء ، ومعه التابوت أي الصندوق الذي كان موسى – عليه السلام – يضع فيه التوراة والصحف والألواح ، وكانت فيه أيضًا أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، وهو سبب سكون قلوبهم في كل أمر يختلفون فيه ..

وحاصر يوشع المدينة ستة أشهر ..

---

(١٨١) الآية ٢٣ من سورة المائدة .

(١٨٢) راجع قصص الأنبياء للثعلبي ص ٢٥١ .

وفي الشهر السابع تمكن من تحطيم السور واقتحام المدينة، وظلوا يقاتلون أهلها، وكان القتال في يوم الجمعة. وظل القتال دائرًا حتى قاربت الشمس المغيب.

فأمر الله الشمس بالبقاء حتى يفرغ القوم من قتالهم. فظلت الشمس حتى انتهى القتال وانتصر يوشع على أعدائه.. ثم غربت بعد ذلك.

وقد ذكر القرطبي في ذلك حديثًا.. قال:

أخرج مسلم عن النبي - ﷺ - قال: غزا نبي من الأنبياء، فأدنى للقرية حين صلاة العصر أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها عليَّ شيئًا، فحبسها، حتى فتح الله عليه. قال: فجمعوا ما غنموا فأقبلت النار تأكله فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول: فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه، فلصقت يده بيد رجلين أو ثلاثة. فقال: فيكم الغلول(١٨٣).

وكانت الغنائم لا تحل قديمًا للأنبياء، وإنما حلت للنبي - ﷺ -.

قال ابن كثير: وزعم ابن إسحاق أن الذى فتح الأرض المقدسة وهي بيت المقدس هو موسى وإنما كان يوشع على مقدمته..

ومعنى ذلك أن فتحها تم في حياة موسى(١٨٤).

وربما عارض هذا الخبر ما ورد في شأن وفاة موسى. حين طلب من ملك الموت أن يقربه من الأرض المقدسة ليكون على مرمى حجر..

والعلة في حبس الشمس على يوشع أن القتال كان في يوم جمعة، فلو غربت الشمس كفوا عن القتال حتى صباح الأحد، لأن السبت يحرم فيه القتال عندهم، وكان يمكن للعدو أن يحاربهم فيه فيجتاحهم.

وبعد فتح المدينة أمرهم الله بدخولها خاشعين خاضعين، وكان لها سبعة أبواب..

---

(١٨٣) تفسير القرطبي جـ ٥ ص ٢١٢٧ ط. دار الشعب.

(١٨٤) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٣٩.

وأمرهم بالاستغفار وأن يطلبوا من الله أن يحط عنهم ذنوبهم السالفة التى أودت بهم إلى التيه وشردتهم كل هذه السنين. أمرهم بأن يقولوا : حِطَّة. أى حط يا ربنا عنا أوزارنا وذنوبنا..

ولكنهم أبوا أيضًا الاستجابة كعادتهم..

فبدلاً من أن يدخلوا خاضعين كما أمروا.. دخلوا زاحفين على إستهم هزوًا وسخرية..

روى مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله - ﷺ - : قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم فبدلوا وغيروا ورفضوا ما أمروا به ودخلوا القرية يزحفون على أستاههم وقالوا حنطة فى شعيرة.

وكان نتيجة ذلك أن عاقبهم الله بالرجز وهو العذاب الشديد. قيل إن الله سلط عليهم الطاعون فأهلك منهم عددًا كبيرًا ثم رفعه عنهم ورحمهم.

عن رسول الله - ﷺ - : «إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عذب الله به أناس من قبلكم فإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها وإذ بلغكم أنه بأرض فلا تدخلوها».

لقد عاقبهم الله لظلمهم وفسقهم ولمخالفتهم أمر الله بالقول والفعل. وانزل الله فى هذه الوقائع قرآنًا يتلى قال - تعالى - :

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(١٨٥)

وذكر المسعودى أن نبى الله يوشع خاض معارك متعددة فى بلاد الشام فافتتح بلاد أريحا، وزغر من أرض الغور التى غلب عليها العماليق. وكان ملك العماليق هو السميدع بن هوبر بن مالك، وتمكن يوشع من الغلبة عليه وقتله. وفى قتله يقول عوف بن سعد الجرهمى :

---

(١٨٥) الآيتان ٥٨، ٥٩ من سورة البقرة.

ألم تر أن العملقى ابن هوبر بأيلة أضحى لحمه قد تمزعا
تداعت عليه من يهود جحافل ثمانين ألفًا حاسرين ودُرَّعا
فأمست عدادًا للعماليق بعده على الأرض مِشيًا مصعدين وفُرَّعا
كأن لم يكونوا بين أجبال مكة ولم ير راء قبل ذاك السميدعا(١٨٦)

ولعل هذه الأبيات تشير إلى تفرق العماليق بعد خروجهم من مكة وغلبة الجراهمة عليهم، وتشتتهم فى البلاد حتى ذهب بعضهم إلى الشام، وهم الذين طغوا وتجبروا وخشيتهم بنو إسرائيل حتى حاربهم يوشع وانتصر عليهم.

وتفرق العماليق فى البلاد بعد هزيمتهم وخضعوا لملوك الروم بعد ذلك(١٨٧).

بلعم بن باعوراء:

ولم يكن انتصار يوشع على أعدائه خالصًا بدون عقبات أو مشكلات. وربما كان من أهم العقبات قومه أنفسهم الذين كان يسوقهم سوقًا إلى القتال.

ومن هذه العقبات ما حدث عنه الرواة ووردت به الأخبار حول «بلعم بن باعوراء» وكان يقيم بقرية من قرى البلقاء من بلاد الشام، وكان من الصالحين الذين أعطاهم الله استجابة الدعوة.. فكان لا يدعو إلا أستجيب دعاؤه..

فلما جاء «يوشع بن نون» نظر بلعم بن باعوراء فرأى أنه نبى ولابد من ظهوره..

وطلب قوم بلعم منه أن يدعو على يوشع فأخبرهم بأنه نبى وأن الله ناصره، وأن دعاءه لن يستجاب فيه.

فلما ألحوا عليه عدل عن الدعاء إلى النصيحة قال للملك العملاقى: عليك بالنساء. فأبرز الملك الحسان من النساء نحو عسكر يوشع، ففشت الفاحشة فيهم فظهر الطاعون فى عسكر يوشع(١٨٨).

---

(١٨٦) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٧. (١٨٧) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٨٦.
(١٨٨) مروج الذهب جـ ١ ٣٧.

وقد ذكر بعض المفسرين أن بلعم بن باعوراء هذا هو الذى نزل فيه قوله - تعالى - :

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ (١٨٩)

ولكن بعض العلماء اختلفوا حول ذلك التشخيص ومع من كان وفيمن نزلت تلك الآيات .

فمنهم من قال إنه كان فى زمن موسى عليه السلام فلما أقبل موسى فى بنى إسرائيل لقتال الجبارين ، سأل الجبارون بلعم أن يدعو على موسى فقام ليدعو عليه فتحول لسانه بالدعاء على أصحابه فقيل له فى ذلك فقال : لا أقدر على اكثر مما تسمعون واندلع لسانه على صدره فقال:قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة وسأمكر لكم ، وإنى أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزنا فإن وقعوا فيه هلكوا فوقع بنو إسرائيل فى الزنا فأرسل الله إليهم الطاعون .

ومنهم من قال : إنه رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت : اجعل لى منها واحدة . قال : فلك واحدة، فما الذى تريدين ؟ قالت : ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة فى بنى إسرائيل .

فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئًا آخر . فدعا الله أن يجعلها كلبة ، فصارت كلبة . فذهبت دعوتان .

فجاء بنوها فقالوا : ليس بنا على هذا قرار ، قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها ، فادع الله أن يردها إلى الحال التى كانت عليه . فدعا الله فعادت كما كانت ، فذهبت الدعوات الثلاث فيها(١٩٠).

---

(١٨٩) الآيات ١٧٥ : ١٧٧ من سورة الأعراف .

(١٩٠) تفسير المنار جـ ٩ ص ٣٤٤ .

ومنهم من قال: إن الآيات نزلت فى أمية بنى أبى الصلت.

وكان أمية فى زمن النبى - ﷺ - وكان على علم بالكتاب الأول، ونظر فى التوراة والإنجيل، وعلم أن الله سيبعث نبيًا فى آخر الزمن من بلاد العرب، وظل يخبر قومه بذلك، واستعد لأن يكون هو النبى المنتظر. فلما بعث الله سيدنا محمدًا - ﷺ - حسده وكفر به.

وكان أمية يقول شعرًا يحذر قومه ويذكرهم، ويدعوهم إلى الإيمان بالبعث والنشور، ومن شعره فى ذلك:

الحمد لله لا شريك لـه ... من لم يقلها فنفسه ظلمًا

وفي وصف الجنة يقول:

فلا لغو ولا تأثيم فيهـا ... وما فاهوا به لهم مقيم

وفى الحساب يقول:

إن يوم الحساب يوم عظيم ... شاب فيه الصغير يومًا طويلاً
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى ... فى رءوس الجبال أرعى الوعولا
كل عيش وإن تطاول حينًا ... فقصارى أيامه أن يـزولا

وحين بلغه ظهور النبى - ﷺ - اغتاظ وتأسف، وراودته نفسه أن يذهب إلى المدينة ليسلم، ولكن الحسد رده. ولما حدثت موقعة بدر أخذ يرثى قتلى بدر من المشركين.. ومات كافرًا(١٩١).

قال الرواة: حين سمع القرآن. وتلى عليه قوله تعالى: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾.. قيل له: ما تقول يا أمية؟ قال: أشهد أن - محمداً - على الحق. قالوا: فهل تتبعه؟ قال: حتى أنظر فى أمره. ثم خرج إلى الشام، وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم، فلما أخبر بقتلى بدر ترك الإسلام ورجع إلى الطائف فمات بها. ففيه نزل قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه فانسلخ منها﴾(١٩٢).

---

(١٩١) راجع مروج الذهب جـ ١ ص ٥١.

(١٩٢) أخرج هذا الخبر النسائى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وغيرهم، وانظر تفسير جـ ٩ ص ١٤٤.

وعلى كل فالآيات مثل يضرب لكل من يرى الحق فيعمى عنه، ويسمع الصواب فيتغافل عنه.

وقد أشار العهد القديم إلى قصة بلعام هذه في سفر العدد[١٩٣].. وذكر أنها وقعت في أرض مدين وقال: إن بالاق بن صِفُّور ملك المؤآبين طلب من بلعام أن يدعو على بني إسرائيل ويلعنهم حتى يتمكن من النصر عليهم، وحاول رشوته، وكان بلعام نبيًا فلم يقبل لأن الله نهاه عن ذلك. فلم يزالوا به حتى دعا فانسلخ مما كان فيه.

وما زال الرواة يترددون في المقصود بقوله تعالى: ﴿ الذى آتيناه آياتنا ﴾ وقد استبعد كثير منهم أن يكون المقصود به نبيًا من الأنبياء. فالمعروف أن النبي يمنحه الله العصمة، ويبعده عن الغواية، فكيف يقع تحت طائلة الإغواء فيقبل الرشوة أو يدعو إلى الإفساد بإشارته على الملك باستعمال النساء وتسليطهن على جيش يوشع؟

ومن أجل ذلك قال الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب»: إن بلعم هذا لم يكن سوى رجل آتاه الله علمًا وهداه إلى دينه ثم انسلخ إلى الكفر[١٩٤].

وهذا هو الأقرب إلى الصواب، ومن العلماء الذين لم يتقيدوا بتحديد المقصود بذلك الوصف ابن جرير الطبري -رحمه الله- قال:

إن الآيات الواردة في هذا الشأن صالحة لتطبيقها على كل من سولت له نفسه أن يعطيه الله علمًا نافعًا فيستعمله في الإفساد، أو يدله الله على خير فيتركه إلى الشر، أو ينصبه الله علمًا للهداية والإصلاح والتقدم فيتقاعس عن هذه المهمة ولا يعنى إلا بشئون نفسه..

وفي تمثيله بالكلب تحقير من شأنه وتنفير من الاقتداء به..

وفاة يوشع:

استقرت بنو إسرائيل بالشام، بعد فتح أريحا ورحل بهم يوشع إلى كنعان فقتل من ملوكها وفتح من حصونها..

---

(١٩٣) الإصحاح ٢٢ : ٢٤.   (١٩٤) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ٥٨٤.

ومكث يوشع في بني إسرائيل بعد وفاة موسى – عليه السلام – سبعًا وعشرين سنة. ثم توفي وله من العمر مائة وعشرون سنة(١٩٥).

وقيل توفي وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة(١٩٦).

النقبـاء :

لما قاد موسى قومه إلى الخروج من مصر وعبر بهم البحر كان عددهم كثيرًا، فلم يكن ليستطيع أن يجتمع بهم جميعًا ليبلغهم ما يريد من أوامر ربه.. فاختار منهم اثنى عشر نقيبًا من كل سبط نقيب، فكان يجمع النقباء ويبلغهم ما يريد، وكل نقيب يبلغ قومه.

والنقيب هو كبير القوم القائم بأمورهم الذى ينقب عنها وعن مصالحهم فيها. والنقيب هو الذى يعرف دخائل أمر القوم ومناقبهم..

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٧)

وكان موسى قد أرسل هؤلاء النقباء للإطلاع على أحوال الجبارين الذين يسيطرون على الأرض المقدسة، والتعرف على أحوالهم ومدى قوتهم.

فساروا حتى وصلوا إلى مدينة أريحا، وعرفوا أن من في داخلها قوم جبارون لا يقدر أحد على ضربهم، وظنوا أنهم لا قبل لهم بهم، فتعاقدوا

---

(١٩٥) بدائع الزهور لابن اياس ص ١٣٢، قصص الأنبياء للثعلبي ص ٢٥٢.

(١٩٦) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٤٥.

(١٩٧) الآيتان ١٢، ١٣ من سورة المائدة.

فيما بينهم على أن يخفوا ذلك عن بنى إسرائيل ويعلموا به موسى - عليه السلام - فقط، وتعاقدوا على ذلك.

ولكن عشرة من بين هؤلاء خالفوا هذا العقد، فأطلعوا قراباتهم حتى وقع الخوف فى قلوبهم وما زال الخبر يسرى وينتشر حتى امتنع بنو إسرائيل جميعًا عن الانصياع لأمر موسى حين أصدر إليهم أمره بدخول الأرض المقدسة فكان أن حرمها الله عليهم أربعين سنة قضوها فى التيه، ولم يصدق من هؤلاء النقباء ويتمسك بما تعاهدوا عليه سوى اثنين هما يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، وقد تحدثنا سابقاً عن يوشع بن نون، وسوف نعرض بعد قليل لـ «كالب بن يوقنا»..

وقد توارث بنو إسرائيل عن أجدادهم هذه النقابة، كما كان لنقضهم الميثاق أثر فى استحقاقهم اللعنة التى باءوا بها أبدًا..

واستبدلوا بالرحمة التى هى من صفات المؤمنين قسوة وغلظة ظهرت فى تصرفاتهم عبر الدهور.. وقد أشارت الآيات الكريمة السابقة إلى ذلك.

لقد وضح من الآيتين السابقتين أن الميثاق الذى أخذ على بنى إسرائيل هو الإيمان بالرسل ونصرتهم فى أداء رسالتهم والجهاد تحت لوائهم فى سبيل تبليغ الدعوة ونشر الرسالة والتضحية بالمال فى سبيل العقيدة..

وكان القعود عن نصرة موسى - عليه السلام - وعصيان أمره فى دخول الأرض المقدسة، والتخاذل فى قتال الجبارين أعداء الدين سببًا فى لعنتهم وابتلائهم بالتيه الذى قاسوا مرارته أربعين عامًا..

أما إتخاذ النقباء فهو أمر يدعو إليه التنظيم الدينى لإبلاغ الدعوة إلى كل مكان.. وقد فعله النبى - ﷺ - مع الأنصار الذين بايعوه فى العقبة. فاختار منهم اثنى عشر نقيبًا هم:

أبو أمامة أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو بن خنيس، وأسيد بن حضير،

وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبدالمنذر .. والتسعة الأوائل من الخزرج والثلاثة الباقين من الأوس[198] ..

وأخذ النبى - ﷺ - العهد على أن يمنعوه مما يمنعون منه أهلهم . وأنهم نقباء عن قومهم .

وقال النبى - ﷺ - للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلا ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي . يعنى المسلمين .

قال الأنصار : نعم .

ولكن نقباء النبى - ﷺ - وفوا وأحسنوا الوفاء ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وباعوا أنفسهم لله ابتغاء رضوان الله . وحين هاجر إليهم المسلمون استقبلوهم في دورهم أحسن استقبال ، وواسوهم بأموالهم وديارهم ، حتى آثروهم على انفسهم .. وفى شأنهم نزل قوله - تعالى - :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[199].

لقد كان اختيار النقباء من موسى - عليه السلام - استجابة لأمر الله - تعالى - يشير إليه قوله ﴿ وبعثنا منهم ﴾ ..

ولكن العهد القديم يذكر أن موسى - عليه السلام - استجاب فى اختيارهم إلى حميه يثرون أى شعيب - عليه السلام - حين جاء إليه ومعه زوجة موسى وولديه ، بعد عبورهم البحر وإقامتهم فى سيناء .

لقد أرشده يثرون إلى أن يختار من قومه «ذوى قدرة خائفين لله أمناء مبغضين للرشوة ويقيمهم رؤساء على أقوامهم»[200].

---

(١٩٨) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٥١ .

(١٩٩) الآية ٩ من سورة الحشر .

(٢٠٠) سفر الخروج . الإصحاح الثامن عشر .

كالب بن يوقنا

كالب بن يوقنا .. هو الرجل الثاني المؤمن الذى قال لبنى إسرائيل –مع يوشع بن نون– قاتلوا الجبارين وادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين .

وبعد وفاة يوشع تولى أمر بنى إسرائيل كالب بن يوقنا ..

وظل فيهم يدبر أمرهم حتي توفى .. فجاء بعده «فنحاص بن العازر بن هارون» ومكث فيهم فنحاص ثلاثين سنة وهو الذى عمد إلى مصاحف موسى فجعلها فى خابية نحاس وغيبها فى صخرة بيت المقدس قبل بنائه على يدى داود ثم سليمان بعد ذلك ..

واخذ شأن بنى إسرائيل يضمحل ، وتفرقت كلمتهم ، حتى أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم موتوا ثم أحياهم[٢٠١].

وستأتى قصة ذلك إن شاء الله تعالى ..

---

(٢٠١) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٣٨ .

أصحاب السبت

روى العلماء أن عكرمة دخل يومًا على ابن عباس -رضى الله عنهما- قبل أن يذهب بصره فوجده يقرأ فى المصحف ويبكى. فسأله: ما يبكيك -جعلنى الله فداءك-؟

فقال ابن عباس: تبكينى هذه الآية: ﴿واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾[1]..

ثم قال ابن عباس -رضى الله عنهما- لعكرمة:

أتعرف أيلة؟

قال عكرمة: وما أيلة[2]؟

قال: قرية كان بها أناس من اليهود حرم الله عليهم صيد الحيتان يوم السبت فكانت الحيتان تأتيهم فى يوم سبتهم شرعًا بيضًا سمانًا، فإذا كان غير يوم السبت لا يجدونها ولا يدركونها إلا بمشقة ومئونة.

ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتًا يوم السبت فربطه إلى وتد بالساحل وتركه فى الماء حتى إذا كان الغد أخذه فأكله..

فلما رأى جيرانه أنه لم يصبه شيئًا من السوء، فعلوا مثله من السبت الذى تلاه، فأخذوا واشتووا..

---

(١) الآية ١٦٣ من سورة الأعراف.

(٢) أَيْلَة: -بفتح فسكون ففتح- ميناء فى الركن الشمالى الشرقى لخليج العقبة -الآن-. وقد يبدل بعض الناس همزتها واوًا، فيقولون: وَيْلَة. وهى فى اللغة العبرية: إيل وإيليم وإيلات وإيلوت، وباللغة الآرامية إيلون. وباليونانية أيلات وأيلون وإيلاس وإيليا.. دائرة المعارف الإسلامية جـ ٥ ص ٣٥٤.

ولما وجد جيرانهم رائحة الشواء تصاعدت من بيتهم فعلوا مثلهم فى السبت الذى يليه، وسرى الأمر فى القرية كلها ..

ولكن أهل القرية افترقوا حول هذا الأمر ثلاث فرق ..

الفرقة الأولى انساقت وراء طبيعتها، واستمرت فى عملها، فأخذت تتحايل على الاصطياد فى يوم السبت بربط الحيتان أو بفتح مسارب صغيرة تدخلها الحيتان ثم تغلقها بعد دخولها فلا تستطيع الحيتان الرجوع إلى البحر .. أو غير ذلك من الوسائل ..

والفرقة الثانية وقفت موقف المعارض، وأخذت تنصح هؤلاء المجترئين فى السبت، قائلة لهم : إنا نحذركم غضب الله وعقابه أن يصيبكم بخسف من عنده أو يهلككم بعذاب شديد ..

ولما رأت هذه الفرقة عدم انصياعهم للنصيحة أقسمت ألا تساكنهم فى قريتهم، وخرجت من سور القرية ..

والفرقة الثالثة أنكرت الفعل وقالت للناصحين : لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا ؟

وكأن هذه الفرقة وجدت أن النصح مع هؤلاء المجترئين على حدود الله لا يجدى وأن اليأس من نصيحتهم إحدى الراحتين .

وجاء اليوم الموعود للعقاب ..

وأقبل الذين كانوا ينهون أصحابهم عن الاعتداء فى السبت يطرقون الجذر عليهم من وراء السور .. فلم يجبهم أحد ..

فتسور واحد منهم السور ونظر، فإذا به لا يجد فى هذه البيوت إلا قردة . لها أذناب تتعاوى ..

فنزل من فوق السور، ودخل القرية، وفتح الباب . فإذا بالقردة تعرف أنسابها من الإنس، ولكن الإنس لا تعرف أنسابها من القردة .

قال ابن عباس – رضى الله عنهما – فيأتى القرد إلى نسيبه وقريبه فيحتك به ويلصق إليه، فيقول الإنسى : أأنت فلان ؟ فيشير القرد برأسه : أى نعم، ويبكى ..

وتأتى القردة إلى نسيبها وقريبها الإنسى . فيقول لها : أنت فلانة ؟ فتشير برأسها : أى نعم وتبكى ..

ثم قال ابن عباس :

فاسمع الله - تعالى - يقول : ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ فلا أدرى ما فعلت الفرقة الثالثة . فكم رأينا من منكر ولم ننه عنه .

لقد هال ابن عباس مصير هؤلاء النفر ، وخشى أن يكون الرجل الذى يرى المنكر ولا يعجبه ولا ينهى عنه مصيره كمصير هؤلاء الممسوخين ..

فمن أجل ذلك بكى واشتد بكاؤه . لأنه - كما قال - رأى كثيرًا من المنكر ولم ينه عنه ..

وابن عباس - رضى الله عنهما - كان قمة فى الشجاعة والورع والعلم ولكنه رأى شحًا مطاعًا وهوى متبعًا . فعزل نفسه فى مكة بعيدًا عن الفتن والأهواء ، ولكنه خشى مع ذلك سوء المصير فبكى .

حين رأى عكرمة ضيق صدر ابن عباس ، وجزعه من المصير الذى تعرض له المعتدون فى السبت . قال لابن عباس :

أما ترى - جعلنى الله فداءك - أنهم أى الفرقة الثالثة الذين أنكروا وكرهوا حين قالوا : لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا ؟ فإن لم يقل الله أنجيتهم فلم يقل أهلكتهم .

فقد فهم عكرمة أن فى إنكارهم وكراهتهم لما فعلت الفرقة الأولى نجاة لهم .

قال عكرمة : فأعجبه قولى ذلك ، وأمر لى ببردين غليظين فكسانيهما وظل ابن عباس يقول : نجت الساكتة(٣) ..

---

(٣) روى الحاكم فى مستدركه الحديث الوارد فى ذلك عن ابن عباس .. رواه عن الأصم عن الربيع عن الشافعى عن يحيى بن سليم عن ابن جريج عن عكرمة . وذكره الدميرى فى حياة الحيوان - باب القرد - جـ ٢ ص ٤٣٠ .

إن هذه القصة المروية عن ابن عباس تذكرنا بالحديث الشريف الذى يقول : «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[٤]..

فتغيير المنكر ضرورة ملزمة .. وهى لصاحب السلطان باليد وللعلماء باللسان . وعند غلبة الهوى وعدم الإصاخة لما يسمع وشيوع الفتنة يكون الإنكار بالقلب .. والذى يسكت ينطبق عليه قول القائل : الساكت عن الحق شيطان أخرس ..

قال العلماء : ولم يبق هؤلاء القوم الذين مسخهم الله أكثر من ثلاثة أيام ثم أهلكهم الله . أرسل الله عليهم ريحًا ومطرًا فقذفهم فى البحر ، حتى إذا كانوا يوم القيامة أعادهم الله -تعالى- إلى صورهم البشرية فيدخلهم النار[٥].

وقد عوقب هؤلاء القوم ، لأن من الوصايا العشر التى أوصى الله بها بنى إسرائيل على لسان موسى - عليه السلام - عدم الاعتداء فى السبت .

ومعنى ذلك أن العمل فى يوم السبت ممنوع .. لقد جعله الله راحة لهم ومن أجل ذلك كفل لهم رزقهم فى التيه من المن والسلوى .. كان يأتيهم رزقهم كل يوم على قدر كفاية يومهم . ما عدا يوم الجمعة كان يأتيهم رزقهم مضاعفًا على قدر يومى الجمعة والسبت . ولا يأتيهم شىء يوم السبت .

ويبدو أن هذه القصة من القصص التى حذفت من الكتب التى بين أيدى الإسرائيليين ، لأنها تنص على عقوبتهم .. وهذا يشهد بتحريفهم ..

قال صاحب تفسير المنار : ولا أعلم للقصة ذكرًا فى كتب اليهود المقدسة ، ولكنها كانت معروفة عندهم ، ولولا ذلك لبهتوا النبى - ﷺ - فى المدينة وكذبوه فيما نزل عليه من قوله - تعالى - : ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾[٦].. لكنهم لم يكذبوه فى ذلك فثبت صدق القرآن وتحريفهم لكتبهم .. لقد وردت هذه القصة فى القرآن الكريم فى سورتى البقرة والأعراف .

---

(٤) رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى . وذكره النووى فى رياض الصالحين حديث رقم ١٨٤ ص ٧٧ .

(٥) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٩٢ .

(٦) انظر تفسير المنار جـ ٩ ص ٣١٦ . والآية المذكورة من سورة البقرة ٦٥ .

وفى الأعراف بتفصيل أكثر . وهذه آياتها :

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾(٧)

متى حدثت هذه القصة ؟

من اليقين أنها حدثت بعد موسى ، بعد خروج بنى إسرائيل من التيه وسكناهم المدن .

وقال بعضهم : إنها حدثت فى أيام داود ، واستأنسوا لذلك بخبر ورد عن الحسين بن الفضل قيل له : هل تجد فى كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتًا والحرام يأتيك جَزْفًا جَزْفًا ؟

قال : نعم فى قصة داود وأيلة «إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم» ..

وأورد القرطبى فى سبب إغوائهم أن إبليس أوعز إليهم فقال لهم : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد(٨).

إن هذا الخبر يدل على أن التحايل فى تأويل النصوص يعدل مخالفتها تمامًا . وعقاب المتحايل لا يقل عن عقاب المخالف بحال من الأحوال .

وهذا يرشدنا إلى وجوب احترام الدستور الإلهى والعمل بمقتضاه ، ولا يحملنا ضعف الإيمان وغلبة الهوى والجرى وراء الشهوات على اصطياد الفتاوى والتأويلات لنحل بها الحرام أو نحرم بها الحلال .. فالله أعلم بالسرائر ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾ ..

(٧) الآيات ١٦٣ : ١٦٦ من سورة الأعراف .

(٨) تفسير القرطبى –سورة الأعراف– ص ٢٧٤٢ ط . دار الشعب .

طالوت وجالوت

بت الأيام والدول على بنى إسرائيل بعد أن حكمهم يوشع وكالب بن يوقنا . حتى قهرهم ملوك فلسطين ، ثم البابليون الذين غنموا التابوت الذى أودعت فيه السكينة ، وكانوا إذا حملوه معهم فى حرب غنموا ...

وأخرج البابليون بنى إسرائيل من ديارهم - واستكان هؤلاء للخروج خوفا من الموت .

فلما هربوا من الموت قتلا فى ساحات الحروب ، وهو شرف واستشهاد سلط الله عليهم الطاعون فأهلك منهم عددا كبيرا ...

وبقى منهم ثلاثة أسباط ، لحقت فرقة منهم بالرمل ، وأخرى بشواهق الجبال ، والثالثة لاذت بإحدى جزر البحر ..

وظلوا متفرقين على خوف فترة طويلة قبل أن يعودوا إلى ديارهم الأولى ..

وبعد عودتهم قالوا لنبى لهم اسمه «حزقيل» : هل رأيت قوماً أصابهم ما أصابنا ؟

قال لهم : ولا سمعت بقوم فروا من الله كفراركم .

ثم تولى أمرهم بعد ذلك «شمويل» النبى فمكث فيهم عشرين سنة ، وأخذ شمويل ينبههم إلى ما ارتكبوه من أخطاء متكررة ، وأهمها الجبن والفرار والخوف من القتل . وأعلمهم أن الآجال محدودة والأعمار موقوته ، ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها .

وربما أثر فيهم وعظ نبيهم فترة فقالوا له ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله تحت رايته يجمع أمرنا ويعصمنا من الاختلاف على عدونا .

ونبيهم شمويل هو ابن بال بن علقمة ، ويعرف بابن العجوز ، ويقال له شمعون .

وإنما سمي بابن العجوز لأن أمه كانت عجوزا يئست من الحمل ، فسألت الله الولد وقد كبرت وعقمت فوهبه الله لها . ويقال له سمعون ، لأنها دعت الله أن يرزقها فسمع دعاءها - والعبرانيون يبدلون السين شيئا .

وهو من ولد يعقوب من نسل هارون (١) .

فقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ..

وطالوت هو ابن ساود بن بشر بن إينال بن طرون بن بحرون من نسل بنيامين بن يعقوب .

وكان قد مضى على خروج بنى إسرائيل من مصر إلى تمليك طالوت عليهم اثنتان وسبعون وخمسمائة سنة .

واختلف فى حرفة طالوت فقال بعضهم : كان يعمل سقاء ، وقيل كان دباغا، وقال بعضهم: كان عالما ، ولذلك رفعه الله بعلمه .

وثار بنو اسرائيل على هذا الاختيار ..

كانوا يقيسون الناس بمقياس الغنى والثروة .. فمن كان أكثر مالا كان أحق بالملك .. وهى نظرة قصيرة لا تنم عن حكمة عالية أو منطق سليم ..

فكم من غنىّ لا يعرف فى تدبير الملك شيئا ولا يحسن سياسة الرعية ، ولا تسيير دفة الحكم..

ولكن الله - سبحانه وتعالى - له حكمته العليا . يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ..

فقال لهم نبيهم : إن الله قد اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم .

وكان طالوت جسيما طويلا . يقال إن الله جعل علامة للنبى شمويل يعرف بها وصف من سيؤتيه الله الملك . فأمره أن ينظر إلى القرن - وهو الوعاء الذى يوضع فيه الدهن - فالرجل الذى يدخل فيصوت الدهن الذى فى القرن

---

١) القرطبى جـ٣ ص ٢٤٤ ط دار الكتب .

فهو ملك بنى إسرائيل .

وكان طالوت قد ضلت له دابة فخرج يلتمسها . فذهب إلى شمويل النبى يسأله عنها أو لعله يدعو له دعوة فيعثر عليها ، فلما دخل عليه إذا بالدهن يصوت .

فقام شمويل ، وأخذ من الدهن، ومسح له رأسه، وقال له أنت ملك بنى إسرائيل فعليك أن تتولى أمرهم وتقودهم إلى حرب عدوهم .

ولم تجد ثورة بنى إسرائيل على طالوت واختيار نبيهم له ملكا عليهم شيئا .

قال لهم : إن الله قد اختاره ... وما دام الله قد اختاره فعليكم ألا تعصوا أمره. عليكم أن تسمعوا وتطيعوا .

سألوه عن آية يدركون بها ان الله قد اختاره ملكا عليهم .

فقال لهم : إن آية ذلك أن الله سيعيد لكم به التابوت فيه سكينة من ربكم .

ما هذا التابوت ؟

قال أهل التفسير : إن التابوت صندوق كان موسى عليه السلام قد وضع فيه التوراة والألواح والصحف وقد أودع فيه من العلوم ما تستقر بها النفوس وتسكن بها الأوراح، وتطمئن إليها القلوب. وظل أنبياء بنى إسرائيل يتوارثونه حتى غلب أهل بابل الاسرائيليين عليه فأخذوه منهم .

وكان بنو إسرائيل يتفاءلون بوجود هذا التابوت بينهم ، ويستفتحون به فى حروبهم . فلما غُلبوا عليه تطيروا وتشاءموا وأيقنوا بالهزيمة ..

فكان تبشير نبيهم لهم بأن علامة ملك طالوت عودة التابوت إليهم مبعث سرور لهم واطمئنان فى نفوسهم .

قالوا : وكان أهل بابل حين أخذوا التابوت من بنى إسرائيل أصيبوا بالأوجاع والكوارث والمصائب .

فقد وضعوه فى بيت أصنام فنكست الأصنام .

فوضعوه فى قرية فأصيب أهلها بأوجاع فى أعناقهم

فقالوا : ما هذا إلا من التابوت . فوضعوه على عجلة بين ثورين وأرسلوهما نحو بلاد بنى إسرائيل ، فأقبلا يجريان ، حتى دخلا وبنو إسرائيل يتنازعون فى أمر طالوت .

فلما رأوا التابوت قد جاء أدركوا العلامة التى أخبرهم بها نبيهم فآمنوا وصدقوا ورضوا بطالوت ملكا عليهم .

وسكنت قلوب بنى إسرائيل بوجود التابوت، وهذه هى السكينة التى تشير اليها الآية الكريمة «فيه سكينة من ربكم» وكان قد أودع فى هذا التابوت بعض آثار أنبياء بنى إسرائيل كعصا موسى ، وبعض بقايا الألواح التى ألقاها موسى فتكسرت وبعض ثياب موسى وهارون ..

النبى شمويل يأمر طالوت بالقتال :

وأصدر النبى شمعون . وهو شمويل – كما علمنا – أمره إلى الملك طالوت أن يتوجه ومن معه من بنى إسرائيل إلى بيت المقدس لإخراج البابليين وملكهم جالوت منها .

وكان جالوت قد اشتد سلطانه وكثرت عساكره وقواده وأعوانه، وغلب على بيت المقدس .

ويقال فى نسبه :

هو جالوت بن بابول بن ريال بن حطان بن فارس .. كان رأس العمالقة ومن أشد الناس وأقواهم ، وبلغ من قوته أنه كان يهزم الجيش وحده ..

وبلغ جالوت سير بنى إسرائيل بقيادة طالوت اليه .

فسارع جالوت من فلسطين بأجناس من البربر ..

مشى كل من الجيشين إلى صاحبه ، وكان مع طالوت من الجنود ما قدّره الرواة بثمانين الفا، لأنه لم يتخلف من بنى إسرائيل عن القتال إلا ذو العذر القاهر .

وقد اجتمع هؤلاء الثمانون الفا على ما اشترطه عليهم طالوت، فإنه قد قال لهم : لا يخرج معي رجل بنى بناء لم يفرغ منه ، ولا صاحب تجارة ينشغل بها،ولا رجل عليه دين،ولا رجل تزوج من امراة وهو يريد أن يبنى بها.

لا أريد إلا كل شاب جلد نشيط فارغ من شواغل الدنيل، مفرغ قلبه لله ...

سار طالوت بجنوده، وكان الحر شديدا.. وسلط الله عليهم العطش.. وطلبوا من ملكهم الماء .. بنهر بين الأردن وفلسطين .. وكأن الله – سبحانه – قد أرد أن يلقن هؤلاء الجنود درساً فى الانضباط، ومدى الطاعة للقائد، فأصدر الملك أوامره قائلا لهم : إن الله يبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ..

ما أقسى هذا الابتلاء عليهم ..

لقد بلغ منهم العطش أقصاه. والحر شديد .. والماء عذب . فكيف يصبرون على العطش والماء أمامهم أيكون مثلهم مع ملكهم مثل الذى يقال له :

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له .:. إياك إياك أن تبتل بالماء ؟

أو يصبح مثلهم كمثل الذى قيل فيه :

ظمآن والماء فى فمه .

ياله من اختبار لهؤلاء الذين لم يصمدوا قط أمام أى اختبار ...

ولم يصبر كثير من الجنود على إغراء الماء، وهان أمامهم تحذير الملك .

فلما وصلوا إلى حافة النهر انكب المخالفون على النهر يعبون منه عبا وولغ أهل الريبة منهم ولوغ الكلاب فقتلهم طالوت بيده[1] .

أما الصالحون منهم فقد اكتفوا بالغرفة التى أشار بها طالوت، وبارك الله لهم فى هذه الغرفة فأذهبت عنهم حرقة العطش .

وكان عدد هؤلاء الصالحين الذين استقاموا على الأمر ثلاثمائة وثلاث عشرة رجلا . أما الباقون فلم ينجحوا فى الاختبار . وأعادهم طالوت من حيث أتوا ..

واجتاز طالوت بهؤلاء الصالحين النهر ..

---

(١) مروج الذهب جـ١ ص ٤٠ .

المواجهة :

وجانب ساعة اللقاء بالعدو . وندب طالوت جنوده الذين بقوا معه للجهاد وحثهم على الصبر والمصابرة أمام جيش جالوت الكثيف ومنظره المخيف . وقال طالوت : من يخرج لجالوت فله ثلث ملكي وأزوجه ابنتي ..

فخرج داود له ..

وكان داود أحد ثلاث عشرة أخاً وهو أصغرهم. قال لأبيه يوما :

يا أبت ، إني لم أرم قط بقدحي شيئا إلا صرعته في الحال . فقال له أبوه : أبشر يا بني فإن الله - تعالى - جعل رزقك في قدحك .

ثم قال لأبيه مرة أخرى : يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فرأيت أسدا عظيما فلم آبه له ، فخضع لي حتي ركبته، ثم قبضت بيدي على منكبيه، فتركته هناك ميتا .

فقال له أبوه : أبشر يا بني فإنْ سعدك أقبل .

ثم قال لأبيه يوما : يا أبت إني إذا سبَّحْتُ بالليل سمعت الجبال تسبح معي .

فقال له أبوه : ابشر يا بني ، فهذا دليل نبوتك ..

فهذا داود الذي خرج لقتال جالوت ..

واصطف الجيشان إيذانا ببدء المعركة . فقال المؤمنون : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ..

والمؤمنون - عادة - لا ينتصرون بعددهم ، ولكنهم ينتصرون بيقينهم وثقتهم في الله ..

كان عدد المسلمين في غزوة بدر بعدد جنود طالوت ، ومع ذلك فقد نصرهم الله على عدوهم الذي يتضاعف عنهم في العدد ثلاث مرات ..

ودعا المؤمنون ربهم قائلين : ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين واستعانوا بالله .

وأخرج داود مقلاعه ، ووضع فيه حجرا من أحجار كانت معه وقال : باسم

الله رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى ، ورمى جالوت بمقلاعه فانطلق الحجر كالسهم ففلق هامة جالوت .

وقتل جالوت، وبقتله انهارت صفوف جنوده واستولى عليهم الرعب وولوا هاربين .

وركب بنو اسرائيل اكتافهم ، وما زالوا بهم حتى أجلوهم عن بيت المقدس ...

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه القصة بقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ

هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

إن في هذه القصة عظات وعبرا ..

فهي تدلنا على أنه ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا .. وما فرط قوم في الاستجابة لأمر دينهم إلا كتبت الذلة والمسكنة عليهم ..

وقد حثنا الدين على الجهاد في سبيل الله ، وهناك أثر يقول:الجهاد ماض إلى يوم القيامة .

ذلك أن الدنيا مبنية على الغلبة والتدافع، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

وهى تدلنا على الاستعانة بالله فى الحرب ، وعدم الاتكال على حول الجنود وقوتهم وعدتهم ، فإن الله - سبحانه - ينصر من يشاء برحمته ومن الحكمة الأخذ بالأسباب فى الحرب مع ضرورة الاستعانة بحول الله وقوته مصداقا لقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ..﴾[1] .

وعدم الاستهانة بأمر أى جندى فى القتال مهما صغر، فقد يكون ذلك الصغير لديه من سعة الحيلة - وحسن التصرف ما ليس عند غيره، وقد قالوا فى تفسير هذه الآيات أن طالوت استحقر شأن داود فى أول أمره وازدراه لصغر سنه وقصره فرده ولكن حين نادى طالوت أكثر من مرة لم يجد من يلبيه إلا داود ، فاختبره فوجده صلبا قويا فأعطاه فرسه وسلاحه . فرفض داود ذلك وقال: لا أقاتل إلا على عادتي . وعادته أن يقاتل راجلا بمقلاعه ..

---

(١) الأنفال ٦٠

وكان أرمى الناس بالمقلاع..

وكما استهان طالوت بداود استهان به جالوت..

لأنه حين دعا للمبارزة. خرج له داود، وليس معه سيف أو درع بل معه مخلاة بها حجارة ومقلاع.

وأسمع داود جالوت كلاما قاسيا مما جعل جالوت يقبل عليه محاولا أن يجعل لحمه طعمة للطير والسباع كما قال له..

ولكن داود كان أسرع اليه من نفسه فقد لوح نحوه بمخلاته وقذفه بما فيها من حجر فلق به هامته والقاه صريعا.

ومن الآيات ندرك سعة فضل الله. وأن ملكه لا يؤتيه إلا على علمه وحكمته، وليس الملك باختيار الإنسان أو بمجهوده يصل اليه.. وهذا طالوت لم يكن فى زعمه يوما أن يكون ملكا. ولم يكن فى ذهنه أو فى آماله يوما أن يتملك على شيء.. وكان يقوم بأعمال متواضعة، ومع ذلك فقد اختاره الله ليكون ملكا على بني إسرائيل وفيهم النبوة، وجعل يخوض بهم أشرف المعارك لاسترداد بيت المقدس من الجبارين الذين استولوا عايه.

وكذلك داود عليه السلام، لم يكن فى ذهنه أن يكون نبيا، ولكن الله اعطاه الملك والنبوة – وسنعرض لقصته بالتفصيل إن شاء الله –

وفى الآيات الكريمة السابقة دعوة الى الانفاق في سبيل الله، وقد وعد الله المنفق بالثواب الجزيل والعطاء الوفير. ومن كرم الله – تعالى – أن وهبنا المال واستقرضه منا ووعدنا بالمضاعفة في ثوابه.. ليس ذلك لحاجة منه إليه، بل لتعويدنا كيف تسخو نفوسنا بالعطاء، وحتى لا يكون المال وسيلة من وسائل التقاعس عن الحق والتأخر عن الواجب. وكم من أغنياء أتلفتهم الثروة وأوردتهم موارد التهلكة لأنهم أحبوا المال أكثر من الحق والواجب، وباعوا شرف الآخرة بدراهم معدودة..

وفى القصة دلائل على وجوب طاعة القائد والانصياع لأمره وعدم التفريط فيما يدعو إليه. لأن في ذلك صلاح الأمر ونيل النصر، وبخاصة إذا كان القائد متبعا لمنهج الدين مسترشدا بكتاب الله وسنة رسوله...

قصة طالوت فى العهد القديم :

ذكر العهد القديم قصة طالوت فى سفر صموئيل الأول .

ولكن لم يذكر باسمه طالوت كما ورد فى القرآن الكريم ، بل ذكر باسم شاول ولكن أحداث القصة التى ذكرها تشير إلى بعض الأحداث التى ذكرها القرآن الكريم مفصلة .

فقد لجأ بنو اسرائيل الى شيخهم صموئيل يضجون إليه بالشكوى ويطلبون منه أن يختار لهم ملكا يقاتلون تحت رايته فساء الأمر فى عينى صموئيل إذ قالوا «أعطنا ملكا يقضى لنا .. وصلى صموئيل إلى الرب . فقال الرب لصموئيل : اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك. لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياى رفضوا حتى لا أملك عليهم، حسب كل أعمالهم التى عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلي هذا اليوم وتركوني وعبدوا آلهة أخرى هكذا هم عاملون بك أيضا . فالآن اسمع لصوتهم . ولكن أشهد عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذى يملك عليهم...[1] .

ويمضى الحديث حول شاول الذى يذهب الى بيت صموئيل باحثا عن الأتن التى ضلت له ، فيملكه صموئيل على بنى إسرائيل، ويرفضه بنو اسرائيل، ولكن الأوصاف تنطبق عليه ، وتأتى الآيات مصدقة بأنه هو المطلوب إلى آخر ذلك مما ذكرناه ..

ولكن القرآن الكريم يسوق القصة بأسلوبه المعجز الذى يقدم تمجيد الله – تعالى – لأنبيائه والصالحين من عباده . ويرفعهم إلى مكانتهم العليا التى جعلتهم جديرين بما منحهم الله اياه من منزلة عليا وشرف رفيع ...

---

(١) العهد القديم – سطر صموئيل الأول الاصحاح الثامن .

يونس
- عليه السلام -

نسبه ..
قريته وقومه ..
مغاضبته ..
يونس في الماء ..
استغاثته بالله ..
نجاته ..

نسبه :

لم يذكر العلماء في نسب يونس – عليه السلام – إلا أباه فقالوا : يونس بن متى .. وأهل الكتاب يقولون عنه : إنه «يونان بن أمتاى» ..

وكانت قريته التى بعث إليها هى «نينوى» وهى مقابلة الموصل وبينهما دجلة .

قال المسعودى عنها : وهى في وقتنا هذا أى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة مدينة خراب كان فيها قرى ومزارع لأهلها .. وإلى أهلها أرسل الله يونس بن متى وآثار الصور فيها بينة واضحة وفيها أصنام من حجارة مكبوبة على وجوهها ، وفى ظاهر المدينة تل عليه مسجد ، وهناك عين تعرف بعين يونس – عليه السلام – ويأوى إلى هذا المسجد النساك والعباد والزهاد[1].

وقد وردت قصة يونس في القرآن الكريم فى سورتى الأنبياء والصافات .. بشىء من التفصيل وأشار إليها الحق سبحانه وتعالى فى موضعين .. في قوله تعالى :

﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لمَّا آمنوا كشفنا عنهم عذابَ الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾[2].

وفى قوله تعالى : ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه وجعله من الصالحين﴾[3].

---

(١) مروج الذهب جـ ١ ص ١٦١ .
(٢) الآية ٩٨ من سورة يونس .
(٣) الآيات ٤٨ : ٥٠ من سورة القلم .

وآية يونس المذكورة .. سميت بها السورة ..

وإفراد السورة بهذا الاسم له دلالة على أهمية هذه القصة وما فيها من عظات وعبر مهمة، تنبه العقول إلى ما يجب أن يكون عليه الناس من استعداد للتوبة الصادقة التى بمقتضاها يرفع الله العذاب ويمحو العقاب ..

القصة :

أرسل الله إلى أهل نينوى يونس - عليه السلام - ..

وكان رجلاً صالحاً اعتزل قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام، وأقبلوا عليها يسجدون لها، ويطوفون حولها، ويقربون إليها القرابين، ويجعلون لها عيدًا كل عام يجتمعون إليه ويرقصون ويلعبون .. وقيل: إن صنمهم اسمه «بعل»، وهو موافق لصنم قوم إلياس - عليه السلام -[٤].

رأى يونس منهم ذلك فاعتزلهم، وأقام بعيدًا عنهم فى كهف يعبد الله ويوحده .. فاختاره الله نبيًا وأوحى إليه أن يذهب إلى هؤلاء القوم منذرًا لهم وداعيًا إلى عبادة الله وحده، وترك ما هم فيه من عبادة الأصنام ..

وكانت سن يونس حين نُبِّىءَ - ثمانية وعشرين عامًا -[٥].

كذا قال الألوسى، وجاء فى البحر المحيط أن يونس كان فى زمن ملوك الطوائف من الفرس وكان ملكهم حوالى خمسمائة سنة من بعد الاسكندر الأكبر ..

وتوجه يونس إلى قومه - وكانت فيه حدة وشدة أملتها فورة الشباب - ولكنه لم يجد إلا آذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، وعيونًا عميًا ..

---

(٤) تفسير الألوسى جـ ٥ ص ٤١٣ .
(٥) تفسير الألوسى جـ ٢٣ ص ١٣٠ .

ومكث يدعوهم فترة ليست بالقصيرة قدَّرها بعضهم بثلاث وثلاثين سنة وهى فترة أكثر من عمره حين نبىء .. ولم يؤمن به - فيما أسنده الثعلبى إلى على بن أبى طالب - سوى رجلين أحدهما (روبيل) وكان عالمًا حكيمًا .. والآخر (تنوخا) وكان عابدًا زاهدًا(٦)..

وضاق صدره بكفرهم وعنادهم، فدعا عليهم ..

فخوطب: يا يونس ما أسرع ما دعوت على قومك. ارجع إليهم فادعهم أربعين يومًا أخرى، فإن أجابوك وإلا فاننى مرسل عليهم العذاب ..

وانصاع يونس للأمر، فعاد إلى قومه قائلاً لهم: أمامكم أربعون يومًا ويأتيكم سخط الله إن لم تتوبوا إلى رشدكم وتعودوا إلى صوابكم، وإنى أنذرتكم. وقد أعذر من أنذر ..

وكلما مر يوم يذكرهم بذلك .. قائلاً لهم مضى كذا وبقى كذا من الأيام. حتى بقى من الأجل المضروب ثلاثة أيام .. فصاح فيهم قائلاً: يا قوم لقد نبهتكم وأديت ما وجب علىَّ نحوكم ولم يبق بينكم وبين عذاب ربكم إلا ثلاثة أيام .. ذلك وعد غير مكذوب ..

إن آية ذلك العذاب الذى يقع عليكم هو أن تتغير ألوانكم فتصفر، ثم تحمر، ثم تسود .. وتركهم لتوه وانصرف بعيدًا عنهم .. خشى أن يصيبه العذاب معهم ..

وحل يوم العذاب الذى توعدهم به يونس، ونظر بعضهم إلى بعض فإذا وجوههم متغيرة .. لم تكن كما كانت بالأمس .. وبحثوا عن يونس فلم يجدوه .. فقال بعضهم لبعض: انظروا فوالله ما جربنا على يونس كذبًا، وإنه لصادق وها هى علامة إنذاره قد بدت على وجوهنا .. ولا يلبث أن ينزل بنا ما توعدنا به فهيا تداركوا أمركم قبل ألا تستطيعوا ..

وفزعوا إلى ملكهم ففزع معهم ..

---

(٦) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٤١٧.

وخرجوا نادمين على ما كان منهم .. حطموا أصنامهم ، ولبسوا مسوحهم وبرزوا إلى الخلاء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والعجيج وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا فرحمهم الله وكشف عنهم ، وكان يوم عاشوراء يوم جمعة .. وعن ابن مسعود : بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم بينهم ، حتى ان الرجل منهم كان يعمد إلى الحجر قد جعله أساسًا فى بيته فيرفعه ويعيده إلى مكانه ، وفرقوا بين كل والدة وولدها ، وبين كل فصيل وأمه وضجوا إلى الله بالدعاء وصرخوا إليه بصدق الالتجاء ، وارتفعت مع صراخهم صيحات الدواب في كل مكان إلى عنان السماء ، ونزلت الدموع من العيون مدرارًا وجرت على الخدود أنهارًا .. قائلين بلسان الصدق والرجاء ، يارب يا معبود ، ولا معبود سواه ، يا قابل التوب ويا سامع الصوت ممن دعاه .. تجاوز عن المذنبين ولا تأخذهم بذنوبهم وأحسن إليهم بالعفو عنهم والمغفرة لهم وعلَّمَهُم عالِمٌ من علمائهم القدامى كيف يقولون .. فقالوا : يا حيُّ حين لا حَيّ ، ويا حيُّ محيي الموتى ويا حيُّ لا إله إلا أنت[٧].

ولله أدعية يضع الله فيها أسراره يقبل بها الدعاء .. وفى القرآن الكريم ألوان سخية منها ..

فأيوب قال لربه : ﴿رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ ..

ومؤمن فرعون قال لربه : ﴿وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾ ..

وذو النون قال لربه على ما سيأتى : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ ..

وزكريا قال لربه : ﴿رب لا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين﴾ ..

---

(٧) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٧٢ .

كل هذه الأدعية دعا بها هؤلاء الأنبياء فتقبل الله دعاءهم وحقق رجاءهم، كما دعا غيرهم بأدعية أخرى ذكرها القرآن..

والأدعية ملجأ يلجأ بها المؤمن إلى ربه فيجد فى ظلها برد الرجاء وحلاوة الرضا وسرعة الاستجابة إن شاء الله..

ولما رأى الله صدق إقبالهم، وعلم منهم حسن استغفارهم.. قبل توبتهم وعفا عنهم، فكشف العذاب وآمنهم من العقاب..

قال بعض العلماء : كانت قد أظلتهم سحابة سوداء فيها العذاب، وإذا بها تتقطع اربع قطع ثم تتفرق[8].. وهذا قوله تعالى : ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾..

ولولا هنا تحضيضية تحمل معنى النفى.. أى فما كانت قرية آمنت فنفعها الإيمان إلا قوم يونس.. ليحذو الناس حذوهم، ويفعلوا مثلهم فيقبلون على الله بحال الافتقار ويلهجون إليه بألسنة الاستغفار فيتجلى عليهم سبحانه باسمه الغفار.. ويتوب عليهم إنه هو التواب الرحيم..

يونس يرقب عذاب قومه:

وجلس يونس بعيدًا يرقب ما سيحل بقومه من العذاب وهو مغاضب لهم، حزين على مصيرهم، آسف لما سيقع عليهم.. ولكنه لم ير شيئًا.. لم ينزل ما أخبر به من أن الأرض ستخسف بهم، أو أن الجبال ستدك عليهم، أو أن الصواعق سترسل إليهم.. لم يجد شيئًا من ذلك..

فحار فى أمره.. وأخذ يفكر.. وكأن الله لحكمة يعلمها لم يخبره بإيمانهم وقبول توبتهم..

وراودته الأحاسيس المختلفة.. لماذا لم يصدّقه ربه في الوعيد الذى أنذر به قومه؟ وكيف يكون حاله بينهم لو رجع إليهم وهم يشتدون فى

---

(٨) بدائع الزهور ص ١٧٧ .

عقاب الكاذب .. وكيف ينهاهم عن الكذب وقد كذب ؟ وكيف يحذرهم سطوة ربه ولم يتحقق من ذلك شيء ؟ لقد أصبح موقفه حرجاً .. والأولى به أن يترك هذا المكان بسرعة حتى لا يشير إليه أحد ببنانه قائلاً : هذا الذى توعدنا ولم يصدق فى وعيده، هذا الذى أنذرنا بالعذاب فى أجل مسمى ولم يأت العذاب فى أجله .. إنه لا يجرؤ على مواجهة قومه بعد ذلك أبدًا ..

وانصرف على وجهه هائمًا .. حتى وصل إلى شاطىء دجلة ..

يونس فى السفينة :

ووجد سفينة على وشك الإقلاع، فركبها مع الراكبين .. وحبست الأمواج السفينة عن التقدم، وأحاطت بها من كل جانب وأخذت تلعب بأقدار الراكبين ..

وكان يونس فى قاع السفينة نائمًا لا يحس بما فيه الراكبون من وجل، ولا بما يحيط بالسفينة من خطر حتى أيقظه بعضهم قائلاً له : أيها العبد الصالح – وكانوا قد توسموا فيه الصلاح – قم فانظر، وادع الله معنا أن ينجينا من هذا المصير .. وكانوا قد أجمعوا على أن يتخففوا من بعض أثقالهم عسى السفينة أن تنطلق ..

ورأى يونس ما أحاط بالقوم، وأدرك بفطنة الأنبياء أن ذلك لم يقع إلا بسببه، فاقترح عليهم أن يقترعوا فيمن يلقونه من السفينة عسى أن ينجوا من هذا المصير .. وأخذوا أسهمًا كتب كل واحد منهم اسمه على سهم وألقوها فى البحر، فطفا سهم يونس[٩] فألقى يونس بنفسه فى البحر ووجد حوتًا فاغرًا فاه فتلقفه وخاطب الله الحوت قائلاً له : إنى لم أجعل يونس لك رزقًا، فلا تخدش له جلدًا ولا تقصم له عظمًا وأخذه الحوت وهوى به إلى القاع ..

---

(٩) تفسير الألوسى جـ ٢٣ ص ١٣٠ .

وأسمعه الله تسبيح هوام البحر ودوابه ..

فأقبل على الله يهتف بالتسبيح .. قائلاً : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ..

وقالت الملائكة لرب العزة : يارب إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة .. قال : هذا عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت ..

قالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال : نعم، فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت أن يقذفه بالساحل[١٠] ألقاه الحوت على الشاطىء وهو سقيم ضعيف .

واختلف فى مدة بقائه فى بطن الحوت ..

فقيل : التقمه ضحًا ولفظه عشية ، وقيل : مكث فى بطنه ثلاثة أيام ، وقيل : سبعة أيام ، وقيل : عشرين يومًا ، وقيل : أربعين[١١]..

والمعجزة ثابتة ليونس على أية حال ولو ببقائه لحظة .. فما يمكن لانسان يبتلعه حوت أن يبقى سالمًا فى جوفه . فإن سلم من الافتراس لم يسلم من الاختناق ولكن يونس عليه السلام سلم .. وسار الحوت بيونس وقطع به مسافات طويلة .. حتى ألقاه فى (نِصِّبين) من ناحية الموصل .. فنبذه فى أرض عراء لا شجر فيها ولا معلم .

لغز فى حوت يونس :

وفى سير الحوت بيونس وهو فى جوفه أورد العلماء لغزًا حكاه الدميرى قال :

روى الدينورى فى المجالسة ، وأبو عمر بن عبد البر فى التمهيد عن أبى العباس محمد بن اسحاق السراج قال : حدثنا هشيم عن على بن زيد

---

(١٠) تفسير القرطبى سورة الصافات ص ٥٥٦٨ .

(١١) تفسير الألوسى .

عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كتب صاحب الروم إلى معاوية -رضى الله عنه- يسأله عن أفضل الكلام ما هو ؟ وعن الثانى والثالث والرابع والخامس ، وكتب إليه يسأله : عن أكرم الخلق على الله وعن أكرم الأماء على الله ، وعن أربعة من الخلق فيهم الروح لم يرتكضوا فى رحم ، ويسأله : عن قبر مشى بصاحبه وعن المجرة ، وعن القوس ، وعن مكان طلعت فيه الشمس لم تطلع عليه قبل ذلك ولن تطلع عليه بعد ..

فلما قرأ معاوية الكتاب قال : عجبًا لهذا الرجل ، وما علمى بتلك الأمور ؟ فقيل له اكتب إلى ابن عباس .

فكتب إليه بذلك فرد عليه :

إن أفضل الكلام لا إله إلا الله . كلمة الإخلاص لا يقبل عمل إلا بها والتى تليها سبحان الله وبحمده .. صلاة الحق ..

والتى تليها : الحمد لله .. كلمة الشكر ..

والتى تليها : الله أكبر ، والخامسة لا حول ولا قوة إلا بالله ..

وأما أكرم الخلق على الله فآدم - عليه السلام - خلقه بيده وعلمه الأسماء كلها ..

وأما أكرم إمائة عليه فهى مريم التى أحصنت فرجها فنفخ فيها من روحه ..

وأما الأربعة الذين لم يرتكضوا فى رحم فآدم وحواء وناقة صالح والكبش الذى فدى الله به إسماعيل وقيل : عصا موسى حين ألقاها فصارت ثعبانًا ..

وأما القبر الذى سار بصاحبه فهو الحوت حين التقم يونس - عليه السلام - وأما المجرة فباب السماء وأما القوس فهو أمان لأهل الأرض من الغرق بعد قوم نوح .

وأما المكان الذى طلعت فيه الشمس ولم تطلع عليه قبله ولا بعده فهو المكان الذى انفلق فى البحر لبنى إسرائيل ..

فلما قدم الكتاب قال ملك الروم ما أصاب هذا إلا رجل من بيت النبوة[١٢].

شجرة اليقطين :

تمت المعجزة ليونس عليه السلام بعد أن نبذه الحوت فى العراء بأن أنبت الله عليه شجرة من يقطين .

وهى الدباء «القرع» ومن خصائصها اللين والنعومة وعظم الورق وأنها شفاء للقروح ولا يقترب منها ذباب .. ويونس كان فى حاجة إلى الظل ، وجسمه كان متسلخًا من حرارة جوف الحوت وعاريًا تؤذيه حرارة الشمس واجتماع الذباب ، فكان فى هذه الشجرة ظله وشفاؤه وطعامه . وقيض الله له أُرْوِيَّةً تسقيه بلبنها تغاديه وتراوحه .. وقيل : كان يتغذى من اليقطينة يجد فيها كل ألوان الطعام والأُروية -بضم الهمزة واسكان الراء وكسر الواو وتشديد الياء- هى الأنثى من الوعول .

رحمة الله قريب من المحسنين :

لقد أدركت يونس رحمة الله ، إذ نادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .. قال العلماء الظلمات هى : ظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة بطن الحوت .. فاستجاب الله له سريعًا فنجاه من الغم .. وقد وعد الله بأن يكون فى هذا الدعاء وسيلة لنجاة من يهتف به إذ قال الله تعالى ﴿وكذلك ننجى المؤمنين﴾ ..

---

(١٢) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٦٥٢ .

روى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص أن النبى - ﷺ - قال: «دعاء يونس في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين لم يدع به رجل مسلم فى شىء قط إلا استجيب له»..

وقال العلماء إن هذه الآية شرط الله لمن يجيب دعاءه لأن الله قال: ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ وهذا يدل على سعة رحمة الله تعالى وسرعة استجابته.. وأنه لا تخفى على الله خافية فى الأرض وفى السماء..

ذكر الزمخشرى فى الكشاف قائلاً: قال ابن العربى أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين الجويني -رحمه الله- أنه سئل عن البارى - سبحانه - في أى جهة؟ فقال: هو يتعالى عن ذلك. قيل له: ما الدليل على ذلك؟ قال الدليل على ذلك قول النبى - ﷺ -: لا تفضلونى على يونس بن متى. فقيل له: ما وجه الدلالة فى هذا الخبر؟ قال: لا أقوله حتى يأخذ ضيفى هذا ألف دينار يقضى بها دينا. فقام رجلان فقالا: هي علينا وقام رجل فقال: هى على.

فقال: إن يونس بن متى رمى بنفسه فى البحر فالتقمه الحوت، فصار فى قعر البحر فى ظلمات ثلاث، ونادى: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. كما أخبر الله عنه. ولم يكن محمد - ﷺ - حين جلس على الرفرف الأخضر وارتقى به صعدا، حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه صريف الأقلام، وناجاه ربه بما ناجاه به وأوحى إليه بما أوحى بأقرب إلى الله تعالى من يونس فى بطن الحوت فى ظلمة البحر..

فائدة التسبيح:

ومن هنا تظهر فضيلة التسبيح. والتسبيح تنزيه الحق وتقديسه، ووصفه بما يليق به من صفات الكمال..

والتسبيح ينجى صاحبه من الهلاك ويأخذ بيده إلى طريق الرشاد، فقد قال تعالى فى حق يونس ﴿فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون﴾[١٣].

---

(١٣) الآيتان ١٤٣، ١٤٤ من سورة الصافات.

لقد نجى الله يونس ببركة تسبيحه لله ..

وقد أخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك بن قيس قال : اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة فإن يونس – عليه السلام – كان عبدًا صالحًا ذاكرًا الله تعالى ، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى عنه : فلولا أنه كان من المسبحين للبث في طنه إلى يوم يبعثون » .. وان فرعون كان عبدًا طاغيًا ناسيًا لذكر الله تعالى فلما ادركه الغرق قال : «آمنت انه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » .. فقيل له : « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين »[١٤]..

يونس في طريقه لقومه :

بقي يونس في ظل اليقطينة حتى شفيت جروحه ، وكانت إقامة اليقطينة إقامة زائل لا إقامة راسخ .. فبينما هو كذلك إذ رأى اليقطينة تجف من فوقه . ويمسه حر الشمس .. فجزع لذلك فأوحى الله إليه قائلاً : يا يونس ، جزعت ليقطينة يبست ، ولم تنبتها بيدك ، ولم تتعب في غرسها وسقيها ، وهي مقدر عليها الجفاف والهلاك ، ولم تجزع لهلاك قوم آمنوا بي واستغفروني فغفرت لهم وأبدلت سيئاتهم حسنات ؟ عند ذلك أدرك يونس علة رفع العذاب عن قومه وسبب التقام الحوت له وعلم أن ذلك كان عقابًا له من السماء لأنه لم ينتظر الوحي ، ولم يسأل ربه في أمر قومه .. وكأنه كان مُصِرًا على أن يأتيهم العذاب ..

ومن ذلك تبرز منزلة سيدنا محمد – ﷺ – الذى كان لا يكف عن طلب الهداية لقومه على الرغم من تكرار الأذى منهم له ولمن آمن به .. وكانت دعوته المفضلة لهم : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ..

ولذلك وصفه الله –تعالى– بقوله : ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾[١٥]..

---

(١٤) تفسير الألوسي جـ ١٣ ص ١٣٠ .

(١٥) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

وحين آذاه قومه من أهل الطائف، وأساءوا استقباله، وأغروا سفهاءهم به فقذفوه بالحجارة، دعا الله وناجاه .. فكلمه جبريل فى شأن عقابهم فقال ﷺ : دعهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله ..

فقال له جبريل : صدق من سماك الرءوف الرحيم.

وأمر الله يونس أن يتوجه إلى قومه فقد آمنوا وحسن إيمانهم ..

قال له يونس : هل فيهم خير ؟ قال : نعم.

فمضى إليهم وأقام معهم. وكان عددهم كما ذكر الله فى كتابه مائة ألف أو يزيدون.

والزيادة قدرها بعض العلماء بعشرين ألفا وقدرها بعضهم بغير ذلك ..

لقد آمن قوم يونس بيونس فأمنهم الله من العذاب فى الدنيا والآخرة ..

كشف عنهم عذاب الخزى الذى توعدهم به فى الدنيا، بعد أن رأوا نذره وهم فى الآخرة فى جنة الخلد، لا شك فى ذلك ..

وأبقاهم الله فى نعمة الإيمان إلى آجالهم المقدرة لهم .. وهذا ما يفيده قوله تعالى : (فآمنوا فمتعناهم إلى حين)

القصة فى القرآن

لقد وردت قصة يونس فى القرآن فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [١٦]

وإن فى قصة يونس لآيات لمن يعتبر ..

منها أن الله جلت قدرته لا يعجزه شىء، وهو يتولى عباده الصالحين، يرقبهم برحمته ويشملهم برعايته،

---

(١٦) الصافات ١٣٩ : ١٤٨

وقد كان يونس ـ عليه السلام ـ وهو فى بطن الحوت محل نظر الله ولطفه حتى قال للحوت : أنا ما جعلته لك رزقا ، فلا تخدش له جلدا ولا تقطع له لحما ولا تكسر له عظما ..

ومنها أن التوبة الصادقة تكشف العذاب ، وترفع العقاب .. وقد سجل ذلك القرآن الكريم . فى قوله تعالى (فلو كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى)(١٧)

وللتوبة الصادقة علامات من أهمها الندم والفرار إلى الله والهتاف إليه بالاستغفار ، واستشعار الحزن على ما حدث من معصية ، والعزم الصادق على هجران الذنوب ، والاقبال بالشوق على الله وتجديد العهد معه على مداومة الطاعة ..

وقد دعا الله إلى التوبة كل الناس .. لم يستثن منهم أحداً .. فقال للكفار على لسان النبى ـ ﷺ ـ : (وَ أنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى)(١٨)

وقال للمؤمنين : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً)(١٩)

المغاضبة

تحدث المفسرون فى معنى (مغاضبا) من قوله تعالى ـ (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه)(٢٠)

فقال قوم : إنه كان مغاضبا لقومه .. أى غضب منهم لأنهم لم يطيعوه فى الاستجابة له .. وهذا هو الأنسب لمقام النبوة ..

وروى أنه لم يكن مغاضبا لقومه ، ولكنه كان غاضبا على الملك

---

(١٧) يونس ٩٨

(١٨) هود ٣

(١٩) التحريم ٨

(٢٠) الأنبياء ٨٧

حزقيل الذى كان معاصرا له مع أشعيا النبى فى عصره ... وقصة ذلك فيما رواه بعضهم عن ابن عباس : أن يونس وقومه كانوا يسكنون فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصف سبط، فأوحى الله إلى أشعيا النبى : اذهب إلى حزقيل الملك وقل له يوجه خمسة من الأنبياء لقتال هذا الملك الذى سبى الأسباط فذهب فأبلغه الرسالة .

فقال حزقيل أوجه يونس بن متى فانه قوى ..

فدعاه الملك وأمره أن يخرج . فقال له يونس : هل أمرك الله تعالى بإخراجى ؟ قال : لا .

قال : هل سمانى لك ؟ قال : لا .

فقال يونس : فههنا أنبياء غيرى .

فألحوا عليه فخرج مغاضبا . فأتى بحر الروم ..

وحدث ما حدث من أمر السفينة والاقتراع .[٢١]

وروى بعضهم فى المغاضبة قصة أخرى : أسندوها إلى الحسن البصرى :

قالوا : إنه خرج مغاضبا لربه وذلك أنه أمره بالمسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه ، فسأل ربه ان ينظره ليتأهب للشخوص إليهم ، فقال له الأمر أسرع من ذلك ولم ينظره ، حتى سأله أن ينظره إلى أن يأخذ نعله ليلبسها فقيل له نحو القول الأول ، فظهر عليه بعض الضيق . وقال : اعجلنى ربى أن آخذ نعلى فألبسها فذهب مغاضبا .. وفى هذا القول ما ترى مما هو بعيد عن العقل وعن أوصاف الأنبياء .

وأسند بعضهم إلى ابن عباس أن الله أمره أن ينطلق إلى أهل نينوى لينذرهم أن العذاب آتيهم إن لم يتوبوا . فقال:التمس دابة فقال : الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلى البحر فركب سفينة فكان من أمره ما كان ..

---

(٢١) تفسير الألوسى جـ١٧ صـ٥٦ ، قصص الأنبياء للثعلبى صـ٤١٦ .

ولكن هذه الأخبار فى حاجة إلى تمحيص لأنها لا تتفق ومقام النبوة وأولى الأمور فى ذلك أن تكون مغاضبته لقومه لأنهم عصوه ولم يستجيبوا لما فيه نجاتهم وفلاحهم . وكان غضبه عليهم من أجل الله . فخرج إلى البحر .. وفراره إلى البحر كان بسبب عدم رؤية العذاب فلما لم ينزل العذاب خشى أن يتهم بالكذب وَعزَّ عليه ذلك ..

وإذا كان هذا هو المعنى فما المقصود بمؤاخذته ونهى النبى - ﷺ - عن التشبه به حين قال له ربه :

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾

المؤاخذة كانت - والله أعلم - لعدم صبره على مطاولة قومه ومهاجرته لهم قبل أن ينتظر الإذن من ربه .. ومهمة الرسول هى الحلم والعفو والدعاء لقومه بالهداية وحسن الاستجابة ..

أما قوله تعالى : (فظن أن لن نقدر عليه) فهو من التقدير والتضييق مثل قوله تعالى : (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) .

وفيما يروى فى ذلك .. عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه دخل على معاوية فقال له : لقد ضربتنى لجج القرآن البارحة فغرقت فيها : فلم أجد لنفسى خلاصا إلاَّ بك . قال : وما هى يا معاوية ؟ فقرأ قوله «وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه» .

وقال : أويظن نبى أن الله لن يقدر عليه ؟ قال ابن عباس : هذا من القدْر لا من القدرة [٢٣]

قصة يونس عند أهل الكتاب

ذكر الألوسى فى تفسيره قصة يونس عند أهل الكتاب وهذه هى فى إيجاز :

---

(٢٢) القلم ٤٨ : ٥٠

(٢٣) تفسير الكشاف جـ ٣ صـ ١٣٢

أمر الله يونس بالذهاب إلى أهل نينوى – وكانت إذ ذاك عظيمة لا تقطع إلا فى نحو ثلاثة أيام ، وكانوا قد عظم شرهم وكثر فسادهم ، فاستعظم الأمر وأراد الهرب إلى (ترسيس) فجاء (يافا) فوجد سفينة يريد أهلها الذهاب بها إلى (ترسيس) فاستأجر وأعطى الأجرة وركب السفينة فهاجت ريح عظيمة وكثرت الأمواج وأشرفت السفينة على الغرق ، ففزع الملاحون ورموا فى البحر بعض الأمتعة لتخف السفينة ، وعند ذلك نزل يونس إلى بطن السفينة ونام . فتقدم إليه الرئيس فقال ما بالك نائما ؟ قم وادع الهك لعله يخلصنا مما نحن فيه ولا يهلكنا .

وقال بعضهم لبعض : تعالوا نتقارع لنعرف من أصابنا هذا الشر بسببه ؟ فتقارعوا فوقعت القرعة على يونس . فقالوا له أخبرنا ماذا عملت ومن أين أتيت ؟ وإلى أين تمضى ومن أى كور أنت ومن أى شعب أنت ؟

فقال لهم : أنا عبد الرب إله السماء خالق البر والبحر .

ثم أخبرهم خبره ، فخافوا خوفا عظيما .

وقالوا له : لم صنعت ما صنعت ؟ يلومونه على ذلك ثم قالوا : له ما نصنع الآن بك ليسكن البحر عنا .

قال : القونى فى البحر يسكن ، فانه من أجلى صار هذا الموج العظيم . فجهد الرجال أن يردوها إلى البر فلم يستطيعوا فأخذوا يونس والقوه فى البحر لنجاة جميع من فى السفينة .

فسكن البحر وأمر الله تعالى حوتاً عظيما فابتلعه وبقى فى بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليال فصلى فى بطنه إلى ربه واستغاث به ، فأمر سبحانه وتعالى الحوت فألقاه إلى اليابس ثم قال عز وجل : قم وامض إلى نينوى وناد فى أهلها كما أمرتك من قبل فمضى ونادى وقال : تخسف نينوى بعد ثلاثة أيام فآمن أهل نينوى ونادوا بالصيام ولبسوا المسوح جميعا ووصل الخبر إلى الملك فقام عن كرسيه ونزع حلته ولبس مسحا وجلس على الرماد . ونودى الا يذوق أحد من الناس والبهائم

طعاماً ولا شراباً وجأروا إلى الله ورجعوا عن الشر والظلم فرحمهم الله فلم ينزل بهم العذاب .

فحزن يونس وقال : إلهي من هذا هربت فاني أعلم انك الرحيم الرءوف الصبور التواب ، يارب خذ نفسي فالموت خير لي من الحياة .

فقال الرب : يا يونس حزنت من هذا جدا ؟ فقال : نعم . وخرج يونس وجلس مقابل المدينة وصنع له هناك مظلة وجلس تحتها إلى أن يرى ما يكون في المدينة فأمر الله تعالى يقطينا فصبعد على رأسه ليكون ظلاله من كربه ففرح باليقطين فرحا شديدا وأمر الله تعالى دودة فضربت اليقطين فجف ، ثم هبت ريح سموم وأشرقت الشمس على رأس يونس فعظم الأمر عليه واستطيب الموت فقال له الرب : يا يونس حزنت جدا على اليقطين . فقال : نعم يارب . فقال له : حزنت عليه وأنت لم تتعب فيه ولم تربه بل صار من ليلته وهلك من ليلته فأنا أشفق على نينوى المدينة العظيمة التي فيها كثير من الناس قوم لا يعلمون يمينهم ولا شمالهم وبهائمهم كثيرة ؟

قال الآلوسي : وفيه من المخالفة مافيه ، نقلته لك لتطلع على حاله . وكم لأهل الكتاب من باطل .

فضل يونس

مما ورد في فضل يونس عليه السلام ما رواه البخاري عن النبي – ﷺ – لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى)[٢٤]

والنبي – ﷺ – سيد المتواضعين ..

وفي هذا الحديث تزكية ليونس – عليه السلام – وبيان لفضله ،

لقد ذكر الله يونس في القرآن الكريم في سلسلة الأنبياء الكرام ولذلك يجب وضعه في منزلته ، التي وضعه الله فيها

---

(٢٤) أخرجه البخاري عن شعبة عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس . باب الأنبياء ٢٤ : ٣٥ وفي كتاب الأحاديث القدسيةجـ١ صـ٢٤٣

وقد اجتباه ربه وجعله من الصالحين ، ورد إليه الوحى ، وشفعه فى نفسه وفى قومه وقبل توبته وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون (٢٥) .

وأما ما حدث له فهو من قبيل المحنة والابتلاء الذى يبتلى به الله الصالحين من عباده ، وأشد الناس بلاء هم الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

وقد ذكره النبى – ﷺ – فى موضع اشتد فيه عليه البلاء ، وذلك عند انصرافه من الطائف ، وقد آذاه أهلها من ثقيف إيذاءً شديداً ، واستقبلوه أسوأ استقبال ، فجلس تحت جدار حائط ورفع شكواه إلى ربه قائلا : اللهم انى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح على أمر الدُنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل علىَّ سخطك لك العقبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك .

ورآه أصحاب الحائط فأرسلوا له قطفاً من عنب فى طبق مع غلام اسمه عداس . فلما جاءه به ووضعه بين يديه سمى قائلاً باسم الله ..

فنظر عداس فى وجهه ثم قال له : هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد .

فقال له الرسول : من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال عداس : أنا نصرانى من نينوى .

فقال : الرسول : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى .

فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال الرسول : ذاك أخى كان نبيا وأنا نبى فاكب على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه .

فلما عاد عداس إلى صاحبيه . قال : ما فى الأرض خير من هذا . لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى .. (٢٦)

---

(٢٥) القرطبى جـ ٢ صـ ٦٧٣٣

(٢٦) سيرة ابن هشام جـ ٢ صـ ٢٩

وفاته

نكر ابن إياس أن يونس أقام بنينوى . يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ثم توجه إلى الكوفة فمات بها ودفن هناك . وقيل دفن بالقرب من مدينة صيدا من أعمال الشام على شاطىء البحر الملح ، وبنى عليه مسجد يزار ويتبرك به وهو باق إلى الآن وهو المشهور .[٢٧]



---

(٢٧) بدائع الزهور ج ١٨٠

إلياس عليه السلام

نسبه ..

قومه ..

ذكره في القرآن الكريم ..

قصته ..

إلياس والخضر ..

ما روى عن قصة لقائه بالنبي ﷺ

نسبه :

قال الطبراى : هو إلياس بن ياسين بن فنخاص بن العيوار بن هارون أخي موسى – عليه السلام فهو إسرائيلي من سبط هارون[1] .

وحكى ابن قتيبة انه من سبط يوشع بن نون[2] .

ويذكر أهل الكتاب أنه هو النبى (يليا) المذكور فى التوراة[3] .

وقد ورد ذكر إلياس فى القرآن الكريم مرتين .

مرة فى سورة الأنعام فى سلسلة الأنبياء المذكورين فى آية .. وتلك حجتنا[4] ..

ومرة فى سورة الصافات حيث ذكر الله قصته .

قوم الياس :

وقوم إلياس هم سبط من بنى اسرائيل أسكنهم يوشع المدينة المعروفة اليوم ببعلبك .. وقال بعضهم : إنها كانت تسمى (بك) ، ثم سميت بما عرف على التركيب المزجي (بعلبك) وبعلبك معناها مدينة البعل ، او مدينة الرب وهى مدينة مشهورة فى الجهة الشمالية من سهل البقاع ، ويقال : إن بها قبر إلياس النبى ويقال : إن سليمان عليه السلام هو الذى بناها ، وانه بنى بها قصره المشهور الذى أهداه الى بلقيس ملكة سبأ وجعله مهرا لها[5] –

---

(١) تفسير الالوسى جـ ٢ صـ ٣٢٦ .
(٢) المعارف لابن قتيبة صـ ١٧ .
(٣) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٤ صـ ٣٨٢ .
(٤) الأنعام ٨٥ .
(٥) دائرة معارف البستانى .

وهى الآن بلدة فى داخل لبنان على ارتفاع ٣٧٠٠ قدم تقريبا فوق هضبة البقاع وتحيط بها واحة من البساتين يرويها ينبوع راس العين الكبير الذى ينبثق عند سطح سلسلة جبال لبنان الشرقية، وقد نالت اعجاب الكتاب العرب بجوها الطيب وجمال نباتها -[٦].

بعل:

أما بعل الذى ركبت معه الكلمة فهو - كما تقول دائرة معارف البساتي - صنم عبده الفينيقيون والكنعانيون، ويراد به الشمس أو المشترى.

وقد يأتى بمعنى حاكم أو صاحب أو مالك ويأتى اسما للمعبود وهو كثير فى اللغة العبرانية..

وكانت عبادة البعل عبادة الاسباط العشرة وحكومتهم فى أيام «آخاب» ملك اسرائيل، ومع أن هذه العبادة الوثنية كانت أحيانا تبطل إلا أنها لم تتلاش قط من تلك المملكة.

وامتدت فى مملكة يهوذا. وكانت لبعل مذابح كثيرة تذبح فيها الذبائح تقربا إليه، وأقيمت هياكل جعلت فيها تماثيله، وكان له كثير من الكهنة من رتب مختلفة، وعبدته يلبسون حللا مخصوصة يوقدون له البخور ويقدمون له المحرقات - القرابين - وكان من جملتها أحيانا ذبائح بشرية.

وكان الكهنة عند اقامة الخدمة يرقصون حول المذبوح ويصيحون بأصوات عالية، ويجرحون أنفسهم بالسكاكين ارضاء للمعبود.

وقد ورد ذكر بعل «فى القرآن الكريم فى قوله ﴿أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾[٧]

وهو البعل الذى عبده اليهود ايام اليا النبى، وقتل النبى من كهنته عدداً كبيراً[٨] وماقالته دائرة المعارف هذه يحتاج الى مناقشة .. من

---

(٦) دائرة المعارف الاسلامية ٣٦/٧.
(٧) سورة الصافات ١٢٥.
(٨) دائرة البستانى.

ان كلمة بعل ليست علما على صنم بعينه ولكنها تأتى بمعنى رب وبمعنى معبود. كما تأتى بمعنى زوج، والزوج له القوامة كما هو معروف.

وقد قال الطبرى فى تفسيره – وهو شيخ المفسرين –: وللبعل فى كلام العرب أوجه، يقولون لرب الشيء هو بعله، يقال: هذا بعل هذه يعني ربها، ويقولون لزوج المرأة بعلها، ويقولون لما كان الغروس والزروع مستغنيا بماء السماء ولم يكن سقيا: هو بعل وهو (العزى).

ولذلك ينصرف معنى «بعلا» فى الآية (اتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين) إلى مطلق المعبود .... وكأن الياس قال لقومه: أتدعون معبودا مخلوقا ضعيفا، وتتركون الله الواحد الخالق القادر؟..

وهذا ما ذكره البخارى فى باب التفسير وما أشار به ابن حجر فى فتح البارى..

وعلى ذلك فكلمة بعل عربية فصيحة وليست من الكلمات الدخيلة على العرب[9].

رسالة إلياس:

أرسل الله إلياس إلى قومه من بنى إسرائيل، بعد أن استشرت فيهم عبادة الأصنام.

وقد كثر الأنبياء فى بنى إسرائيل كثرة فائقة حتى لقد كانوا يتعاصرون بالعشرات..

وقد كان مع موسى اخوه هارون وفتاه يوشع ومعه كالب بن يوقنا، ولكى يبقى أحدهم مميزا عن الآخرين.

وسبب هذه الكثرة الفساد الزائد عن الحد.. وعدم الانتهاء عن المنكر والتعالى بالباطل، والغرور بالأصل والنسب والتباهى بالمال والنشب..

---

(٩) دائرة المعارف الاسلامسة جـ ٧ صـ ٣٤٨.

ولم يكن الأنبياء والرسل يأتون بشريعة جديدة، بل يبعثون ليحييوا ما درس من الشريعة وما نسى الناس من تعاليم ..

بعد أن فتح يوشع بن نون الشام وبوأها بنى إسرائيل أقام سبطا من أسباطهم فى مدينة بعلبك وهم الذين ازداد ضلالهم واتخذوا الأصنام وجعلوا لها هياكل ومعابد، ويقال إنهم اختاروا صنما خاصا منها مصنوعا من ذهب، طوله عشرون ذراعا وله أربعة أوجه، وخصوه بالعبادة وقالوا: إن هذا هو المعبود ..

فجاء اليهم إلياس منذرا، ينذرهم من سخط الله وعقابه، ويذكرهم مصير من سبقهم من المشركين والمعاندين.

ولكنهم لم يؤمنوا به وكذبوه وآذوه .. فهرب منهم.

ويقول القصاص: انهم حاولوا ان يتبعوه ليتخلصوا منه .. فلما أجهده ذلك. دعا ربه أن يخلصه منهم. فقيل له: اخرج يوم كذا الى موضع كذا، فما استقبلك من شيء فاركبه ولا تهبه.

فخرج ومعه اليسع – وكان اليسع مؤمنا به، وقال بعضهم: انه كان ابن اخيه او ابن عمه[10] وقيل انه وجد فرسا من نار أو نور فامتطاه ..

فقال اليسع لإلياس: بم تأمرني؟

فقذف اليه بكسائه من الجو الأعلى فكان ذلك علامة على استخلافه على بني إسرائيل. وكان هذا آخر عهده به ..

قالوا: وقطع الله عن الياس لذة المطعم والمشرب، وكساه الريش وألبسه النور فصار مع الملائكة.

قال ابن قتيبة: قال الله لالياس: سلني أعطك فقال الياس: ترفعني اليك وتؤخر عنى مذاقة الموت. فرفعه الله اليه بعد أن كساه الريش وجعله أرضيا سماويا ملكيا يطير مع الملائكة –[11].

---

(١٠) تفسير القرطبي صـ ٥٥٥٩.

(١١) المعارف صـ ١٧.

وذكر بعض الرواة فى هذه القصة رواية أخرى .

قالوا : إن الياس مرض واحس الموت فبكى ، فاوحى اليه الله ما يبكيك ؟ حرصا على الدنيا أو جزعا من الموت أو خوفا من النار ؟ قال : لا . لاشيء من هذا وعزتك . إنما جزعي كيف يحمدك الحامدون بعدى ولا أحمدك ويذكرك الذاكرون ولا أذكرك ، ويصوم لك الصائمون ولا أصوم ، ويصلي لك المصلون ولا أصلى ؟ فقيل له : يا إلياس وعزتي لقد أخرتك الى وقت نهاية الذكر فى هذه الدنيا - يعنى يوم القيامة -(١٢) .

خبر لقائه بالنبى ﷺ

اما تأخير موته فذلك غير مستحيل والله يفعل بقدرته ما يشاء .

واما ماورد بخصوص لقائه بالنبي - ﷺ - فهو خبر لم توثقه الأخبار الصحيحة ..

وقد ذكره بعض الرواة عن طريق مكحول عن أنس قال :

غزونا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بفج الناقة عند الحِجْر ، اذا نحن بصوت يقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد المرحومة المغفور لها المتوب عليها المستجاب لها . فقال رسول الله - ﷺ - : ياأنس انظر ماهذا الصوت قال : فدخلت الجبل فاذا انا برجل ابيض اللحية والرأس عليه ثياب بيض طوله اكثر من ستمائة ذراع . فلما نظر إلىّ قال : انت رسول النبى؟ قلت : نعم - قال ارجع اليه فأقرئه مني السلام وقل له : هذا أخوك الياس يريد لقاءك .

فجاء النبى - ﷺ - وانا معه حتى اذا كنا قريبا منه تقدم النبى - ﷺ - وتأخرت فتحدثا طويلا ، فنزل عليهما شيء من السماء شبه المائدة فدعوانى فأكلت معهما . فاذا فيها كمأة ورمان وكرفس . فلما أكلت قمت فتنحيت ، وجاءت سحابة فاحتملته وانا انظر الى بياض ثيابه فيها وهى تهوى به .

---

(١٢) تفسير القرطبى صـ ٥٥٦٥ .

فقلت للنبى - ﷺ - بأبى أنت وأمى يا رسول الله هذا الطعام الذى أكلناه امن السماء نزل ؟ فقال النبى - ﷺ -: سألته فقال : يأتيني به جبريل كل أربعين يوما أكلة وفى كل حول شربة من ماء زمزم[١٣]

وقد ذكر الحاكم هذا الحديث في المستدرك وحسنه .. كما ذكره ابن عساكر فى تهذيبه .

ولكن البيهقى قال إن هذا الحديث ضعيف .

وهو مخالف لما فى الأحاديث الصحاح من ان طول آدم ستون ذراعا ولم يزل الخلق فى نقص بعد ذلك . الا اذا كان هناك تحريف فى النطق او الكتابة من الستين الى الستمائة التى وردت فى هذا الحديث .

قال الدميرى فى تعقيبه على هذا الحديث : قال شيخ الاسلام العلامة شمس الدين الذهبى رحمه الله فى الميزان : اما استحى الحاكم من الله تعالى فى تصحيح مثل هذا ؟

وقال في تلخيص المستدرك بعد قول الحكم : هذا صحيح . قلت : بل هو موضوع قبح الله من وضعه[١٤] .

وقد تعقب ابن كثير فى قصصه هذا الحديث بما يثبت ضعفه ووضعه[١٥] .

هل رأى أحد إلياس:

ذكر القرطبى فى تفسيره فى اول سورة غافر فيما يروى عن ثابت قال : كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة فدخلت حائطا اصلى فيه ركعتين فافتتحت «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . ذى الطول» فاذا رجل من خلفى على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية فقال لى : آذا قلت «غافر الذنب» فقل : ياغافر

---

(١٣) القرطبى صـ ٥٥٦٠ .
(١٤) حياة الحيوان جـ ١ ص ٤٦٦ .
(١٥) قصص الانبياء لابن كثير صـ ٤٦٧ .

الذنب اغفرلى ذنبى ، واذا قلت قابل التوب فقل : ياقابل التوب تقبل توبتي ، واذا قلت : شديد العقاب فقل : ياشديد العقاب لاتعاقبنى ، واذا قلت : ذى الطول فقل : ياذا الطول تطول عليَّ برحمتك .. فالتفت فاذا لا أحد وزاد ابن كثير قوله : وخرجت فسألت : أمر بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنيه؟ ، فقالوا : مامر بنا احد . فكانوا لا يرون إلا انه إلياس ..

مايروى حول التقاء الخضر والياس :

وعلى كل حال فان بقاء إلياس حتى يومنا هذا على قيد الحياة لم ترد بها أخبار تقطع بصحتها ، وان كانت غير مستحيلة بالنسبة لقدرة الله تعالى .. وقد أعطى الله كل نبى معجزة فقد تكون هذه معجزته .. وحياة عيسى عليه السلام يقول بها بعض من العلماء .

وهى من الأمور التى لايترتب على التصديق بها او عدم التصديق بها إيمان أو كفر .. ومثل ذلك مايقال حول التقاء الياس والخضر كل عام فى الموسم .

وقد روى ذلك القرطبى

قال : إن إلياس والخضر – عليهما السلام – يصومان شهر رمضان فى كل عام ببيت المقدس ويوافيان الموسم فى كل عام .

وذكر إبن أبى الدنيا : انهما يقولان عند افتراقهما عن الموسم :

ماشاء الله لايسوق الخير الا الله ، ماشاء الله ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله ، ما شاء الله ما شاء الله ما يكون من نعمة فمن الله ، ما شاء الله ما شاء الله توكلت على الله حسبنا الله ونعم الوكيل [16] . تلك هى أقوال بعض العلماء والرواة ... ونحن نرى أن القرآن انكريم قد حسم هذه القضية – بقوله تعالى ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾ .

---

(١٦) تفسير القرطبى سورة الكهف صـ ٤٠٨٢ وسورة الصافات صـ ٥٥٦٠ .

قصة الياس فى القرآن :

وردت قصة الياس فى القرآن فى قوله تعالى :

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

وهذه الآيات الكريمة تشير الى قصة الياس – عليه السلام – من أنه ارسله الله الى قومه الذين يعبدون الأصنام .. وكان لهم صنم أطلقوا عليه اسم (بعل) فتنوا به وعظموه وجعلوا له اربعمائة سادن ، واتخذوهم انبياء ، فكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظون هذه الضلالات ويعلمونها الناس ..[18] فلما أبلغهم الياس الرسالة كذبوه فأهلكهم الله ونجى إلياس – عليه السلام – وأثنى عليه ثناء مستطابا ..

فقد أبقى ذكره ، وسلم عليه ، ووصفه بالاحسان ، وجعله من عباده الصالحين .. وناهيك بذلك من جزاء حسن وثناء طيب ..

ولئن كان إلياس ليس حيا – كما تقول اكثر الروايات بذلك .. فيكفيه هذا الثناء الباقى ، وحسن الذكر كما يقول الحكماء حياة ثانية ابقى واخلد من الحياة المادية . فان الحياة المادية تتخللها الاسقام والعلل . اما هذه الحياة المعنوية فهى خالصة لاشية فيها تبعث على صاحبها تحيات مباركات وترفعه درجات عاليات ، وتضيف إلى أعماله الصالحة أعمالا اخرى صالحات ..

---

(١٧) سورة الصافات ١٢٣ : ١٣٢ .

(١٨) الكشاف جـ ٤ صـ ٦٠ .

روايات فى قصة إلياس :

رويت قصة الياس فى بعض الكتب المعنية بذلك متأثرة بما رواه أهل الكتاب ، ووصفوا صراعه مع ملك عصره أوصافا فيها صور من المبالغة ، حتى قالوا إن الله خوله رزق قومه وحياتهم فأمسك عنهم المطر حتى كادوا يهلكون من شدة العطش والجوع . فلم يجدوا ما يقوتهم او يسقيهم ، وقيض الله له هو غربانا تحمل له رزقه كل يوم فنجا مما هلك به قومه وحين ضجوا اليه مستصرخين أن يدعو لهم . عفا عنهم فامر ملك السحاب ان يرسل عليهم المطر .. ولكنهم كفروا بما جاء به مرة أخرى ، فيئس منهم ودعا عليهم ، وتركهم ومضى ..

وبعضهم يربط بين الياس ويونس ، ويقولون : إن الياس فر الى الجبل فرارا من بطش الملك «لاجب» الذى دعاه الياس الى الايمان فأبى .. ثم نزل من الجبل لاجئا الى بيت ام يونس . فآوته واكرمته ثم فارقها ، فلحقت به حين مرض ولدها يونس ومات ، وطلبت منه أن يدعو الله ليحييه ، فدعا فقام يونس حيا باذن الله ..

وقد وردت هذه القصص مفصلة فى كتب الثعلبي وابن اياس والطبرى .:

ولكن لاتؤيدها الأخبار الصحيحة الموثوق بها ..

ولذلك كان الاعتماد على الفطرة الصادقة فى فهم الآيات الكريمة الواردة فى قصة الياس أولى من التخبط فى أحداث الروايات المتضاربة فى هذا الشأن . والله أعلم .

اليسع

- إسمه ونسبه .
- قصته عند أهل الأخبار .
- لماذا لم تفصل قصته في القرآن .
- ترتيب الأنبياء .
- أين كان اليسع ومتى ؟

«٥»

اسمــه ونسبه :

اما اليسع .. فهو ابن أخطوب وورد اسمه في العهد القديم : اليشع بالشين .

وقد جاء ذكره في القرآن الكريم مرتين : الأولى في سورة الأنعام في آية «وتلك حجتنا»[1] . والثانية في سورة ص في قوله تعالى «وَاذكر إِسْمَاعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ ٱلْأَخْيَارِ»[2] .

قال ابن جرير : هو ابن أخطوب ابن العجوز .

وقد استخلفه الياس على بني اسرائيل ثم استنبيء .

أما اسمه فهو أعجمي ، ألحقت به « أل » وهي زائدة لازمة ولا ينافي أنه غير عربي أن «أل» تلزمه . فقد لزمت في بعض الأعلام الأعجمية مثل الاسكندر . ولحن من قال اسكندر .

وقيل بل هو اسم عربي منقول من يسع مضارع وسع - حكى ذلك جلال الدين السيوطي في كتاب الاتقان .

وفي القاموس : يسع كيضع اسم أعجمي أدخل عليه أل ، ولا تدخل على نظائرة كيزيد .

واحترس صاحب لسان العرب فقال في مادة وسع : اليسع اسم نبي ، هذا إذا كان عربيا .

وأضاف قول الجوهري : يسع اسم من أسماء العجم وقد أدخل عليه الألف واللام ، وهما لايدخلان على نظائره نحو يعمر ويزيد ويشكر الا في ضرورة الشعر[3] .

---

(١) الانعام ٨٦ .

(٢) ص ٤٨ .

(٣) لسان العرب جـ ٦ صـ ٤٨٣٦ .

وقرأ حمزة الكسائى : اللَّيْسَع – بوزن فيعل ..

قصته عند أهل الاخبار

ووردت قصة اليسع فى المصادر المختلفة على أنه كان ابنا وحيدا لامرأة فقيرة فى بنى اسرائيل توفى عنها زوجها ، ونزل عندها إلياس فآوته ، ولم يكن لديها إلا قليل من دقيق وزيت .. وبارك الله فى هذا القليل فلم ينفذ ببركة هذا النبى – وكانت أيام قحط اصاب بنى اسرائيل بسبب عنادهم لنبيهم إلياس .

وأصاب هذا الابن وهو اليسع مرض شديد أوشك أن يودى بحياته فدعا الياس ربه ان يشفيه ، فشفاه الله ..

ولزم اليسع إلياس ، وتولى زمام بنى اسرائيل بعده ..

ويطلق بعضهم على اليسع أنه ابن العجوز .. لأن أمه رزقت به وهى عجوز .. أو لأنها لم يكن لها سواه عائلا لها وقد طعنت فى السن ..

ولكن بعض الرواه يذكر أن المعروف بابن العجوز هو شمعون لااليسع .

وشمعون هذا هو الذى طلب منه قومه ان يبعث لهم ملكا يقاتلون تحت صفوفه[4] – وقد مضت قصة ذلك .

وذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه أن ابن العجوز هو حزقيل بن بوذى[5] –

وروى ابن كثير نقلا عن أبى القاسم بن عساكر أن اليسع هو من أسباط بنى إسرائيل وينتهى نسبة إلى بن يوسف بن يعقوب وهو ابن عم إلياس .. وكان مستخفيا فى جبل قاسيون من ملك بعلبك[6] .

---

(٤) بدائع الزهور صـ ١٣٤ .

(٥) قصص الانبياء لابن كثير صـ ٤٦٩ .

(٦) قصص ابن كثير صـ ٤٧٣ .

ويذكر العهد القديم قصة اليسع.. على ان اسمه هو اليشع بن شافاط..

وقد عهد الله الى الياس - وهو ايليا - أن يجعل اليسع نبيا خلفا عنه، ويأمره بقتال الكفرة الذين يعبدون «البعل».

فمضى إلياس يبحث عن اليسع فوجده فى حقل يحرث وأمامه البقر فألقى الياس رداءه عليه. فترك اليسع البقر وركض وراء الياس، وقال له اتركنى أقبل أبى وامى وأسير وراءك..

ومعنى هذا أن أباه كان على قيد الحياة، ولم يكن قد مات كما تقول الروايات الأخرى..

فأذن له إلياس، فمضى اليسع وودع أباه وأمه وعاد يتبع إلياس..[7].

وهذه الرواية سبقتها رواية أخرى تقول: «إن إيليا - وهو الياس - أوحى الله اليه أن يذهب الى امرأة عجوز تقيم فى «صيدون» ويقيم عندها وهى تعوله.. وهى التى بارك الله فى دقيقها وزيتها حتى كفاها ما عندها اياما كثيرة على الرغم من قلته.. وكان لايزيد على كف من دقيق وقليل من زيت فى كوز.. ثم مرض ابنها «اليشع» فتضرع إلياس إلى الله أن يرده إليها معافى فعوفى فآمنت به وصدقت..[8].

وقد يكون إلياس - على صحة هذه الرواية - قد ذهب ثم عاد بعد ذلك ليأخذ اليسع ويوصى اليه بالنبوة. ولكنا نلاحظ ان اليسع فى الرواية وحيد أمة العجوز، وفى الثانية له أبوان طلب من إلياس ان يودعهما قبل رحيله.

---

(٧) سفر الملوك الاول - الاصحاح ١٩ - العهد القديم.

(٨) المرجع السابق. الاصحاح ١٧.

والمهم أن اليسع أصبح وصي إلياس في حياته وخليفته بعد موته .

وكان في حوزة اليسع تابوت العهد الذى كان ينتقل من نبي الى آخر وهو الذى رده الله على طالوت وقال الله في حقه «ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة» .

وظل اليسع يدعو بني اسرائيل الى ماكان يدعوهم اليه الياس حتى يئس من قومه فدعا الله ان يقبضه ليكون في جوار إلياس .. واستجاب الله له فتوفاه وخلفه ذو الكفل -[9] . وقد مضت قصة ذى الكفل .

لماذا لم تفصَّلْ قصته في القرآن؟

إن القرآن الكريم في ذكره اليسع مرتين لم يشر إلا إلى أنه نبي من الانبياء المكرمين ولم يتحدث عن قصته مع قومه كما تحدث عن غيره من الأنبياء عليهم السلام . وكذلك فعل في قصة ذى الكفل .

ولا غضاضة في أنه لم يذكر قصتهما بالتفصيل لأن النبوة في بني اسرائيل كانت متكررة ، وكل نبي لايزيد في نبوته شيئا على ماكان في عهد سلفه .. إنهم بعثوا مذكرين فحسب ، اما الشريعة فكانت في التوراة والألواح التي جاء بها موسى .. ومن ثم فلا حاجة الى سرد ما تعرضت له حياتهم من أحداث ..

ولكنه حفظ لنا اسماءهم تخليدا لذكرهم ، وابقاء لأثرهم ، وتنبيها لخطرهم ، واعلاء لقدرهم ، وتوجيها لأنظار الناس الى موضع القدوة في حياتهم ..

---

(٩) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٤ صـ ٣٨٧ .

ترتيب الانبياء :

ويحسن بهذه المناسبة أن نشير الى ماذكره الله سبحانه وتعالى من سلسلة الأنبياء فى قوله تعالى :

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[10]

من أن الانبياء – عليهم السلام – درجات .. وان لكل منهم منزلة معينة وضعه الله فيها . وهو مايفهم من قوله تعالى «نرفع درجات من نشاء» ومن قوله تعالى : «تلك الرُسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُم مَّن كَلَّمَ الله وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وآتَيْنَا عِيسَى بنَ مَرْيَمَ ٱلبينات وأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلقُدُسِ»[11] .

وفى آيات «وتلك حجتنا ..» ذكر الله أربعة عشر نبيا منهم ابراهيم وإسحاق ويعقوب ، ولم يرتبهم القرآن على حسب التاريخ والزمن ، لأن الكتاب الحكيم ليس كتاب مناقب ومدائح بل هو للموعظة والحكمة . وانما ذكرهم على حسب معنى جامع لكل طائفة منهم .. ونذكر ما قاله صاحب تفسير المنار فى ذلك لما فيه من فائدة .. قال :

ففى القسم الاول ذكر : داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون . والمعنى الجامع بين هؤلاء ان الله تعالى أتاهم الملك والإمارة والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة ، وقد قدم ذكر داود وسليمان وكانا ملكين غنيين منعمين ، وذكر بعدهما أيوب ويوسف وكان الأول أميرا غنيا

---

(١٠) الانعام ٨٣ : ٨٧ .

(١١) البقرة ٢٥٣

عظيما محسنا والثاني وزيرا عظيما وحاكما متصرفا ، ولكن كلا منهما قد ابتلي بالضراء فصبر كما ابتلي بالسراء فشكر . وأما موسى وهارون فكانا حاكمين ولكنهما لم يكونا ملكين ، فكل نبيين من هؤلاء الانبياء يمتازان بميزة ، والترتيب بين الأزواج على طريق القلة والكثرة في نعم الدنيا ، وقد يكون على طريق الترقي في الدين .

فداود وسليمان كانا اكثر تمتعا بنعم الدنيا . ودونهما أيوب ويوسف ودونهما موسى وهارون . والظاهر أن موسى وهارون افضل في هداية الدين وأعباء النبوة من أيوب ويوسف .

وأن هذين أفضل من دواد وسليمان بجمعهما بين الشكر في السراء والصبر في الضراء والله أعلم .

وقد قال تعالى بعد ذكر هؤلاء (وكذلك نجزي المحسنين) أي بالجمع بين نعم الدنيا ورياستها بالحق وهداية الدين وإرشاد الخلق .

القسم الثاني : زكريا ويحيى وعيسى وإلياس .

وهؤلاء قد امتازوا في الأنبياء عليهم السلام بشدة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذاتها والرغبة عن زينتها وجاهها وسلطانها . ولذلك خصهم هنا بوصف الصالحين وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم ، وإن كان كل نبي صالحا ومحسنا على الإطلاق .

القسم الثالث : إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً .

وأخر ذكرهم لعدم الخصوصية . إذ لم يكن لهم من ملك الدنيا أو سلطانها ماكان للقسم الأول ولا من المبالغة في الاعراض عن الدنيا ماكان للقسم الثاني .

ولقد قفّى على ذكرهم بالتفضيل على العالمين الذي جعله الله تعالى لكل نبي على عالم زمانه فمن كان من النبيين منهم منفردا في عالم أو قوم كان أفضلهم على الاطلاق .

وما وجد من نبيين أو أكثر فى عالم أو قوم فقد يكونون مع تفضيلهم على غيرهم، متفاضلين فى أنفسهم فلا شك أن إبراهيم أفضل من لوط المعاصر له، وان موسى أفضل من أخيه هارون الذى كان وزيره، وأن عيسى أفضل من ابن خالته يحيى. صلوات الله عليهم أجمعين (١٢).

اين كان اليسع؟ ومتى؟

وليس هناك تحديد دقيق لأزمنة هؤلاء الأنبياء، ولكنا نستشهد بعبارة ذكرها ابن إياس لعلها تنير الطريق إلى ذلك. قال:

قال الواقدى: إن فى أيام اليسع بنيت مدينة «طرسوس وملطية»، واستمر اليسع يقضي بين الناس بالحق حتي توفي ودفن بفسلطين. فلما مات اليسع استمر بنو إسرائيل عشر سنين بغير نبي.

فعند ذلك قام فيهم كاهن يقال له عالى بن أسباط بن هارون وكان رجلا صالحا يدير أمور بني إسرائيل بأحسن ما يكون واستمر على ذلك نحو أربعين سنة وفي أيامه ولد شمعون من أنبياء بنى إسرائيل وولد أيضا داود أبو سليمان عليهما السلام - وكان بين وفاة «عالى» الكاهن ووفاة موسى أربعمائة وثمانون سنة».

وعلى ذلك فان نبوة اليسع كانت بعد وفاة موسى بأربعة قرون تقريبا أو تزيد (١٣).

وذكرت دائرة المعارف رأى من يقول إن اليسع كان موجودا قبل الملك شاول ومعنى ذلك أنه كان قبل داود وهو يؤكد الكلام السابق.

وذكر ابن كثير فى قصصه نقلا عن ابن اسحاق أن طالوت حين اختلف مع داود ذهب إلى القبور وظل يبكى، وقيض الله له امرأة صالحة ظلت تدعو حتى أحيا الله له «اليسع» فسأله عن هل من توبة بعد

---

(١٢) انظر تفسير المنار جـ ٧ ص ٤٨٩.

(١٣) دائع الزهور صـ ١٣٤.

مافعله فى بنى اسرائيل ؟ فأجابه بأن توبته في جهاده فى سبيل الله هو وأولاده حتى يقتلوا .. ففعل طالوت ذلك ..

وهذا الخبر - ان صح - يشير إلى أسبقية اليسع على زمان داود - عليه السلام -

وقد ذكر العهد القديم أن الذى قام من قبره هو صمويل ، هو (شمويل) النبى الذى فزع إليه بنو إسرائيل وطلبوا منه أن يختار لهم ملكا يقاتلون تحت رايته فاختار لهم طالوت ..

وهذا أنسب لسياق القصة .





داود عليه السلام

- نسبه.
- داود في القرآن الكريم
- بنو إسرائيل في مواجهة جالوت.
- داود في لقاء جالوت.
- داود يرث الملك والنبوة.
- ولقد آتينا داود منا فضلاً.
- ماذا يقصد بالفضل الذي
- آتاه الله داود ؟
- تسبيح داود.
- يا داود إنا جعلناك خليفة.
- شروط الخلافة.
- العدل أساس الملك.
- فطنة داود في قضائه.
- من قضاء داود.
- بناء بيت المقدس.
- فتنة داود.
- التوبة على داود.
- ثناء الله على داود.
- عظات وعبر.
- وفاة داود.

نسبه :

هو داود بن إيشا – بكسر الهمزة – ويقال : داود بن زكريا بشوى ، وقيل : هو داود بن يسى بن عوبيد وكان من سبط يهوذا بن يعقوب . وكان من أهل بيت المقدس .

جمع له بين النبوة والملك – بعد أن كان راعيا وكان أصغر إخوته[1] .

وذكر الشيخ عبد الوهاب النجار : أنه داود بنى يسى إستنادا إلى ما جاء في العهد القديم[2] ووصف داود بأنه أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر . وكان يحسن الضرب على العود ، وإذا ضرب يستريح طالوت ويتبدد ما عنده من غم .

وكان داود أحد أبناء ثمانية لأبيهم – يسى – وقيل كان أحد ثلاث عشرة أخا وهو من بيت لحم وكان أصغرهم ويرعى غنمهم .

وذكر ابن كثير فى قصصه أنه داود بن ايشا بن عويد بن جابر بن سلمون ينتهى نسبه إلى يهوذا بن يعقوب[3] .

داود فى القرآن الكريم :

وقد ذكر داود فى القرآن الكريم فى ستة عشر موضعا في تسع سور[4] وقد تضمنت بعض الآيات إشارة إلى أحداث جرت نحاول بتوفيق الله توضيحها والحديث عنها :

---

(١) القرطبى جـ٣ ص ٢٥٧.

(٢) سفر صموئيل الأول – الاصحاح السادس عشر .

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٨٠ .

(٤) البقرة ٢٥٠ النساء ١٩٣ ، المائدة ٧٨ ، الانعام ٨٤ ، الاسراء ٥٥ ، الأنبياء ٧٨ ، ٧٩ ، النمل ١٥ ، ١٦ ، سبأ ١٠ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٠ .

داود وحرب جالوت :

أشرنا فى الأعداد الماضية إلى قصة الملأ من بنى إسرائيل الذين قالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ..

وكان هؤلاء القوم بعد موت يوشع بن نون واستيلاء البابليين على ملك بنى إسرائيل .

وأخذهم التابوت الذى به السكينة وبقية آل موسى وهارون ..

وكان ذلك بعد أن خرج موسى ببنى إسرائيل من مصر بما يقرب من ستة قرون ..

وقد حدد المسعودى المدة بخمسمائة واثنتين وسبعين سنة وثلاثة أشهر(٥) .

وكان مما سبق أن أشرنا اليه .

أن بنى إسرائيل فزعوا إلى نبيهم شمويل بن بروجان بن ناحورا ..

وقد أقام فيهم نبيا عشرين سنة .. وهذا النبى يسمى فى العهد القديم : صمويل وقالوا له : اختر لنا ملكا نقاتل عدونا تحت لوائه.

فأوحى الله اليه أن يختار لهم طالوت ملكا .. ووضع له علامات تبينها شمويل فيه ..

وحين أخبرهم بذلك طعنوا فيه بأنه فقير .. ذلك أن مقياسهم الذى يقيسون به الرجال هو الغنى والثروة .

ولكن نبيهم أخبرهم بأن الله زاده بسطة فى العلم والجسم . وأن الله جعل آيته أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم .

وكانوا يحملون التابوت فى مقدمة مسيرهم لعدوهم فيغنمون .

---

(٥) مروج الذهب جـ١ ص ٢٩ .

وتجهز طالوت لعدوه .. وخرج جالوت للقائه فى جيش كثيف وقد نظر إلى جنود طالوت بازدراء.. وندب طالوت من جنوده من يخرج للقاء هذا الطاغية ، فكلهم أحجموا عن لقائه خوفا ورعبا ..

وحاول طالوت أن يستثير همم جنوده فقال لهم: من يبرز اليه ليقتله فأنا أزوجه أبنتى وأشركه فى ملكى وأحكمه فى مالى ..

ولكن من يجيب ؟ ومن يسمع ؟

إن كلام طالوت أوهام وآمال ، أما منظر جالوت في سلاحه وسيفه في يده يهزه أمامهم... فهو حقيقة ماثلة ... وكيف يثبت الوهم أمام الحقيقة ؟؟

ولكن داود لبى دعوة الملك وقال : أنا أخرج للقائه .

داود فى لقاء جالوت :

وأخذ جالوت يستعرض قوته أمام انظار بنى إسرائيل – كان طوله ستة أذرع ، وعلى رأسه خوذة من نحاس وكان لابسا درعا حرشفيا .. أى محبوكا وجرموقا من نحاس على رجليه ومزراق نحاس بين كتفيه ، وقناة رمحه كنول النساجين ، وحامل الترس كان يمشى قدامه[٦] .

فأى قوة تلك التى يدل بها ؟ وأى استعداد قد أعده لمن يبارزه ؟
لقد كان منظره يثير الرعب ، وصوته يَصُبُّ الفزع فى أسماع من يرونه ويسمعونه .

وتوارى الاسرائيليون خوفا ورعبا. وما زال جالوت ينادى فيهم : هل من مبارز؟ هل من مقاتل ؟ وأحس منهم الضعف .

فقال لهم : لماذا تخرجون إذن لمحاربتى ما دمتم تحجمون عن لقائى ؟

---

(٦) العهد القديم – صموئيل الأول – الاصحاح ١٧.، الجرمون – الخف .

ولما سمع شاول – وهو طالوت – وسمع بنو إسرائيل كلام جالوت ارتاعوا وخافوا جدا ...[٧].

ولم يطق داود هذا التحدى الصارخ .. وغاظه أن يعيرهم هذا الفلسطينى بالجبن .. فقال : أنا أخرج للقائه ...

نظر اليه طالوت نظرة استخفاف أيضا ..

إنه قصير القامة .. راعي غنم ، ليس في يده سلاح يقاتل به . ولا على جسده درع يقيه السهام . ليس معه الا مقلاع به أحجار .

يحكى أن هذه الأحجار نادته وهو فى طريقه إلى الحرب أن يأخذها لتكون عدته في قتال عدوه .. كانت ثلاثة أحجار فأخذها ووضعها فى مقلاعه ..

قال له طالوت : هل يقاتل الجنود بهذه الصورة ؟ أين السيف والرمح ! وأين الدرع والترس ؟ وأين الخوذة والسهام ؟ وأين الفرس ؟ أين كل ذلك من أدوات القتال التى يستعد بها الرجال فى ساحة الحرب والنضال ؟

وحاول أن يرده .. ولكن داود أصر على موقفه ، وقال : لا بد لى من لقاء هذا المفتون بنفسه المدل بقوته .. لن يقتل الا بيدى .

فقال له طالوت : هل جربت نفسك فى قتال قبل ذلك ؟

قال داود : أجل .

قال له طالوت : كيف ؟

قال داود : لقد وقع ذئب في غنمي فقتلته وفصلت رأسه عن جسده .

قال له طالوت : ليست هذه علامة قوة ... وأين يقع الذئب الضعيف من ذلك الذى تراه أمامك وقد أطل الشرر من عينيه وظهر الشر فى يديه ؟

قال داود : لقد دخل الأسد فى غنمى فأخذت بلحييه – جانبى فمه – فشققتهما ، فهل ترى هذا الرجل أشد من الأسد؟

---

(٧) المرجع السابق .

فقال طالوت : لا ، وظهر الاطمئنان على وجهه .. وقال لداود : ما دمت مصرا على موقفك فألبس درعى واحمل سيفى واركب فرسى وخذ سلاحى ..

فأبى داود وقال : لن أقتله إلا بطريقتى التى لا تليق إلا بمثله .

وانطلق داود فى طريقه إلى جالوت لا يلوى على شىء .. وخاطبه قائلا :

أيها المدل بنفسه المعجب بقوته ، الذى لا يعرف قدره ، ولا يدرك أن هناك إلها قوته فوق قوة البشر ، وسلطانه نافذ وقضاؤه عاجل .. إلىّ إلىّ فأنا قرن لك وَمنازِل إياك ، وستعلم أن فى بنى إسرائيل ليوثَ غاب وأسْد عرين ..

فألقى جالوت عليه نظرة اعتورته من مفرقه إلى أخمص قدميه .. وقال : أهذا الراعى الجلف الذى لا خبرة له بالحرب ولا معرفة له بالقتال يبارزنى أنا أنا الذى أصرع بيمينى الأبطال واجندل الفرسان وأقهر العتاة وأفرق الصفوف .

انصرف أيها الفتى لحالك ، فأنا فى حاجة إلى من يماثلنى فى الشجاعة ويكافؤنى فى اللقاء .

فقال داوُد : لا تحاول أيها المستهتر الهرب من لقائى ، فقد أعددت نفسى اليوم لقتلك ولا بد من ذلك .

قال جالوت : وكيف تقتلنى ، ولا سلاح معك ؟، أين سيفك ورمحك ؟ وأين درعك وترسك ؟

فقال داود ، وقد أظهر قذافته – مقلاعه – فى يده : معى سلاحى الذى لا يقهر ..

فقال جالوت : أهكذا تخرج إلىّ كما تخرج إلى الكلب .

فقال له داود : ذلك لأنك مثله وأهون ..

فثار الغضب فى نفس جالوت، وغلى الدم فى عروقه، وقال له: لأطعمن لحمك اليوم للطير والسباع..

وانطلق جالوت إلى داود كما ينطلق الوحش الكاسر، محاولا أن يقبض عليه بيده.. ولكن داود كان أخف وأسرع فراغ من طريقه..

ثم أخذ مقلاعه ووضع فيه الأحجار الثلاثة التى التأمت بقدرة الله تعالى وصارت حجرا واحدا..

وسمى الله وطوح بالمقلاع صوب جالوت، فانطلقت الحجارة منه كالسهم إلى رأسه فقتلته..

وخر جالوت على الأرض صريعا.. لم تغنه دروعه وتروسه، ولم تنفعه سيوفه ورماحه، ولم تنجده فرسانه وأعوانه.. وأقبل داود فى ثبات وقوة.. وأخذ سيف جالوت وحزّ به رأسه واحتمله فى مخلاته ومضى.

وحين رأى أصحاب جالوت ما حدث لقائدهم ولّوا الأدبار، وركب جنود طالوت أكتافهم، وهزموهم شر هزيمة..

وذكر ابن عساكر أن داود قتل جالوت عد قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر(٨).

لقد كان حجر داود قوة من عند الله... إنه معجزة له. وللانبياء معجزات لا تحيط بها العقول.. إنها رمية بيد داود فى ظاهر الأمر، ولكنها فى حقيقته رمية بيد الله الذى قال فى حق رمية النبى - ﷺ - يوم بدر حين أخذ بكفه الشريفة حفنة من الحصا ورمى بها فى وجه قريش... ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(٩).

وهكذا يكون تسديد الله لأحبائه وأنبيائه.. وهو القائل - جل فى علاه - ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾(١٠).

---

(٨) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٩٠.

(٩) الأنفال ١٧

(١٠) المجادلة ٢١

وآتاه الله الملك والحكمة :

استراح بنو إسرائيل من عدوهم ، واستقروا في بيت المقدس الذى كان البابليون قد أجلوهم عنه .. ولكن مرحلة جديدة من الصراع بدأت بين داود وطالوت ..

فقد أحب الاسرائيليون داود وأقبلوا عليه .. ذلك أنه كانت لديه ميزات خصه الله بها .. ومن بينها ظفره بجالوت وانتصاره عليه .. ومنها حسن قراءته للتوراة وترنمه بها حتى إن الطيور لتخشع لصوته ، والمياه تقف عند تلاوته، والريح تسكن لقراءته ..

لقد اختاره الله نبيا وعلمه الحكمة وأورثه الكتاب .. فأحبه الاسرائيليون ... فغاظ ذلك طالوت وحسده وخشى على ملكه منه ..

ولكن لم يجد بدا من أن يفى بوعده له فيزوجه ابنته .. وعلى الرغم من ذلك فقد كان يحصى عليه سكناته ويتحين الفرص للتخلص منه ..

وقد حاول عدة مرات اغتياله ولكنه لم يستطع .. كان فى كل مرة يظن فيها أنه أوشك أن يقضى على داود يجد أن الله قد نجى داود من مكيدته ..

وظل الصراع قائما بين داود وطالوت فترة طويلة .. وكان « يوناثان » ابن طالوت فى صف داود يدافع عنه ضد اتهامات أبيه الظالمة، ولكن طالوت مضى فى عناده .

وكان داود شريفا فى خصومته لطالوت ، فكم مرة ظفر فيها بطالوت وكان فى إمكانه يقتله جزاء ما اقترفت يداه فى حقه ، ولكنه كان يعرض عن ذلك ، ويضع علامة أمام طالوت يفهم منها أن داود تمكن منه وعفا عنه .

وكان طالوت يعترف بأن داود أعف منه وأشرف ، ولكنه فى قرارة نفسه لا يستطيع أن ينسى تخوفه على ملكه أن يضيع ويرثه داود ...

وكان طالوت يغضب على ولده «يوناثان» إلى درجة محاولته قتله لأنه يدافع عن داود ..

وتحولت حياة طالوت إلي جحيم لا يطاق .. حتى تمنى الموت ، وحتى هام على وجهه فى المقابر يطلب الراحة مما هو فيه .. وقيض الله له امرأة صالحة دعت له فأحيا الله له شمويل النبي من قبره ، وخاطبه قائلا : إنه لا توبة لك بعد الذى فعلته فى بنى إسرائيل ، وترصدك لداود الا بالجهاد فى سبيل الله أنت وأولادك .. حتى تموتوا شهداء ..

داود يرث الملك :

وقدم طالوت أولاده للجهاد وهو معهم حتى قتلوا .. ولم يبق منهم سوى واحد فقط ورث الملك عن أبيه هو «ايشوبشت بن شاول» وأقيم ملكا على بنى إسرائيل عامين . ثم مات وخلص الأمر عند ذلك لداود .. وجمع بين الملك والنبوة ...

لقد ورث الملك عن طالوت – وهو شاول – كما ورد اسمه فى العهد القديم – وورث النبوة عن شمويل الذى هو صمويل كما ورد اسمه فى العهد القديم – أو بعد «جاد» الذى ورث بعد صمويل ثم مات ايضا . لقد أورد العهد القديم قصة الصراع بين داود وطالوت مطولة وسرد تفاصيلها كما أورد قصة الصراع بين طالوت والبابليين الذين جددوا القتال له بعد جالوت محاولين السيطرة على بلادهم ..

ولم يستقم أمر بنى اسرائيل الا على يد داود . الذى آتاه الله الملك والنبوة فساسهم بالعدل وقادهم على الطريق الحق ، وجاهد بهم أعداءهم فنصره الله . وإن كان بعضهم جريا على طبيعتهم قد حاد عن الطريق فلعنهم داود . واتسعت دولة بنى إسرائيل فى عهد داود – عليه السلام – حتى شملت مناطق كثيرة .

ولقد آتينا داود منا فضلا :

كانت النبوة فى بنى إسرائيل فى سبط والملك فى سبط آخر ..

فجمع الله لداود النبوة والملك .. وهذه ميزة لم تتوفر لغيره ممن سبقه من أنبياء بنى إسرائيل . كان الملك منهم يعينه الله بنبى يرشده ويسدده .. فمنهم من كان يسير على هداه ومنهم من يتخطاه ..

واستقام بنو إسرائيل لداود – عليه السلام – إلا من شذ منهم فلعنوا كما ذكر القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[11].

وأيد الله داود بما ذكره في كتابه العزيز ﴿ولقدْ آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير﴾[12].

وبما قاله تعالى: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوسٍ لكم لتحصنكم من بأسِكم فهل أنتم شاكرون﴾[13].

وبما قاله تعالى : ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾[14].

ماذا يقصد بالفضل الذى آتاه الله داود؟

لقد أشارت الآيات الكريمة إلى أن الله أعطى داود فضلا .

والمتبادر الى الذهن أن الفضل هو النبوة .. ولكنها قدر مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء – عليهم السلام – ..

ولذلك تحدث العلماء فى بيان ذلك الفضل واختلفوا فيه ..

فقالوا : إنه الزبور .. وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله ﴿وآتينا داود زبورا﴾[15]. والزبور هو الصحف المنزلة على داود .

---

(١١) المائدة ٧٨ ، ٧٩

(١٢) سبأ ١٠ ، ١١

(١٣) الأنبياء ٧٩ ، ٨٠

(١٤) ص ١٧ : ٢٠

(١٥) الاسراء ٥٥ .

وقالوا : إنه العلم .. وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله : ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾[١٦] .

وقالوا : إنه تسخير الجبال والطير معه تسبح بتسبيحه وتحمد بتحميده وتكبر بتكبيره .

أما تسبيح الجبال والطير، فما من شيء إلا ويسبح بحمد الله ، ولكنا نغفل عن هذا التسبيح ولا ننتبه له . والذى يفطن لذلك هو من آتاه الله العلم والحكمة .

وقد أدرك كثير من العلماء الملهمين ان كل شيء فى الوجود حى يدرك حتى الجمادات ، وقالوا إنها تعرف ربها كسائر الحيوانات ، وأنها خاشعة وهذه وجهتها إلى ربها . أما وجهتها الينا فهى أنها لا تعلم ولا تعقل . والدليل على معرفتها وتوجهها إلى الله قوله تعالى : ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[١٧] .

فالعوالم كلها متحركة دائمة لا سكون لها .. وإذا كانت متحركة فهى أيضا مسبحة .. ومشاركة لداود النبى – عليه السلام – فى تسبيحه[١٨] .

وأورد بعض العلماء ألوانا من تسبيح الطيور والحيوانات ، فقالوا :

مر سليمان – عليه السلام – على طيور فقال لأصحابه : أما تدرون ما يقول هذا الهدهد ؟ قالوا : لا. قال : يقول : من لا يرحم لا يرحم .

والفاختة تقول : يا ليت هذا الخلق ما خلقوا ، وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا وليتهم إذا علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا ..

والصرد يقول : سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه .

والسرطان يقول : استغفروا الله يا مذنبين .

---

(١٦) النمل ١٥

(١٧) الإسراء ٤٤ .

(١٨) التصوف والحياة العصرية لعبد الحفيظ فرغلى ص ١٢٩

وصاحت – طيطوى – عنده فأخبر أنها تقول : كل حى ميت وكل جديد بال .

والخطاف يقول : قدموا خيرا تجدوه عند الله

والورشان تقول : أعدوا للموت وابنوا للخراب .

والطاووس يقول : كما تدين تدان .

والحمامة تقول : سبحان ربىَ المذكور بكل لسان .

والدراج يقول : الرحمن على العرش استوى .

والبازى يقول : سبحان ربى العظيم وبحمده .

والفرس يقول : سبحان ربى الأعلى .

والحدأة تقول : كل شيء هالك إلا الله .

والببغاء تقول : ويل لمن كانت الدنيا أكبر همه .

والديك يقول : اذكروا الله يا غافلين .

والقبرة تقول : اللهم العن مبغضى محمد وآل محمد .

والفرس يقول إذا التقى الجمعان : سبوح قدوس رب الملائكة والروح[١٩] .

وليس ذلك عجيبا بعد أن علَّم الله سليمان منطق الطير ..

تسبيح الجمادات للنبي – ﷺ –:

ولا يستغرب أحد ذلك فقد سبح الحصى فى كف النبى – ﷺ –

روى علقمة عن ابن مسعود قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وفى هذه الرواية كنا نأكل مع رسول الله – ﷺ – الطعام ونحن نسمع تسبيحه، وقال أنس أخذ النبى – ﷺ – كفا من حصى فسبحن فى يده

---

(١٩) حياة الحيوان للدميرى جـ٢ ص ١٧٩ .

حتى سمعنا التسبيح. ثم صبهنَّ في يد أبي بكر رضى الله عنه فسبحن، ثم في أيدينا فما سبحن .

وروى مثله أبو ذر وذكر أنهن سبحن في كف عمر وعثمان رضى الله عنهما[٢٠] .

من معاني الفضل :

وقيل : إن ذلك الفضل الذى آتاه الله داود هو التوبة التى تابها الله على داود بعد ذلك . وسيأتى بيانها .

وقالوا : إن ذلك الفضل هو الحكم بالعدل .. وهذه منحة الهية تذكر له بكل فخر ، فلا يصبر على الحكم بالعدل إلا أهل الفضل من الناس .

وقالوا : إن الفضل الذى أعطاه الله اياه هو المعجزات المادية من إلانة الحديد الذى صار في يده كالعجين يصنع منه ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ..

وفضل ذلك أن الله أتاح له العمل الذى يقتات منه فلا يكون كَلاًّ على أحد ... وقد روى الرواة عن النبى – ﷺ – فى ذلك : ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده ..

وقالوا : إن الفضل الذى وهبه داود هو حسن صوته وجمال صورته .

وحسن الصوت هبة الهية لا يمنحها الا قلة محدودة .

هذا وجمال الصوت يعتبر منحة حقا إذا استعمل فى تسبيح الله وتمجيده، وذكره، والدعوة اليه ، وجذب انتباه السامعين بما يلقى من أناشيد تقدس الله وتوحده ..

أما إذا استعمل فى الصد عن ذكر الله ، وإذاعة أحاديث الهوى ولواعج الغرام ووصف المحاسن والمفاتن التى تضل الناس وتثير فيهم الشهوات فهو إذن محنة على صاحبه ونقمة عليه ..

إن جمال الصوت نعمة شأنها شأن سائر النعم، التى إذا أحْسِن استعمالُها وشكِرَ اللهُ عليها رفعت صاحبها إلى أعلى منزلة، وتضاعفت له ثمارها، أما إذا عصى الله بها ولم يُقَدَّم له الشكر عليها كانت وزرا على صاحبها.

تسبيح داود :

كان داود – عليه السلام – لا ينقطع عن التسبيح بحمد الله.. شكرا له على ما أنعم عليه..

وذكر العلماء أنَّ من حرصه على استدامة التسبيح أنه قال : لأُسبحن الله الليلة تسبيحا ما سبحه به أحد من خلقه. فنادته ضفدعة من ساقية فى داره : يا داود تفتخر على الله بتسبيحك وإن لى لسبعين سنة ما جف لسانى من ذكر الله تعالى، وإن لى لعشر ليال ما طعمت خضِراً ولا شربت ماء اشتغالا بكلمتين. فقال : ما هما ؟ قالت يا مُسبَّحا بكل لسان ومذكورا بكل مكان.

فقال داود فى نفسه : وما عسى أن أقول أبلغ من هذا ؟[٢١].

وروى البيهقى فى شعبه عن أنس بن مالك أنه قال : إن نبى الله داود ظن فى نفسه أن أحدا لم يمدح خالقه بأفضل مما مدحه به فأنزل الله عليه ملكا وهو قاعد فى محرابه، والبركة الى جنبه، فقال : يا داود افهم ما تصوت به هذه الضفدعة، فأنصت اليها فإذا هى تقول : سبحانك الله وبحمده منتهى علمك. فقال له الملك : كيف ترى ؟ فقال : والذى جعلنى نبيا إنى لم أمدحه بهذا – يقصد بأبلغ من هذا.

ومن ذلك ندرك أن الحمد والشكر ليس بكثرة الكلام، وإنما بعمق معانيه واخلاص النية فيه..

وذكر الدميرى قال : روى البيهقى فى الشعب عن ابن يسار أنه قال:

---

(٢١) حياة الحيوان جـ٢ ص ١٥٠ نقلا عن كتاب الزهد لأبى عبد الله القرطبى.

دخل داود – عليه السلام – فى محرابه فأبصر دودة صغيرة فى خلقها وقال ما يعبأ الله بخلق هذه الدودة ؟، فأنطقها الله فقالت : يا داود أتعجبك نفسك ؟ لأنا على قدر ما آتانى الله أذكر الله وأشكر له أكثر منك على ما آتاك الله .

قال الله تعالى ﴿وان من شىء الا يسبح بحمده﴾[٢٢] .

وقد وردت أخبار متعددة فى أدعية داود ومناجاته وتسبيحاته ففى المجالسة للدينورى فى أول الجزء العاشر عن الأحوص بن حكيم قال : كان دعاء داود – عليه السلام – : يا رازق النعَّاب فى عشه[٢٣] قال : والسر فى ذلك أن الغراب إذا فقس عن فراخه خرجت بيضا فإذا رآها كذلك نفر عنها فتفتح أفواهها فيرسل الله تبارك وتعالى لها ذبابا يدخل فى أجوافها فيكون ذلك غذاء لها حتى تسود ، فإذا اسودت عاد الغراب فغذاها ، ويرفع الله الذباب عنها[٢٤] فسبحان الرزاق العليم .

وللطافة هذا الدعاء نظمه الحريرى شعرا وزاد عليه فقال :

يا رازق النعاب فى عشه ... وجابر العظم الكسير المهيض
أتح لنا اللهم مَنْ عِرضه ... من دنس اللوم نقىٌّ رحيض

وروى أبو الدرداء : كان من دعاء داود عليه السلام اللهم أنى أسألك حبك وحب من يحبك والعمل الذى يبلغنى حبك ، اللهم اجعل حبك احب إلىَّ من نفسى ومن أهلى ومن الماء البارد ..

قال : وكان رسول الله – ﷺ – إذا ذكر داود – عليه السلام – يقول : كان أعبد البشر[٢٥] .

---

(٢٢) حياة الحيوان جـ١ ص ٦٠١ .
(٢٣) النعاب طائر يطلق عليه اللقلق ، وقد يطلق على الغراب لأنه ينعب .
(٢٤) حياة الحيوان جـ٢ ص ٦٢٢ .
(٢٥) الترمذى – وقال هذا حديث حسن غريب أبواب الدعوات وفى تحفة الأحوذى ٤٦٢/٩ ، وفى جمع الجوامع ٤٣/٣ .

يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض

وهبَ الله داود – عليه السلام – الملك ، واستحق لما وهبه الله من علم وحكمة خلافة الله فى الأرض وكما ورد فى حق آدم عليه السلام أن الله جعله خليفة وأخبر الملائكة بذلك فى قوله تعالى .. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ كذلك نادى الله داود بذلك مباشرة فقال له : ﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾.

شرائط الخلافة

وقد وضع العلماء شروطا فيمن يستحق هذه الخلافة ، وملخصها :

– ان يكون ممن يصلح أن يكون قاضيا من قضاة المسلمين مجتهدا ، لا يحتاج إلى غيره فى الاستفتاء فى الحوادث والمسائل .

– أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسد الثغور وحماية جماعة المسلمين وردع المذنبين والانتقام من الظالم والأخذ للمظلوم .

– ان يكون ممن لا تلحقه رقة فى إقامة الحدود ، ولا فزع من ضرب الرقاب .

– أن يكون حرا مسلما ذكرا سليم الاعضاء بالغا عاقلا عدلا .

– أن يكون من أفضل الناس علما وخلقا . لقوله – ﷺ – :

« أئمتكم شفعاؤكم فانظروا بمن تستشفعون ».

وليس من شروط الخلافة أن يكون معصوما من الزلل والخطأ ولا من أفرس الأمة ولا من أشجعهم ، لأنه يجوز خلافة المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وعدم استقامة الأمة .

ذلك لأن الامام إنما نصب لدفع العدو ، وحماية الحوزة وسد الخلل ، واستخراج الحقوق واقامة الحدود ، وجباية الأموال التى فرضها الله لبيت المال ، وقسمتها على أهلها المحتاجين اليها بالعدل ، فإذا تم ذلك

من خليفة فقد تم الأمر ، وإذا خيف من إقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذرا ظاهرا فى العدول عن الفاضل الى المفضول(٢٦) .

وقد اجتمعت هذه الشروط جميعها فى داود – عليه السلام – :

فاستحق بذلك خلافة الله فى الأرض ..

ولكن والحق يقال إن الخلافة لم تأت لداود من خلال طريق مفروش بالورود ، ولكنها جاءته بعد خطوب دامية ، وأهوال قاسية ، خاضها بجسارة واقتحمها بنجاح ..

وذلك أنه بعد أن انتصر علي جالوت وخلص بني إسرائيل من شره ، كان لزاما على الملك طالوت أن يكافئه علي ذلك ، ولكنه بدلا من أن يقربه أبعده ، وقلب له ظهر المجن ، وبيت له الشر حتي اضطر داود إلى تركه واللحوق بالجبال ينتقل بينها من شاهق إلى شاهق ، ومن كهف إلى كهف ، وهو فى خلال ذلك يشغل نفسه بقتال أعداء الله ويظفر بهم ، ثم يعود بعد ذلك إلى مكانه الذى اختاره بين الجبال وكان هذا المكان بالنسبة اليه معسكرا جذب كل المعجبين بداود وببطولته ، الخارجين على طالوت والناقمين عليه لسوء معاملته لداود وغيره من العلماء وأهل الصلاح .

وكثر حول داود كل فار بدينه ، مؤمن بربه راغب في الجهاد في سبيل الله ، وزاد ذلك من نقمة طالوت عليه ، وكان الله مع داود يظله برعايته، ويحرسه بعنايته وينجيه من غدر طالوت ...

وكم مرة ظفر داود بطالوت ولكنه كان يعفو عنه ، ويتركه على أمل أن يصلح ما أفسد، ويتدارك ما أخطأ ولكن ما زاده ذلك الا زيادة فى العداء ومضيا فى العناد..

---

(٢٦) تفسير القرطبى جـ١ ص ٢٧٠ .

وفي يوم تمكن داود من طالوت وهو نائم بين جنوده ، واستطاع أن ينتزع سلاحه ويمضي به ..

واستيقظ طالوت ولم يجد سلاحه ، وعرف أن الذى أخذ سلاحه هو داود ، وكان في إمكانه أن يقتله ولكنه عفا عنه ..

عند ذلك أرقه الندم ، وهام على وجهه ، وعرف بناء على ما أخبره شمويل الذي بعثه الله حيًا أنه لا خلاص له مما هو فيه ، ولا تكفير له عن ذنبه الا بالاستشهاد ..

وظل يقاتل حتى قتل ..

واجتمع بنو إسرائيل بعد ذلك بفترة حول داود ، واختاروه ملكا عليهم ..

وأيد الله ملكه بالنبوة ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب ..

وكانت سنه حين تولى الملك ثلاثين سنة . وكانت عاصمة ملكه فى أول الأمر (حبرون) ثم انتقل الى (أورشليم) بعد ذلك .

العدل أساس الملك :

ويبدو أن القضاء العادل الذى هو الشرط الأول فى الخلافة الرشيدة ، هو الذى يقيم نظام الحكم ويديم استقرار الملك .

ولذلك كانت وصية الله لداود الخليفة أن قال له : ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَاتَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ﴾.

، وهذه الوصية ليست خاصة بداود – عليه السلام – ولكنها وصية عامة .. أوصى الله بها النبى – ﷺ – فى قوله تعالى : ﴿وأنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أنْزَلَ اللّهُ ولاَ تتَّبِعْ أهْوَاءَهُمْ واحذَرْهُمْ أن يفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أنْزَلَ اللّهُ اليْكَ﴾[٢٧] .

كما أوصى بها المؤمنين جميعا بقوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أنفُسِكُمْ اَوِ الْوَالِدَيْنِ

---

(٢٧) المائدة ٤٩.

وَالأَقْرَبِينَ إن يَكُنْ غَنِياً او فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أن تَعْدِلُوا وإن تَلْوُوا أوْ تُعْرِضُوا فإنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[٢٨].

لقد أراد الله أن ينبه العقول إلى أن العدل هو الأساس الذى يجب أن يبنى عليه الحاكم أمره فهو وحده الذى يحرس البلاد ويشيع الأمن ويطمئن الناس ويسعد النفوس..

وما زالت الدول فى أمن واستقرار ما دام سلطان العدل قائما، وكلمته نافذة.. فإذا ما تعرض هذا الشعار للاهتزاز فقل على الدولة السلام.

وهناك قصة ذكرها القرطبى فى تفسيره نذكرها للعظة والاعتبار أوردها في تفسير هذه الآية قال:

قال عبد العزيز بن أبى داود: بلغنى أن قاضيا كان فى زمن بنى إسرائيل، بلغ من اجتهاده أن طلب إلى ربه أن يجعل بينه وبينه علامة إذا هو قضى بالحق عرف ذلك، وإذا هو قصر عرف ذلك.

فقيل له: ادخل منزلك، ثم مد يدك على أحد جدرانه، ثم انظر حيث تبلغ أصابعك من الجدار فأخطط عندها خطاً، فإذا انت قمت من مجلس القضاء فارجع إلى ذلك الخط فأمدد يدك اليه، فإنك متى ما كنت على الحق فإنك ستبلغه، وأن قصرت عن الحق قصر بك، فكان يغدو الى القضاء وهو مجتهد فكان لا يقضى إلا بحق، وإذا قام من مجلسه وفرغ لم يذق طعاما ولا شرابا، ولم يفض الى أهله بشىء من الأمور حتى يأتى ذلك الخط، فإذا بلغه حمد الله وأفضى الى كل ما أحل الله له من أهل أو مطعم أو مشرب.

فلما كان ذات يوم وهو في مجلس القضاء أقبل اليه رجلان يريدانه، فوقع فى نفسه أنهما يريدان أن يختصما اليه، وكان أحدهما له صديق. فتحرك فى قلبه عليه محبة أن يكون الحق له فيقضى له.

فلما تكلما دار الحق على صاحبه فقضى عليه.

---

(٢٨) النساء ١٣٥.

فلما قام من مجلسه ذهب إلى خطه كما كان يذهب كل يوم ، فمد يده الى الخط فإذا الخط قد ذهب وارتفع الى السقف ، وإذا هو لا يبلغه .

فخر ساجدا وهو يقول : يارب شيئا لم أتعمده ولم أره فبينه لى .

فقيل له : اتحسبن أن الله - تعالى - لم يطلع على خيانة قلبك ، حيث أحببت أن يكون الحق لصديقك لتقضى له به ؟ بلى، قد اردته وأحببته ولكن الله قد رد الحق إلى أهله وأنت كاره(٢٩) .

وهكذا يجب أن يكون القضاء . نزاهة . وعدل -.. ومن الحكمة إذا رأى القاضى فى نفسه ميلا لأحد الخصمين أن يتنحى عن نظر القضية وهذا هو أدب الاسلام :

روى الليث بن سعد أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - تقدم له خصمان فأمهلهما ، ثم عادا فأمهلهما ، ثم عادا ففصل بينهما .

فقيل له في ذلك فقال : تقدما إلىَّ فوجدت لأحدهما فى نفسى ما لم أجد لصاحبه ، فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فوجدت بعض ذلك، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما ..

هذا ورسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى قانون القضاء مشهورة يتحرى العمل بها من وفقهم الله للعدل فى القضاء ، ومن أهم نصوصها «آس بين الناس في وجهك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك».

فطنة داود في قضائه :

وقد امتدح الله داود - عليه السلام - بحسن القضاء . فقال فى حقه ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وفَصْلَ الْخِطَابِ﴾.

قال العلماء أما الحكمة فهى النبوة ، وأما فصل الخطاب فهو الفصل فى القضاء .

---

(٢٩) تفسير القرطبي - سورة ص - ص ٥٦٣٣ - جـ ١ دار الشعب .

والفصل فى القضاء هبة الهية لا يتمكن منها إلا من وهبه الله الفطنة والفراسة، وهو بذلك يستطيع استلهام الصدق من مناقشة الشهود والخصوم ومقارنة الأدلة واستقراء القرائن .. فليست نصوص القانون قواعد صماء يطبقها القاضى دون مراعاة للقرائن والأحوال.

وهناك قضاة مشهورون فى التاريخ، ولا تعود شهرتهم الى علمهم بمواد القانون بل بقدرتهم على النفاذ بفراستهم الصادقة ونكائهم النادر الى بواطن الأمور.

جاء فى وفيات الأعيان فى ترجمة ابن ابى ليلى - وكان قاضيا بالكوفة - أنه جلد امرأة مجنونة وهى واقفة فى المسجد لأنها قالت لرجل : يا ابن الزانيين وأقام عليها حدين - فلما بلغ ذلك أبا حنيفة - رضى الله عنه - قال : أخطأ ابن ابى ليلى فى قضائه من ستة وجوه ..

وحين سئل عن ذلك الخطأ قال :

أولا : المجنون لا حد عليه .

ثانيا : لأنه أقام عليها حدين بقذف واحد على اعتبار أن لكل أب حداً .

ثالثا : أنه حكم بدون مطالبة من المقذوف، ولا يجوز اقامة الحد بدون مطالبة من صاحب الحق .

رابعا : أنه والى بين الحدّين ولم يفصل بينهما .

خامسا : أنه حدها وهى قائمة ، والمرأة لا تضرب قائمة سترا لها .

سادسا : أنه أقام الحد فى المسجد ، والمسجد لا تقام فيه الحدود .

وفى هذه القصة بيان للفرق بين القاضى الذى يحكم النصّ دون فقه وبين القاضى الذى يتفهم روح القانون ويقضى به ..

ومما أيد الله به داود - عليه السلام - فى قضائه ما أعطاه إياه من نور النبوة التى يفصل بها بين الحق والباطل ..

وحين كثر الفساد والجحود فى بنى إسرائيل أمده الله بسلسلة لفصل القضاء، فكانت ممدودة من السماء الى صخرة بيت المقدس، وكانت من ذهب، فإذا تشاجر اثنان فى حق، فأيهما كان على حق مد يده فنال السلسلة، وإذا كان على باطل لا تصل يده اليها.

ولم تزل كذلك حتى أودع رجل رجلا لؤلؤة وحين طلبها منه جحدها - فحاكمه الى داود. فعمد من عنده اللؤلؤة الى عكاز مجوف وضع فيه اللؤلؤة، ولما وصلا الى مكان السلسلة. أعطى العكاز الى صاحب اللؤلؤة.. ومد يده وهو يقول: اللهم إنك تعلم أنى أعطيته اللؤلؤة. فنال السلسلة.. فأصبحوا وقد رفعت السلسلة[٣٠].

من قضاء داود:

وقد أشار القرآن الكريم إلى قضية حكم فيها داود - عليه السلام - وناقضه فيها ابنه سليمان - عليه السلام - هذه القضية هى قضية الغنم التى نفشت فى حرث القوم.. وجاء ذكرها فى قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وعِلْماً﴾[٣١].

وقصة ذلك.

أنه كان لقوم غنم يرعونها، فناموا عنها فى ليلة، فإذا بها دخلت إلى زرع قوم فأكلته وأتلفته. فأقبل أصحاب الزرع على داود يحكمونه فى قضيتهم.

فحكم بأن تدفع الغنم إلى أصحاب الزرع تعويضا لهم عن زرعهم، لأنه رأى أن الغلة التى فسدت تعادل مقدار الغنم.

وسمع سليمان بحكم أبيه فى هذه القضية - فقال لأصحاب الغنم: لو حُكِّمت فى هذه القضية لحَكَمت بغير ذلك.

---

(٣٠) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٨٥.

(٣١) الأنبياء ٧٧، ٧٨.

فلما سمع داود بذلك استحضره وقال له : كيف كنت تقضى؟ قال أقضى بما هو أرفق لكليهما .

قال له : فاقض بينهما .

قال : يأخذ أصحاب الحرث الغنم ينتفعون بألبانها وأصوافها ، ويأخذ أصحاب الغنم الحرث فيرزعونه حتى يبلغ مقدار ما بلغ يوم أفسدته الغنم . ثم يترادان . فتعود الغنم إلى أصحابها ويعود الزرع إلى أصحابه .

فقال داود : وفقت يا بنى لا يقطع الله فهمك ، وأمضى داود حكم سليمان .

ولم يكن حكم داود خاطئا : فقد اجتهد ووجد أن ما تلف من زرع القوم يعادل قيمة الغنم ... ولذلك قال الله تعالى ﴿وَكلاً آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾ .

وكان عمر سليمان حين حكم فى هذه القضية إحدى عشرة سنة ..!

وهذا من علم النبوة المبكر .. ليقر الله تعالى بذلك عين أبيه ويسعده به فى حياته ويطمئنه عليه قبل مماته .

فلا ينبغى فى هذه المسألة أن يتجرأ أحد على مقام النبوة فيقول فى حق داود - عليه السلام - إنه أخطأ وأن ابنه سليمان استدرك عليه خطأه فأصلحه له ، وسوف نعرض لتلك القضية مرة أخرى فى قصة سليمان إن شاء الله .

براعة استشهاد :

يذكر الرواة ان الوليد بن عبد الملك حين هدم كنيسة دمشق كتب اليه ملك الروم يقول له : انك هدمت الكنيسة التى راى ابوك أن يتركها ، فإن كنت مصيبا فقد اخطأ أبوك ، وإن كان أبوك مصيبا فقد اخطأت أنت .

فكتب اليه الوليد بقوله تعالى : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً .﴾

وفى هذا الرد ذكاء لأنه أصاب وجه الشبه تماما فى اختلاف الحكم بين الوالد وابنه فى قضية واحدة ... وفى أن هذا الاختلاف لم ينقص من قدر واحد منهما ، فكلاهما آتاه الله الحكم والعلم .. وفى أنه أتى فيه بدليل لا يمكن أن يعارضه ملك الروم لأنه من تاريخ أنبيائهم الذين يعتزون بهم ويقدرونهم حق التقدير .

بناء بيت المقدس :

وحين أتم الله نعمته على داود . أقام بيت المقدس ..

وقيل : إن أول من بناه يعقوب عليه السلام – وقد سئل النبى – ﷺ – عن أول بيت وضع للناس فى الأرض . فقال : البيت الحرام . ثم قيل له : وماذا بعده ؟ فقال : بيت المقدس بينهما أربعون عاما .

وقد مر فى قصة يعقوب – عليه السلام – ما يشير الى ذلك .

وجاء داود عليه السلام . فبناه من جديد ، ولكنه لم يتمه .

فأتمه بعده ابنه سليمان – عليه السلام – وسيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى :

لعنة داود للمخالفين من قومه (أصحاب السبت) :

على الرغم من حب بني إسرائيل لداود ، والتفافهم حوله ، إلا انه كان يجد شذوذا من بعضهم الذين يخالفون أمره ، ويخرجون على تعاليمه ، ويحتالون على ما يجدونه من نصوص لا تجرى مع هواهم . ومن هؤلاء أصحاب السبت الذين وردت قصتهم فى القرآن الكريم ، فى قوله تعالى :

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ (٣٢)

---

(٣٢) الاعراف ١٦٣ : ١٦٦ .

ذكر العلماء أن هؤلاء المعتدين فى السبت كانوا فى زمن داود - عليه السلام - وان داود لعنهم. فعاقبهم الله بالمسخ، وحولهم قردة خاسئين.. وهذه اللعنة يشير اليها الحق - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿لُعِنَ الذين كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرائيل عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بن مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانوا يَعْتَدُون﴾[٣٣].

وذكر القرطبى عند تفسير هذه الآية قول ابن عباس - رضى الله عنهما -: الذين لعنوا على لسان داود أصحاب السبت. والذين لعنوا على لسان عيسى بن مريم هم الذين كفروا بالمائدة بعد نزولها.

وقصة أصحاب السبت تدور حول قوم من بنى اسرائيل كانوا يسكنون قرية «ايلة» على شاطىء البحر الأحمر.

وكانت الحيتان يوم السبت تخرج الى الشاطىء كثيرة يراها اليهود ويعجبون بها، ولكنهم لا يجرؤون على صيدها لأن الله حرم عليهم العمل فى يوم السبت وفى غير يوم السبت تختفى هذه الحيتان. وهذا الهام غرزى الهمه الله لهذه الحيتان.

فاحتال قوم من هؤلاء بدافع الطمع والجشع ونسيان العهد المقطوع عليهم - فكانوا يحفرون أسرابا من البحر الى بيوتهم، فإذا دخلتها الحيتان اغلقوا عليها المنافذ الى البحر، فإذا ارادت الحيتان الرجوع لا تستطيع، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها بأيديهم، فاشتووا واكلوا..

وأصبح جيرانهم يشمون رائحة الشواء واستطلعوا الخبر. فلما عرفوا ما صنع هؤلاء فعلوا مثلهم ولكن قوم منهم انكروا عليهم ونهوهم وقاطعوهم وبعضهم سكت وهو كاره لما فعلوا..

ولما لم يصيخوا الى نصح الناصحين ولم يستجيبوا إلى تذكير المؤمنين، انتقم الله من هؤلاء المخالفين انتقاما شديدا.

فاصبحوا فى ديارهم وقد مسخوا قردة ثم لم يلبثوا أن هلكوا. وحقت لعنة الله على الكافرين.

---

(٣٣) المائدة ٧٨.

فتنة داود :

قال تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾

تشير هذه الآيات الكريمة التى بدأت بأسلوب استفهام للتشويق واثارة الاهتمام الى قصة حدثت بين نبى الله داود - عليه السلام -، وملكين تسورا عليه جدار المحراب الذى يحكم فيه ويتعبد فيه ..

أما القضية التي تنازع فيها الخصمان فهى أن أحدهما كان يملك تسعا وتسعين نعجة والآخر لا يملك الا نعجة واحدة ..

وقد طمع صاحب النعاج التسع والتسعين فى نعجة الآخر التى لا يملك سواها ، وأراد أن يضمها إلى قطيعه بل ضمها فعلا ..

وهى قضية واضحة الدلالة على البغي والظلم والطمع ، ولا تكاد تحتاج الى بينة فى الحكم فيها ..

ولذلك سرعان ما أدلى داود - عليه السلام - بحكمه فيها دون أن يسمع قول الخصم الآخر .. فقال لصاحب النعجة الواحدة وهو الخصم الذى تكلم : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه . وبين أن هذا شأن الخلطاء الذين لا يرعون الحق ، وكثيرا ما يجانبون الصواب ..

وما ان أتم داود كلامه حتى وجد الخصمين قد غابا من أمامه فأدرك أنهما ملكان وليسا بشرين ..

---

(٣٤) ص ٢١ : ٢٥.

لقد دخل هذان الملكان عليه المحراب دون إذن من الحراس الذين كانوا يحيطون به وما اكثرهم ..

وادرك داود أن هناك درسا يجب أن يعيه، وأن الله أراد أن ينبهه اليه .. فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ..

وقد ذكر بعض المفسرين فى هذا الصدد كلاما كثيرا مرجعه إلى قصص أهل الكتاب، وقالوا إن هذه القصة ترمز إلى شيء حدث من داود - عليه السلام - بالنسبة لزوجة جار له اسمه «أوريا» رآها من فوق سطح منزله فأعجب بها، وأرسل زوجها الى الحرب وقدمه، فقتل فخلصت له ..

وقد وردت هذه القصة فى العهد القديم.[٣٥] وعرضت بصورة تذكر داود النبى بأوصاف لا تتفق ولا تليق بعصمة الأنبياء الذين طهرهم الله.

وقد ذهب أكثر المفسرين مذهب الاعتدال فى عرض تلك القصة، مراعين حق النبوة فى العصمة والطهر ..

ومن ذلك ما ذكره بعضهم من أن داود خطبها واوريا خطبها ففضل أهلها داود لغناه وملكه على أوريا الفقير .. والمؤاخذة التى لحقت بداود أنه خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه. ومعنى ذلك أن أوريا كان قد خطبها قبل داود. فداود لم يتبع المرأة فى حرام، ولم يجتمع معها على حرام، كما ذكر اصحاب الاسرائيليات.

ومن حدث بذلك فقد اعظم الفرية على الأنبياء، روى سعيد بن المسيب عن الحارث الأعور أن على بن أبى طالب قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة، وهو حد الفرية على الأنبياء...

وقد روى أن عمر بن العزيز قد كذب من حدثه بتلك القصة على ما رواها أهل الكتاب وقال رجل من أهل الحق كان جالسا فى مجلسه:

---

(٣٥) سفر صموئيل الثاني - الاصحاح الحادى عشر والاصحاح الثانى عشر.

إن كانت القصة على ما فى كتاب الله فما ينبغى أن يلتمس خلافها ، وأعْظِمْ بأن يقال غير ذلك وان كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترا على نبيه فما ينبغى اظهارها . فقال عمر : لسماعى هذا الكلام أحب الى مما طلعت عليه الشمس.(٣٦) .

ونستطيع أن نقول : إن هذه القصة كما ذكرها أهل الكتاب لا تليق بعصمة داود عليه السلام ونبوته . وأن أكثر ما يمكن أن يقال فى ذلك أن داود عليه السلام رأى زوجة جاره مصادفة دون عمد . وكان زوجها يجاهد فنوى فى نفسه إن مات زوجها أن يتزوجها .

والأولى من ذلك أن يقال : إن هذه المرأة لم تكن قد تزوجت أوريا بعد وإنما كانت مخطوبة له ورآها داود عليه السلام فلما مات اوريا لم يجزع عليه داود كما كان يجزع على غيره من الجنود إذا مات لأنه كان قد تمنى فى نفسه أن تكون تلك المرأة زوجا له فعاتبه الله على ذلك عتابا شديدا لأن ذنوب الأنبياء مهما صغرت فى عظيمة .. هذا إذا كان هناك أساس لما ذكره أهل الكتاب فى ذلك .

أما الرأى الذى نرى أنه الأقرب للصواب فهو أن الله سبحانه وتعالى عاتب داود لانه تسرع فى الحكم وحكم لأحد الطرفين قبل أن يسمع من الطرف الآخر . وكان ذلك تسرعا منه، واعجابا منه بسرعة فهمه وقوة فطنته فلامه الله على ذلك وعاتبه ليعرفه أنه بفعله هذا قد غفل عن أصول القضاء وأعجب بنفسه .

وانك لتقرأ ما قصه القرآن الكريم حول ذلك ، فلا تشعر إلا بأنك أمام حادثة تظهر كثيرا فى المجتمعات ، فكم من غنى يبطره غناه فيعمى عن حق جاره الفقير ، بل يطمع فيما يملكه من متاع قليل .. وهؤلاء أصحاب الضياع يضيقون ذرعا حين يرون ما يتخلل ضياعهم الواسعة من أمتار قليلة وقراريط يسيرة يملكها رجل كادح فقير ، فما يزالون به حتى يجبرونه على البيع أو التنازل وإلا كان الاغتصاب ، فضلا عن التعذيب

---

(٣٦) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨١ .

والتشريد ، وهذا صاحب قصر مشيد يأبى إلا أن يضم إلى قصره كوخ جاره المتواضع ، وبدلا من أن يبسط عليه جناح رعايته يقصيه من جواره وينفيه من قربه ..

ولقد كان دخول الملكين بطريقة غير عادية تنبيها لداود – عليه السلام – ان القاضي في محل حكمه لا ينبغي أن يحيط مجلسه بالجنود الذين يعوقون المتخاصمين عن الوصول اليه في اي وقت يشاءون ومتى أحاط الحاكم قصره بالحراس ، ووضع دون بابه الحجاب كان ذلك من علامات الظلم الذي يحول بين الحق وصاحبه .

فليس معنى الظلم قاصرا على أن يبغي الخصم على خصمه ويتغاضى القاضي أو الحاكم عن ذلك . بل إن الظلم من الحاكم يكون حين لا يمكّن المظلوم من الوصول اليه بسهولة .. وظلم الحاكم في حكمه أشد من بغي المتخاصمين فيما بينهم ..

فإن الظلم بين المتخاصمين يرده إنصاف القاضي .. فإذا غفل القاضي أو تغافل فهذه هي الطامة الكبرى ..

لقد جاء التنبيه في قالب رمزي،لأن الكناية أبلغ في الوعظ من التصريح والأنبياء اذكياء بفطرتهم،ومن أدق صفاتهم الفطنة. وقد جاء في الأمثال العربية:الحر تكفيه الاشارة. كما جاء : وكل لبيب بالاشارة يفهم.

وقد افاض الزمخشري في بيان ذلك وكان مما قاله : ان التمثيل في هذه القصة ابلغ لأنه يؤدي إلى التأمل والتفكير في الأمر المعرَّض به ، والشيء إذا جاء بعد تفكير وتأمل كان أوقع في النفس ، واشد تمكنا من القلب واعظم أثرا فيه ، وأجلب لاحتشام الانسان وحيائه .. مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة . الا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكرة ، أن يعرض له بانكارها عليه ولا يصرح ، وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استنكر حال صاحب الحكاية فاستنكر حال نفسه وذلك أزجر له، لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ومقياسا لشأنه، فيتصور قبح ما وجد منه[٣٧] .

---

(٣٧) تفسير الزمخشري للكشاف جـ ٤ ص ٨٢.

وقد جاء المثل في قصة داود في صورة تحاكم بين خصمين ، ليكون داود– عليه السلام– محجوجا بحكمه الذى حكم به.

لقد فهم داود – عليه السلام – ذلك كله ، وأدرك أنه تذكير من الله لشيء غفل عنه.

وعرف أن ذلك ماجاءه ذلك الا من قبل أنه وكل الىَ نفسه لحظة. فالانسان محفوظ بحفظ الله له ، ولو أنه ترك الى نفسه لما استطاع أن يحفظها كما يحفظها له الله جل وعلا .. ولذلك كان من دعاء الصالحين : اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك.

وليس هناك طريق للمغفرة إلا التوبة الصادقة.

وهذا ما فعله داود – عليه السلام – لقد استغفر ربه وخر راكعا وأناب.

والركوع هنا هو السجود ، والانابة هى التوبة الصادقة التى يصحبها التبرؤ من الذنب والرجوع الى الله بصدق الاعتذار .

وبالغ داود فى استغفاره حتى قالوا : لقد بقى ساجدا أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه الا لصلاة مكتوبة أو ما لابد منه .

بل قالوا : إنه انشغل بذنبه عن كل شيء ، وزهد عن ملكه حتى وثب ابن له يقال «ايشا» على ملك ابيه ودعا الى نفسه.

واجتمع حول هذا الابن أهل الزيغ والفساد فعانوه على ذلك، ولكن الله غفر لداود ، وقبل توبته، فتنبه لأمره وحارب ابنه حتى هزمه وأنقذ ملكه.

وظل متذكرا لذلك الذنب لا ينساه ، حتى أخبر بعض العلماء أنه نقش هذا الذنب في كفه ليكون على ذكر دائم له.

التوبة على داود :

لقد قبل الله توبة داود– عليه السلام– لأنه أقبل على الله بصدق النية واخلاص القلب.وفزع من ذنبه فزعا عظيما.وهكذا يجب أن يكون الراغب فى التوبة.

ولا شك فى أن داود ندم واستغفر ، وقد يكون سجد فطال سجوده كما أخبرنا.. ولكن المولعين بالقصص حاكوا حول هذا السجود قصصا غريبة.

فمنهم من يقول: إنه ظل يبكي في سجوده ولا يرقأ الدمع من عينيه حتي نبت العشب حول رأسه.

ومنهم من يقول : إن الحق خاطبه قائلا ارفع رأسك يا داود ، فذهب ليرفع رأسه فإذا به قد لصق بالأرض فأتاه جبريل واقتلعه عن وجه الأرض كما يقتلع من الشجرة صمغها.

حقا لقد بكى داود فأكثر من البكاء ، وأقبل على الله بصدق واخلاص، وأرقه شعوره بالذنب وحرمه من طول المنام ، وهكذا يكون شأن الصادقين المخلصين.

روى الوليد بن مسلم عن الأوزاعى أن رسول الله – ﷺ – قال : انما مثل عينى داود مثل القربتين تنظفان ولقد خدد الدمع في وجه داود خديد الماء فى الأرض.

قال الوليد : وحدثنا عثمان بن أبى العائكة أنه كان فى قول داود إذ هو خلو من الخطيئة شدة فى الخاطئين إذ كان يقول : اللهم لا تغفر للخاطئين .. ثم صار إلى أن يقول: اللهم اغفر للخاطئين لكي تغفر لداود معهم . سبحان خالق النور. الهى خرجت أسأل اطباء عبادك أن يداووا خطيئتى فكلهم يدلنى عليك. الهى أخطأت خطيئة قد خفت أن تجعل حصادها عذابك يوم القيامة ان لم تغفرها ، سبحان خالق النور..[٣٨].

لقد غفر الله لداود ، وقال فى حقه : ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وإنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب﴾.

سجدة سورة ص

يرى كثير من الفقهاء أن قوله تعالى : ﴿وَخَرَّ راكِعاً وَأَنَابَ﴾ موضع سجدة من سجدات التلاوة.

---

(٣٨) تفسير القرطبى – سورة ص ٥٦٣ .

وروى القرطبى فى ذلك خبرا عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : ان النبى - ﷺ - قرأ على المنبر ﴿ص والقرآن ذى الذكر﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه.

فلما كان يوم آخر قرأ بها فتهيأ الناس للسجود فقال - عليه الصلاة والسلام - انها توبة نبى ولكنى رأيتكم تهيأتم للسجود ونزل وسجد.

وروى الترمذى وغيره أن رجلا من الأنصار على عهد رسول الله - ﷺ - كان يصلى من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ ﴿ص والقرآن ذى الذكر﴾ فلما بلغ السجدة سجد وسجدت الشجرة فسمعها وهى تقول : اللهم أعظم لى بهذه السجدة أجرا وارزقنى بها شكرا.

انها سجدة شكر واستغفار وتوبة - يذكر بها المؤمن فضل الله على نبيه داود فيذكره ذلك بفضله عليه.

ثناء الله على داود

أثنى الله على داود - عليه السلام ثناء جميلا .. وذكره فى سلسلة الأنبياء الذى ورثوا النبوة عن ابراهيم - عليه السلام - فقد قال - تعالى - ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾(٣٩) وجاء فى اعقاب هذه الآيات قوله - تعالى - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(٤٠).

فقد أمر الله بالاهتداء به.

ووصفه بصفات جليلة ، واختصه بالفضل ، فقال فى حقه ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾(٤١).

والزبور كتاب انزله الله على داود ، اختصه به ، ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود وإنما هو دعاء وتمجيد وتحميد وأخبار .

ذكر المسعودى : أن الزبور خمسون ومائة سورة ، ومقسم إلى ثلاثه أقسام : قسم لما يلقون من بختنصر وما سيكون من امره فى المستقبل .

---

(٣٩) الانعام ٨٤ (٤٠) الانعام ٩٠ (٤١) الاسراء ٥٥

وقـم لمـا يلقون من أهل ﴿آشور﴾.

والقسم الثالث موعظة وترغيب وتمجيد وترهيب[٤٢].

واكرمه الله بأن الجبال كانت تردد معه تسبيحه وكذلك الطير تحشر له، فتسبح بتسبيحه وتحمد بتحميده.

وكان حسن الصوت، يسترعي بذلك الطير والوحش فتعكف حوله حتى تنسى العطش والجوع وحتى ان الانهار لتقف عن الجريان تأثرا بحسن صوت داود. وقد شبه النبي - ﷺ - صوت ابى موسى الأشعرى فى قراءة القرآن بصوت داود - عليه السلام - وقال فى ذلك: لقد أوتى أبو موسى من مزامير داود[٤٣].

وكان داود دائم التسبيح كما قدمنا، وقد خص الله بالذكر فى العشى والاشراق فى قوله تعالى:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ معه يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ. وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾[٤٤].

ذلك أن هذين الوقتين يشملان بقية الأوقات ضمنا كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾[٤٦].

وقد فسر بعض العلماء صلاة الاشراق بأنها صلاة الضحى، وتسمى صلاة الأوابين، وورد فى فضلها كثير من الآثار..

روى الترمذى عن ابى هريرة ان النبى - ﷺ - قال: من حافظ على شفعة الضحى غفر الله له ذنوبه وان كانت مثل زبد البحر..

---

(٤٢) مروج الذهب للمسعودى جـ١ ص ٤٠

(٤٣) اخرجه البخارى فى فضائل القرآن

(٤٤) ص ١٨، ١٩.

(٤٥) الاحزاب ٤٢

(٤٦) هود ١١٤.

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أيضا قال: أوصانى خليلى بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر.

ووصفه الله بالقوة فقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٤٧) والأيد – القوة.. والأواب: أى كثير الأوبة الى الله والرجوع إليه وكان داود عليه السلام دائم التوبة والاستغفار لا سيما بعد ذنبه الذى اعتبره من أعظم الذنوب ففزع منه الى ربه، حتى تاب عليه..

واعطاه الله العلم، قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَان عِلْماً وفضَّلْنَاهُمَا عَلَى كَثِير مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِين﴾(٤٨).

والان الله له الحديد... جعل ذلك معجزة له... فكان الحديد فى يده كالعجين يصنع منه ما يشاء واستغل ذلك فى صناعة الدروع، وقال الله فى ذلك ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾(٤٩).

وكان ذلك نعمة على الناس جميعا، ولذلك أعقب الله ذكرها بوجوب الشكر عليها.

وقال العلماء فى سبب تعليم داود هذه الصنعة إنه حين أصبح ملكا كان يسير متنكرا ليعرف أحاديث الناس عنه، فلقيه ملك فى زى إنسان فسأله عن سيرة داود، فقال له: نعم الرجل لولا أنه يأكل من بيت المال..

فسأل الله أن يجعل رزقه من عمل يده، فعلمه الله هذه الصناعة وَيسَّرها عليه بأن ألان له الحديد.

وقد امتدحه النبى – ﷺ – بذلك، فقال فى حديث مشهور: ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده..

---

(٤٧) ص ١٧ (٤٨) النمل ١٥ (٤٩) الأنبياء ٨٠

وفى هذا حفز للناس على أن يتخذوا الأسباب فى كسبهم ، والا يركنوا الى الكسل فيكونوا عالة على غيرهم ، والعمل مظهر من مظاهر شكر الله تعالى ، أمر الله به داود وأهله . فقال فى حقهم ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾(٥٠) .

ولم يكتف داود – عليه السلام – بعمل الدروع التى أخبر عنها الحق – سبحانه وتعالى – ولكنهم قالوا : إنه كان يصنع الخوص ، وقد أثر عن بعض الأنبياء أنهم كانوا يمارسون أعمالا يتعيشون منها . فآدم – عليه السلام – كان حراثا ، ونوح – عليه السلام – كان نجارا ، ولقمان – عليه السلام – كان خياطا ، وطالوت الذى ملكه الله على بنى إسرائيل كان دباغا ، وقال بعضهم : كان سقاء(٥١) .

وجعل الله داود خليفة فى أرضه ولم يذكر القرآن هذه المنقبة لأحد بعد آدم إلا داود – عليه السلام – بل إنها جاءت فى حق آدم على سبيل الاخبار .. وجاءت فى حق داود على سبيل المخاطبة .

ومن فضائل داود أنه كان يحرص على تقسيم وقته .

ومما أثِر عنه فى ذلك قوله : حق على العاقل الا يغفل عن أربع ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل ، فإن هذه الساعة عون على هذه الطاعات واجمام للقلوب ..

وحق على العاقل أن يصرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه، وحق على العاقل الا يظعن الا فى إحدى ثلاث : زاد لمعاده ومرمة لمعاشه ولذة فى غير محرم(٥٢) .

---

(٥٠) سبأ ١٣

(٥١) تفسير القرطبي – سورة الأنبياء ص ٤٣٦١ .

(٥٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٨٩ نقلا عن عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد .

عظات وعبر :

إن قصة داود حافلة بالعبر والعظات التى تهدى المؤمن فى طريقه الى الله، وتنير له سبيل الحياة .

ومن هذه العبر أن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ..

فهذا داود - عليه السلام - كان راعيا يرعى على أبيه واخوته اغنامهم لا يكاد يأبه به أحد ..

ولكن الله اصطفاه وعلمه من فضله، واختاره دون اخوته الذين كانوا أكبر منه سنا وأجمل منظرا .. ووهبه الله قوة قهرت خصمه، ثم ما زالت به الأيام حتى ولاه الله ملك بنى إسرائيل ...

وقد جمع الله له بين الملك والنبوة، ولم يجمع ذلك لنبى قبله .

ومن هذه العبر ألا يستكبر أحد على الاستغفار، كما لا يعظم أحد على الذنب ..

وحين شعر داود بزلته بكى حتى نبت العشب من دموعه ..

وما زال ذاكرا ذنبه حتى آخر حياته، ولذلك وصفه الله بأنه أواب ..

وكان النبى - ﷺ - يوصى بالتوبة ومداومة الاستغفار وكان عليه الصلاة والسلام يكثر من التوبة والاستغفار .

وليس معنى ذلك أنه - ﷺ - كان يذنب، ولكنه من قبيل استشعار عظمة الرب، والتواضع له، والشعور بالتقصير فى حقه - تعالى - فإن حق الله على الانسان عظيم ..

وهذا يشعرنا أيضا بالتفاوت بين أقدار الناس، وما يعد حسنة فى حق انسان قد يعد سيئة فى حق من هو أفضل منه، ولذلك قالوا : إن حسنات الأبرار سيئات المقربين ..

وذنب داود - على فرض حدوثه بالصورة التى حكاها بعض الرواة - كان مستساغا لدى بنى إسرائيل ولكنه بالنسبة لداود اعتبر ذنبا عظيما ..

والانسان السوى لا يعتد بفضله مهما أوتى ، ولكنه يستشعر التقصير دائما ، ويطمح الى الكمال ابدا ..

ومن الدروس التي نستفيدها من قصة داود ، وجوب الجهاد في سبيل الله ، بل انه اتخذ الملك ذريعة الى مواصلة الجهاد .. وكانت الصنعة التى علمه الله إياها معينة له على ذلك ، فقد علمه صناعة الدروع وهي لباس الحرب .. وأوصاه بتوسيعها لتكون سابغة تقي الجسم من طعان العدو ..

ومن الدروس وجوب العمل وعدم الركون الى الكسل ، وفي الأثر : لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني وهو يعلم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ..

وقد امتدح النبى - ﷺ - داود لأنه كان يأكل من عمل يده ..

وقد ورد فى بعض الآثار أن الله يحب المؤمن المحترف .. أى الذى يتعلم حرفة يأكل منها .

وقد كان لداود مندوحة في ترك العمل بانشغاله بالملك وتدبير شئون الرعية والحرب ولكن الله جعله فى موضع القدوة لقوم يرون أن التباهي يكون بالمال والمناصب .. فحسب

وقد زكى النبى - ﷺ - سلوك داود فى عمله وعبادته وهذه التزكية مضيٌّ على النهج الذى دعا الله نبيه الى انتهاجه فقال له : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه ﴾

وكان النبى - ﷺ - فى نشأته وشبابه يأكل من عمل يده عن طريق رعى الاغنام والتجارة ، فلما نُبِّىء وهاجر جعل الله رزقه فى ظل سيفه حيث أحل الله له الغنائم ، وكانت لا تحل لأحد قبله ..

ومن العظات ما نفهمه من أن الله يربى أنبياءه على عينه ، ويوفقهم فى نشأتهم الأولى الى رعى الأغنام لما فى ذلك من تدريب على سياسة الرعية وادارة شئونها ، وقيل فى ذلك : ما من نبى الا ورعى الغنم .. وكان النبى - ﷺ - يرعاها ببطحاء مكة لقاء أجر يأكل منه .، وداود - عليه السلام - كان راعيا فى صباه ..

ومما يعتبر به في قصة داود أن الحكم تبعة وهو وظيفة تكليف لا تشريف ..

فمن ولاه الله الحكم وجب عليه الا يغفل عن رعيته وعليه أن يتحرى ما فيه مصلحتها وسعادتها وتقدمها، وعليه ألا يشعر بأنه افضل من غيره حيث اختصه الله بذلك. فقد يكون هناك من هو أفضل منه إلا أن الله أراد أن يختبره بالملك ويفتنه بالحكم لينظر كيف تكون سيرته في العباد ..

وعليه أن يعلم أن كل إنسان يوم القيامة محاسب على خاصة نفسه ما عدا الحاكم فهو محاسب عن كل فرد من أفراد رعيته .. ويكفى في ذلك قوله - ﷺ - «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. الامام راع ومسئول عن رعيته ....».

ومما يمكن استفادته من قصة داود - عليه السلام - أن الطيبات من الرزق والتنعم بالحلال لا يحول بين المؤمن وربه ..

ولكن الذى يحول بين المؤمن وربه هو التهالك على هذه الطيبات حتى تلهيه عن واجبه، وحتى تتحول الى شهوات تصده عن ذكر الله ..

وقد قال الله - تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(٥٣).

وقد كان لداود - عليه السلام - مائة امرأة، وما شغلته واحدة منهن عن ذكر الله. ولكن الذى اثار شجنه وحزنه وابكاه وأفزعه شعوره بأنه أخطأ في حق «أوريا» وأنه خطب على خطبته ..

وعلى كل فما اعظم الاعتدال، واجمل الاقتصاد وأحسن الكفاف الذى تمناه النبى - ﷺ - بقوله: اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا ..

---

(٥٣) الاعراف ٣٢.

وقد خيِّر – ﷺ – بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا، فاختار جانب العبودية، وقال: أجوع يوما وأشبع يوما، فإذا جعت صبرت وإذا شبعت شكرت ...

ويروى الرواة ان داود – عليه السلام – على الرغم من الملك الذى آتاه الله كان لا يستبيحه لنفسه، بل كان يأكل من عمل يده كما قدمنا. كما كان يكثر من الصوم ... وقد ورد فى ذلك قوله – ﷺ – فى النهى عن صوم الدهر: إن خير الصوم صوم أخى داود كان يصوم يوما ويفطر يوما ..

إن قصص الأنبياء وردت للذكرى والعبرة، وما أكثر ما فى قصة داود – عليه السلام – من عبر وعظات ...

خروج ابنه عليه:

واستقامت الأمور لداود، وأرهب أعداءه وأذلهم، حتى لحق الكفار بأطراف البلاد لهيبته.

ولكنه فى أثناء انشغاله بالبكاء والتضرع الى الله لقبول توبته، انتهز اصحاب الفساد الذين لا تخلو منهم دولة هذه الفرصة، والتفوا حول ابن لداود وزينوا له الوثوب على الملك، فوثب عليه، واعلن نفسه ملكا على بنى إسرائيل، وظل ملكا لمدة عامين – فيما يحكيه بعض الرواة.

ولكن داود استرد ملكه من ابنه إثر حروب بين أنصاره وأنصار أبنه، وقتل قائد جيش داود هذا الأبن وحزن داود على ابنه. فهو وان خرج عليه فإنه ابنه على أية حال. وهو يتوقع أن يكون ملكا من بعده. وكان فى أثناء حربه مع ابنه قد أوصى قائده بألا يقتله. ولكن القائد لم يجد بداً من قتله حرصا على داود. وكان فى إمكان داود أن يقتل القائد، ولكنه لم يقلته لأنه كان شجاعا فى مجاهدة اعداء بنى إسرائيل[٥٤] وكان هذا اختبارا عنيفا لداود–فما أقسى أن يختبر الرجل بعداء ابنه له وخروجه عليه.

---

(٥٤) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٩١.

وفاته :

وكان داود - عليه السلام - كما مر بنا يحسن تنظيم وقته - وكان يخصص أياما لنفسه يجدد فيها توبته - ويذكر فيها ذنبه ، ويعلن فيها بكاءه ..

وكان يعلم الناس بهذه الأيام فيجتمعون ، وفى ذلك تذكير لهم .

قال القرطبى : كان إذا جاء يوم نَوْحِ داود - عليه السلام - نادى منادٍ فى الطرق والاسواق والأودية والشعاب وعلى رؤوس الجبال وافواه النيران : الا إن هذا يوم نوح داود ، فمن أراد أن يبكى على ذنبه فليأت داود فيسعده ..

فيأتى إليه الناس من كل مكان وترتج الأصوات حول منبره والوحوش والسباع والطيور عُكَّف ، وبنو إسرائيل حول منبره ..

فإذا أخذ فى البكاء والاستغفار وأثارت الحسرات منابع دموعه صارت الجماعة ضجة واحدة استغفارا وبكاء حتى يموت حول منبره بشر كثير فى مثل ذلك اليوم ...

وحين حانت وفاته جاءه ملك الموت وهو يصعد فى محرابه وينزل فقال : جئت لأقبض روحك .. فقال : دعني حتى أنزل وارتقي . فقال له : مالى إلى ذلك من سبيل ، تقدمت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق ، فما أنت بمؤثر بعدها أثراً ...

فسجد داود على مرقاة من الدرج فقبض على هذه الحال[٥٥] .

وروى فى وفاته خبر عن النبى - ﷺ - قال : فيما رواه أبو هريرة : كان داود فيه غيرة شديدة ، وكان إذا خرج أغلقت الأبواب ، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع ، فخرج ذات يوم وغلقت الأبواب ، فأقبلت امرأة تطلع الى الدار ، وإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن فى البيت : من أين دخل هذا الرجل ؟ والدار مغلقة ، والله ليفتضحن بداود ...

---

(٥٥) تفسير القرطبى - سورة ص ص ٥٦٣٠ - ط دار الشعب .

فجاء داود واذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من أنت ؟

قال : الذى لا أهاب الملوك ولا يمتنع منى الحجاب :

قال داود : أنت اذن والله ملك الموت . مرحبا بأمر الله .

فرمل داود مكانه حيث قبضت نفسه ، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس .

فقال سليمان للطير : ظلى على داود فأظلت عليه ، حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال لها سليمان : اقبضى جناحا ، وغلبت عليه يومئذ المضرحية(٥٦) .

ومعنى رمل : دفن ، والمضرحية : الصقور طويلة الأجنحة .

وذكر الضحاك والكلبى أن داود ملك بعد أن قتل جالوت سبعين سنة ولم يجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد الا على داود – عليه السلام .

وجمع له بين الملك والنبوة كما قال تعالى : ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾(٥٧) .

فالحكمة هى النبوة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ...

وقيل : الحكمة هى العلم مع العمل ..

وكان داود – عليه السلام – أشد ملوك الأرض سلطانا ، وكان يحرس محرابه كل ليلة عدد كبير من الجنود، فذلك قوله تعالى : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ .

وتوفى داود – عليه السلام – وهو ابن مائة سنة .

وأوصى لابنه سليمان . وكانت سنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة(٥٨) .

وجزع عليه بنو إسرائيل جزعا شديدا .

---

(٥٦) الحديث فى الفتح الربانى بترتيب مسند الامام أحمد عن ابى هريرة . وفى جمع الجوامع جـ٣ ص ٣٠ .

(٥٧) البقرة ٢٥١

(٥٨) حياة الحيوان جـ٢ ص ١١٤

وشيع جنازته أربعون الف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس - ولم يمت فى بنى اسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعا عليه منهم على داود - عليه السلام - كان بين موسى - عليه السلام - وبين داود - عليه السلام - خمسمائة وتسع وتسعون سنة وقيل : تسع وسبعون سنة ..[٥٩] .



(٥٩) تفسير القرطبى سورة ص ٥٦٣١ .

فهرس المجلد الثالث

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
دخول الأرض المقدسة	١٩٨
يوشع بن نون	١٩٩
بلعم بن باعوراء	٢٠٢
وفاة يوشع	٢٠٥
النقباء	٢٠٦
أصحاب السبت	٢١٠
طالوت وجالوت	٢١٥
طالوت يقود بنى إسرائيل	٢١٨
العبرة فى قصة طالوت	
يونس عليه السلام	٢٢٥
نسبة	٢٢٦
قصته مع قومه	٢٢٧
يونس فى السفينة	٢٣١
يونس فى بطن الحوت	٢٣٢
شجرة اليقطين	٢٣٤
يونس يعود إلى قومه بعد نجاته	٢٣٦
وذا النون إذ ذهب مغاضبا	٢٣٨
قصة يونس عند أهل الكتاب	٢٤٠
فضل يونس	٢٤٢
إلياس عليه السلام	٢٤٥
قوم إلياس	٢٤٦
رسالة إلياس	٢٤٨
هل رأى أحد إلياس فى حياة الرسول ﷺ	٢٥١
قصة إلياس فى القرآن الكريم	٢٥٣
قصة اليسع	٢٥٥
اسمه ونسبه	٢٥٦

الموضوع	الصفحة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	٨	صرط	صراط
٢٠	٣	نجبانا	نجانا
٣٧	٤	لأغوينك	لأغوينهم
٤٢	١٠	٢٥	٢٤
١١٨	٢٠	قال موسى :	قال موسى

